
رايدر هجارد
كليوباترا
تعريب :
شفيق أسعد فريد

كليوباترا

المرأة الساحرة والملكة الداهية

بقلم الكاتب الانجليزي الكبير

رايدر هجارد

تعريب الاستاذ

شفيق اسعد فريد

مقدمة

عثر المنقبون حديثا على مقبرة فى منعزل من صحراء ليبيا المقفرة ، الواقعة خلف مدينة ابيدوس ومعبدها . . ذلك المعبد الذى يزعمون أنه المقر الابدى لاوزوريس المقدس . . وكان مما عثروا عليه فى هذه المقبرة حزم من أوراق البردى سجلت فوقها حوادث هذا التاريخ . .

والمقبرة فسيحة الارجاء ، ولا شىء فيها يجتذب الانظار غير مدخلها العميق ، الذى ينحدر رأسيا من المغارة المنحوتة فى الصخر الى قاعة التوابيت فى جوف المغارة . . وأما المدخل فلا يقل عمقه عن تسع وثمانين قدما .

وقد وجدوا ثلاثة توابيت فقط فى الغرفة التى فى نهاية هذا المدخل . من بينها اثنان عبث بهما العرب عند اكتشافهم المقبرة . . ومن المحتمل أن هذين التابوتين كانا يضمان رفاة الكاهن الأعظم (امينمحعت) ، وزوجه . . وهما ابوا (هارماكيس) بطل هذه الرواية . .

امتدت ايدى العرب النابشة اذن إلى رفاة (امينمحعت) المقدسة . . كما امتدت إلى بقايا زوجه التى جاء ذكرها فى الكتب على انها « المرأة التى تسكنها روح هاتور . » ومثلوا بهما ومزقوا اعضاءها شر ممزق ، باحثين عن الكنوز الثمينة بين عظامهما . . ومن ثم باعوا تلك العظام لقاء قروش معدودات اصابوها من أول سائح جاهل التقوا به فى طريقهم

ولكن اتفق بعد ذلك بوقت قصير . أن عبر طبيب ، يعرفه كاتب هذه القصة ، النيل الى ابيدوس . . واتصل بالرجال الذين نبشوا المقبرة . . وانتهكوا حرمة الموتى . . فباحوا له بسر المقبرة . . وانبأوه بأنه لا يزال هناك تابوت لم تمتد اليه ايديهم ، ظنا منهم انه تابوت رجل فقير لايستحق اهتمامهم .

وتحركت فى نفس الطبيب غريزة حب الاستطلاع ، وتلهف الى رؤية ذلك القبر الذى لم تطأه اقدام السائحين بعد ، فرشى العرب بالمال ليأخذوه اليه .

وهأنذا أسجل رسالة الطبيب الىّ فى هذا الصدد :

« نمت تلك الليلة على مقربة من معبـد (سيتى) .. وقبل أن ينبثق فجر اليوم التالى بدأت رحلتى .. وكان يرافقنى اعرابى خبيث أحول اسمه « على » ، اطلقت عليه اسم على بابا ـ وهو الرجل الذى حصلت منه على الخاتم الذى ارسله اليك رفق رسالتى ـ ونفر من زملائه الأشداء . . . وما ان انقضت ساعة على شروق الشمس حتى أشرفنا على الوادى الذى يضم المقبرة . وهو مكان موحش تسلط الشمس عليه حرارتها الملتهبة طول النهار ، بحيث لا يستطيـع الانسان أن يلمس الصخور السمراء الضخمة المبعثرة فى جميـع الأرجاء .. وأما الرمال فـكانت تشوى الأقدام شيا .

وكان القيظ قد أشتد بحيث تعذر علينا السير راجلين . . فامتطينا ظهور الحمير ، ورحنـا نضرب فى بطن الوادى بين الرمال المحرقة والسماء التى ترسل من لهيبها شواظا دون أن تقـع أبصارنا على شىء .. اللهم الا عقابا كان يحلق فوق رءوسنا .. حتى بلغنا صخرة هائلة ملساء السطح ، ناعمته ..

ووقف « على » فى تلك البقعة ، وقال ان المقبرة فى أسفل الصخرة . فترجلنا ، وتقدمنـا من الصخرة . . . حتى إذا بلغناها رأينـا فجوه ضيقة لا تـكاد تـكفى لزحف رجل واحد . . ولا ريب أن هذه الفجوة كانت من صنع أبناء آوى . . فقد كان مدخل المغارة وجزء منها مطمورين بالرمال .

وزحف « على » على بطنه ! وحذوت حذوه . وان هى إلا برهة حتى الفيت نفسى فى مكان مرطوب ، تـكتنفه ظلمة موحشة تلقى الذعر فى النفوس . . فأشعلنا مصابيحنا ، وانتظرنا حتىوافانا أصحاب على .

ثم رحت أردد الطرف حولى .

الفيتنى فى كهف لا يزيد حجمه عن غرفة كبيرة ، نحتت فى جوف الصخر وقد زينت جدرانه برسوم ونقوش دينية جميلة ترجع إلى عهد البطالسة . . من بينها صورة لشيخ تبدو عليه سيماء الوقار ، له لحية مرسلة . . جالس فوق مقعد مقوس ، وممسك بعصا فى يده .

فلم تساورنى الريبة فى ان الصورة صورة امينمحعت نفسه .

وأمام هذا الشيخ الوقور سار موكب من الـكهنة . وهم يحملون تماثيل مقدسة . .

وفى الركن الأيمن من المقبرة كان مدخل القاعة التى وضعت بها التوابيت وهو عبارة عن فجوة مربعة الشكل منحوتة فى قلب الصخر .

وكنا قد جلبنا معنـا غصنا جافا من شجر السنط . . فمددناه فوق فوهة الحفرة .. بعد أن ربطنا اليه حبلا متينا .

وفى لحظة اختفى « على » فى جوف المقبرة .

وهززت الحبل . . وسرعان ما صكت مسامعنا صيحات «على » الخافتة . فادركنا أنه بلغ جوف البئر بسلام .

وما هى إلا لحظـات حتى ومض شعـاع باهت من الضوء ، صادراً من جوف البئر .

كان على قد أوقد الشموع التى أخذها معـه . . ولـكنه بتصرفه المفاجىء ازعج مئات الخفافيش التى كانت تشاطر الموتى مثواها الأبدى وأثارها . . اذ لم تلبث أن بدأت تتسرب من الفجوة فى سكون وهدوء

وجذبنا الحبل إلى أعلا . . وربطت أحد طرفيه حول وسطى واحتفظ أعوانى بالطرف الآخر فى أيديهم .. ومن ثم بدأت فى الهبوط من الفجوة الى أعماق تلك البئر السحيقة

ولـكنى لاقيت عناء عظيما من مداعبات الخفافيش .. بيد اننى لم ا كترث للألم الذى نالنى فى غمرة اللهفة التى كانت تستولى على جميع مشاعرى وقتئذ

وأخـيرا الفيتنى واقفا بجانب (على) ، فى ممر ضيق ، وقد تعلقت بى الخفافيش ، وتصبب العرق من جسمى غزيرا . . وأصيبت ركبتاى بتسلخ شديد . .

وبعد قليل . لحق بنا رجل آخر . . وأما الباقون فانهم آثروا الانتظار عند فوهة البئر .

وتقدمنا (على) وحمل كل منا شمعة . .

وانطلقنا فى دهليز طويل يرتفع الى خمسة أقدام . وما لبث الدهليز أن

اتسع أمامنا . حتى بلغنا غرفة التوابيت فى النهاية . .

كانت غرفة مربعة الشكل .. خالية من النقوش والرسوم . أشد وحشة وانقباضا مما مر بى من الغرف والقاعات

وقلبت الطرف حولى .. فوقع بصرى على غطاءى التابوتين . . وبقايا رفاة الكاهن العظيم وزوجه اللذين عبثت بهما أيدى العرب من قبل . .

وقد لاحظت أن النقوش المرسومة فوق الغطائين على غاية من الروعة والدقة ، بيد أننى لم أستطع فك طلاسمها لجهلى باللغة الهيروغليفية .

وحولت بصرى الى محتويات الصندوقين ، فاذا بى أرى رأس رجل منفصل عن الجسد.. فتناولته .. وانعمت النظر الى وجهه .

وكان وجها جميلا ينم عن النبل ، وكرم المحتد . . وأدركت من منظر الرأس أن شعره أزيل عقب الموت مباشرة ..

ولم يغب عنى أن الوجه وجه رجل طاعن فى السن . . تلوح عليه سماء المهابة والوقار . فسرت فى نفسى رعدة شديدة . . وزادنى ارتياعا أن رأيت فى ذينك الكهفين الغائرين ظل نظرة مروعة . . ولدت فى نفسى الاعتقاد بالخرافات . . فاسرعت باعادة الرأس الى مكانه . وأشحت عنه بوجهى الى الصندوق الآخر ..

كانت بداخله جثة أخرى .. وقد لف وجه صاحبها فى أربطة وسبائك رقيقة من الذهب .. فلم أجرؤ على حلها .. فتركتها حيث هى ..

واشار (على) ، الى صندوق كبير ، ملقى فى زاوية الغرفة ومقلوبا فوق جانبه . . ثم قال :

— هذه هى المومياء الأخرى .

فتقدمت من التابوت ، وفحصته . . فاذا هو مصنوع بدقة من خشب الأرز .. ولكنه عار من النقوش والرسوم التى تمثل الآلهة . .

وقال (على) : لاريب أنهم دفنوه على عجل ، فهو ملقى على جانبه كما ترى ..

اطلت التأمل الى الصندوق ، الى ان أثار اهتمامى فى النهاية . .

كنت قد نفرت من رؤية احداث الموتي ملقاة هكذا دون احترام ، عندما وقع بصرى على ما حل برفاة الزوجين المبجلين . وعولت على ألا أمس التابوت الثالث . ولكن سرعان ما تملكنى فضول شديد ، فطرحت عنى ذلك التردد وأقبلت على العمل بحماسة ولهفة .

وكان (على) قد جلب معه مطرقة خشبية . فاصلح وضع التابوت ، ثم بدأ عمله بتلك الحماسة والغيرة المألوفتين فى نابشى القبور .

وشد ما دهشت حين تبينت أن هذا التابوت يختلف اختلافا بينا عما عداه من التوابيت . فالمتبع فى توابيت الموتى أنها تقفل بوساطة أربعة السنة من الخشب . اثنان منها فى كل جانب . ولكن كان لهذا التابوت ثمانية السنة . أربعة فى كل جانب .

لا ريب أنهم أرادوا بذلك شدة المحافظة على جثة الميت .

وبعد لأى استطعنا أن نرفع الغطاء الثقيل ، وكان سمكه نحو ثلاث بوصات وهناك ، فى جوف التابوت ، وقع بصرنا على الجثة مكفنة فى طبقة من العقاقير المعطرة .

وحدق (على) فى الجثة مشدوها . كانت تختلف فى الوضع عن غيرها . فقد جرت العادة أن تمدد الجثث على ظهورها ، فاذا ما اكتشفت ، تكون قد جفت وتصلبت ، كأنها قطعة من الخشب .

وأما هذه الجثة فانها كانت ممددة على أحد الجانبين . والركبتان مثنيتان قليلا . برغم الأقمشة التى لفت حولها . والوجه قد غطى بطبقة من الذهب جريا على عادة البطالسة . ولكن هذه الطبقة كانت قد تحللت ، واستحالت الى مسحوق تحت الرأس الملفوف بالأربطة .

وللوهلة الأولى أدركت أن هذه الجثة وضعت قسراً فى التابوت

قال على :

— يا لها من مومياء مضحكة ! لا ريب أن صاحب الجثة لم يكن قدمات عندما وضعت جثته فى التابوت .

فأجبت :

— حديث خرافة ! من سمع عن مومياء حية ! !

— ورفعنا الجثة من التابوت ، ونحن نكاد نختنق من الغبار المتطاير . . فعثرنا على لقيتنا الأولى بين عقاقير التحنيط . .

كانت حزمة من أوراق البردى ، لفت بغير عناية فى قطعة من النسيج . . وألقيت عند قفل التابوت . .

ورمق « على » الحزمة بعينين يتجلى فيهما الجشع . . ولكننى أسرعت والتقطتها قبل أن تمتد اليها يده . . ودسستها فى جيبى . فقد اتفقنا من قبل على أن استولى على كل ماعسانا نعثر عليه . .

وشرعنا فى حل اربطة الجثة . . وكانت أربطة عريضة متينة ، لفت بكثرة حولها . ولكنها ربطت باهمال وتراخ . مما يدل على أن العمل كله قد تم بسرعة ومشقة عظيمتين . .

وكان فوق الرأس مباشرة شيء بارز متضخم . . فلما فككنا العصائب الملفوفة حول الرأس ، عثرنا على حزمة أخرى من أوراق البردى موضوعة فوق الوجه . .

ومددت يدى لألتقط الحزمة . . ولكننى ألفيتها ملتصقة به . . فقد كانت الجثة كلها موضوعة فى شبه كيس من الشمع . . فانحنيت فوقها . وتأملتها مليـاً ، وعندئذ أيقنت أن هذا الكيس إن هو إلا مواد التحنيط وقد استحالت الى مادة أشبه بالغراء . . واننى لو انتزعت الحزمة قسراً لتمزقت الأوراق الخارجية . .

ومع ذلك فقد جازفت ، وانتزعتها من مكانها . . وضممتها الى الحزمة الأولى فى جيبى . .

واستأنفنا عملنا البغيض ، بهدوء وسكون . . فنزعنا شبه الكيس بعناية وحذر . . وحينئذ برزت جثة رجل من جوفه

وبين ركبتى الجثة عثرت على حزمة ثالثة من أوراق البردى . . فأخذتها . ووضعتها بدورها فى جيبى . . وأدنيت الشمعة من وجه الميت . . . وأنعمت النظر اليه . وعندئذ تجلى لى كيف مات هذا الرجل .

لم يكن الجسم قد جف تماما ، لأنه لم يوضع فى النطرون مـدة السبعين يوما المقررة للتحنيط . . ولذا كانت قسمات الوجه واضحة بجلاء . . وحسى أن أقول إن النظرة التى كانت مجسمة على وجه هـذا التعس جعلتنـا جميعاً نتراجع إلى الخلف مذعورين .

ولم يقع بصرى على فتحة فى الجنب الأيسر ، وهى الفتحة التى يحدثهـا المحنطون ، ليدخلوا عقاقير التحنيط من خلالها الى جوف الجثة . .

ومن النظرة الأولى إلى وجه الرجل عرفت أنه فى منتصف العمر . . رغم الشعيرات البيضاء التى تجلل رأسه .

وكان الرجل متين البنيان ، عريض المنكبين . . ولـكننى لم أجد من وقتى متسعا لفحص أعضائه جميعا فحصا دقيقا . . فانه لم تمض دقائق على فتح التابوت حتى أخذت الجثة غير المحنطة تتحلل بتأثير الهواء . .

وبعد ست دقائق كانت قد تحللت تماما . . ولم يبق منها غير خصلة من الشعر . والجمجمة . وكومة من عظام الهيكل الطويلة

وقد لاحظت ان عظمة إحدى الساقين مهشمة . . ولـكنها جبرت بغير اتقان . إذ كانت أقصر من أختها ببوصة . .

وانتهى عملنا عند هذا الحد . . والآن وقد زايلنى الاضطراب . فقد أحسست انى على قيد أنملة من الموت . بسبب ما عانيته من حرارة المـكان المرتفعة . . وما بذلته من مجهود جبار . . والهواء الفاسـد الذى استنشقته فى هذه الغرفة المقفلة . .

لقد سئمت الـكتابة ، فان السفينة لا تستقر على سطح الماء . . ولا تفتأ تهتز وتتمايل . . ولا ريب ان رسالتى هذه ستصلك قبل أن أبلغ لندن بعشرة أيام على الأقل . . وشد ما أتلهف على أن انهى اليك ما لاقيته من متاعب وأهوال أثنـاء تلك الرحلة الطريفة . . وحسبى أن أقول ان (على بابا) وزملاءه الأشرار حاولوا بالارهاب والتهديد أن أنزل لهم عن أوراق البردى . ولـكننى رفضت وانتصرت عليهم فى النهاية . .

سوف نفك الرموز والطلاسم المسجلة فى اللفائف . . وأكبر ظنى انها

لا تحتوى على شيء غير عادى . . بل لا تعدو أن تكون نسخة من « كتاب الموتى » . . ولكن من المحتمل ان نعثر على شيء آخر خلال سطورها .

والآن . . إلى اللقاء يا صديق .

« * »

وصل صديق إلى لندن فى الموعد المحدد . .

وفى اليوم التالى ، زرنا عالما اخصائيا فى اللغة الهيروغليفية ، والديموطيقية وأطلعناه على اللفائف . .

ورحنا نرقبه فى لهفة واهتمام ، وهو يقلب أوراق البردى بين يديه . . ويطيل النظر إلى رسومها من خلال عويناته الذهبية . .

وأخيراً هتف :

— آه ! ! ليست هذه الأوراق نسخة من كتاب « أسرار الموتى » على كل حال . ! يا الهى ! ! ماهذا ؟ ! كلا . . كليو . . كليوباترا . . نعم ياسيدى العزيزين . هى قصة رجل عاش في عصر كليوباترا . . ولا ريب . . فانى أرى اسم انطونيوس بجانب اسمها ؟! حسنا . . ان أمامى عملا سيشغلنى مدة ستة شهور على الأقل ! ؟

وفى غمرة الفرح راح الرجل يثب فوق أرض الغرفة . . ويصافحنا بين الحين والحين . .

ثم استطرد :

— لابد لى من ترجمتها . . وسننشرها على الملأ . . وبحق أوزوريس الحى انها ستطيش صواب كل مشتغل بالعلوم المصرية القديمة فى أوربا من الحسد ؟! يالها من لقية !! ما أعظمها من كنز نفيس !!

***

والآن وقد ترجمت هذه الأوراق الهامة . . وطبعت . . فعليكم بها اقرأوها ، ها هى مبسوطة أمامكم ، كأرض عذراء مجهولة ، فامشوا فى مناكبها ، وجوسوا خلالها ، بملء حريتكم ورغبتكم

هوذا هارما كيس يخاطبكم من قبره المنسى . . وقد سقطت الحواجز

الزمنية التى تفصلكم عنه ، انه يرسم أمام أعينكم صورة من الماضى السحيق ، ويميط عنها اللثام ، واضحة لامواربة فيها ولا خفاء .

انه يظهركم على مصر فى عهدين مختلفين ، والاهرامات الصامتة تطل عليها منذ أجيال طويلة خلت ، مصر فى العصر اليونانى ، والرومانى ، والبطليموسى ، ثم مصر المنهوكة القوى فى عهد الكهنة ، وقد ابهظت المتاعب كاهلها ، مصر التى تندب مجدا قديما ضاع على مرور الزمن .

سيحدثكم كيف اشتعلت جذوة الولاء الدفين فى أرض مصر قبل اخمادها ، وكيف ناخت تلك العقيدة القديمة سيل التغيير العرم الذى فاض عليها ، وأغرق آلهتها .

هنا ، فى هذه الصفحات ، ستعرفون مجد (ايزيس) ، ذات الهيئات المتعددة ، ومنفذة الأوامر ، هنا ستقفون على ظل كليوباترا (الشعلة المتقدة) التى قرر جمالها الفتان . وسحرها الذى يسبى العقول وينفذ الى الافئدة ، مصير امبراطوريات ، هنا ستقرأون كيف قتلت (شارميون) بسيف انتقامها .

وهنا يحييكم هارماكيس المصرى وهو على أبواب الأبديه ، يحييكم يا من ستتبعون خطواته فى الطريق الذى إنتهى الى مصرعه ، وسيريكم فى قصة حياته المؤسية ماقد يكون قصة حياتكم أيضا ، وسيهتف من أعماق

(مظهر الأرواح) المظلم حيث يقضى أيام توبته الطويلة ، ويحدثكم بتاريخ سقوطه وانحداره ، وخاتمة الرجل الذى ينسى ربه ، وشرفه ، ووطنه مهما كانت قسوة التجارب التى عاناها وتقلب عليها

القسم الاول

الفصل الاول

نبوءة هاتور

اقسم باوزوريس القائم فى ابوثيس اننى لا أقول غير الحق . . ولا شىء غير الحق .

أنا هارما كيس كاهن المعبد بالوراثة ، ربيب سيتى المقدس ، أحـد فراعنـة مصر الأقدمين ، والقائم الآن فى أحضان أوزوريس ، والحاكم فى أمنتى (مظهر الارواح)

أنا ، هارما كيس ! المقدس بالحق ، صاحب التاج المزدوج بحق الدم الموروث وفرعون مصر العليا والسفلى . . أنا هارما كيس ، الذى القيت عن زهرة أملنا المتفتحة . وتنكبت طريق المجـد . وتجاهلت صوت الاله ، وأنصت الى صوت امرأة . . أنا هارما كيس ، الساقط الذى اجتمعت فيـه كل النقائص والرذائل ، كما تتجمع المياه فى بئر فى الصحراء . أنا الذى خنت بلادى . . وبتفريطى فى السؤدد الحاضر فقدت السؤدد الأبدى . . فاهلكت نفسى ، وأضعتها . . أسجل الحقيقة عن ذلك الناأم فى أبوثيس .

« * »

واذ أسجل هذه السطور وراء الحقول الخصبة يخيل الى أن النيل يجرى دما أحمر . . وأرى أمامى نور الشمس وقد سقط على الشلال البعيـدة . . وجدران معبد ابوثيس

ما زال السكهنة يصلون داخل المعبد الذى لفظنى . . وما زالت القرابين

تقدم للآلهة المقدسة . . وجدران المعبد تردد صدى صلوات الشعب . . واما أنا ، رمز الخزى والعار . فاراقب من زنزانتي الموحشة داخل سجني ، أعلامك الخفاقة ، أى أوزوريس ، وهى ترفرف فوق جدران أبراجك السامقة . . واسمع ترانيم المصلين . . وموكبهم ينتقل من هيكل الى هيكل .

أى أبوثيس ، أبوثيس الضائعة ! ان قلبي يتمزق حسرة من أجلك . . فسيأتى يوم تطمر فيه رمال الصحراء أما كنك السرية . . لقد كتب الدمار على آلهتك ، أى أبوثيس ، وستسخر أديان جديدة من كل ما هو مقدس فيك . . وينتهك قواد الرومان حرمتك . . ويتنادى أحدهم الآخر من وراء جدران حصونك .. انني أبكى . . أبكى دموعا من الدم .. فان خطيئتى هى التى جلبت كل هذه الشرور . . وأنا وحدى الذى تقع علي تبعة كل عار ومذلة .

انظروا . . هأنذا أسجل قصتى .

ولدت أنا هارما كيس ، فى أبوثيس . . وكان أبى الراقد الآن فى أحضان اوزوريس ، الكاهن الأعظم لمعبد سيتى . . ويوم ولدت ، ولدت كليوباترا ملكة مصر .

وقد قضيت ايام حداثتى فى الحقول ، اراقب افراد الطبقة الدنيا وهم يؤدون اعمالهم .. وارتع وألعب بين ابهاء المعابد العظيمة على حريتى .. وكما يروقنى وأما امى فلا اعلم عنها شيئا .. فقد ماتت وأنا لا ازال أحبو على اربع .. ولكننى سمعت من العجوز (اتوا) ان امى قبيل موتها فى عهد اولتيس الزمار ، احد ملوك البطالسة ، تناولت ثعبانا من الذهب ، وهو رمز الملكية فى مصر ، وكانت قد أخرجته من صندوق من العاج .. ووضعته فوق جبينى وأما الذين رأوها وهى تفعل ذلك فقد اعتقدوا أن الآلهة سكنت قلبها ، وخلبت لبها ، فتنبأت فى جنونها باليوم الذى سيزول فيه حكم المقدونيين ويعود فيه صولجان مصر إلى الاسرة الملكية الحقيقية ..

ولكن عندما جاء ابى امينمحت الكاهن الأعظم . . ورأى ما فعلت بى أمى ، وهى تجود بأنفاسها الأخيرة ، رفع يديه إلى السماء ، وقدم فروض

الطاعة للقوة غير المنظورة .. شاكرا لها العلامة التى أرسلتها ..

وفيما كان يبتهل الى الآلهة ، حلت روح النبوة فى أمى فى اللحظة الأخيرة فنهضت من فراشها وقد زايلها المرض ، وخرت ساجدة ثلاثة أيام أمام المهد الذى كنت نائما فيه . والتاج الذهبي لا يزال يحلى جبينى .

ثم هتفت قائلة :

— السلام عليك يا ثمرة الاحشاء !! السلام لك أيها الطفل الملكى !! السلام لك يامن سيكون فرعون مصر !! السلام لك ايها الاله الذى سيطهر البلاد . . ياسليل « نخت — نف » سليلة ازيس . . كن دائما طاهراً ، وستحكم مصر ، وتخلصها من نير العبودية ، وتصبح راسخا كالطود .. لكن اذا استضعفت فى ساعة التجربة فستحل عليك لعنة جميع آلهة مصر .. ونقمة اجدادك الذين اعتلوا عرش مصر من قبل مذ عهد هوروس . . وليكن الشقاء والبؤس نصيبك .. ولينبذك اوزوريس بعد الموت . . وتصدر قضاة (امنتي) حكمها ضدك .. وتنكل بك (ست وسخت) حتي يأتى اليوم الذى تطهر فيه من خطيئتك .. ويعود الناس مرة أخرى الى عبادةالآلهة فى هياكل مصر . وتخضد شوكة الباغى الظالم .. وتطهر البلاد من حكم الاجنبى ويعود اليها الصفاء الذى كدرته فى ساعة من ساعات ضعفك .

واذ فرغت أمى من حديثها . زايلتها روح النبوة .. وسقطت ميتة فوق مهدى .. فاستيقظت صارخا ..

وانتفض ابى امينمحمت الكاهن الأعظم . . واستولى عليه خوف عظيم من جراء الكلمات التي نطقت بها روح هاتور على لسان امى . . تلك الكلمات التي تتضمن خيانة بطليموس ..

وكان ابى يعلم انه اذا بلغت هذه النبوءة مسامع الملك ، فانه ولا ريب سيبعث حراسه لقتل الطفل الذى قيلت عنه . فأغلق الأبواب . وأرغم جميع الذين سمعوا النبوءة على أن يقسموا بالرمز المقدس . وبالثالوث المقدس . وبروح المرأة التى سقطت ميتة على الأحجار بجانبهم ، الا يفوهوا بكلمة مما سمعوا ، أو يفضوا بشىء مما رأوا ..

وكانت (اتوّا) العجوز بين الحاضرين . . وهى مربية أمى ، وكانت تحبها حبا جما .. ولـكن القسم لم يـكن ليربط لسان المرأة فى تلك الأيام . . فسرعان ما افشت سر النبوءة الى ابنتها ، وكانت مرضعتى آنئذ

وعقبت (اتوّا) على ذكر النبوءة بقولها ان مثل هـــذا الطفل جدير بالاهتمام وحثت ابنتها على تبجيلى ، بوصفى فرعون مصر المقبل . الذى سيطرد البطالسة .

واخذت الابنة بهذا النبأ . ولم تستطع أن تكتمه عن زوجها الذى باح به لأحد أصدقائه من جواسيس بطليموس . وهذا أبلغه بدوره الى الملك .

وقد أقام هذا النبأ فرعون وأقعده . وقض مضجعه . . ومع أنه كان يهزأ بآلهة المصريين كلما لعبت الخمر برأســه . ويقسم أنه لا يجثو لأى اله مهما كان شأنه . غير مجلس شيوخ روما ، فانه كان يشعر بذعر عظيم ، كما علمت فيما بعد من أحد أطبائه ، كلما انفرد بنفسه فى الليل .. ويصيح مناديا الاله العظيم (سيرابيس) . وماهو باله صادق .. وغيره من الآلهة خشية أن يقتل وتسلم روحه الى الجلادين . .

أقول ما أن سمع بطليموس بالنبوءة . وعرف مصدرها ، حتى اضطرب ظهرا لبطن . واستدعى نفرا من حراسه الأمناء .. وأرسلهم فى زورق الى أعالى النيل .. بعــد أن أمرهم بالذهاب الى ابوثيس . وقتل ابن امينمحعت الـكاهن الأعظم . على أن يأتوه بالرأس فى سلة .

ولـكن حدث أن كان زورق الحراس عميقا .. ومياه النيل قليلة الغور فالتصق بقاع النهر . وغاص فى الطين . فاستنجد الحراس ببعض الفـلاحين ولـكن الفلاحين أعرضوا عنهم ونأوا بجانبهم .. عندما رأوا أنهم من يونانى الأسكندرية .

وصاح الحراس فيهم يستجثونهم : . وزعموا أنهم موفدون من قبل فرعون لاتمام مهمة عاجلة . فلم يصدقهم الفلاحون . وعندئذ كاشفهم احـد الحراس ، وكان جبانا رعديداً ، بطبيعة المهمة .. فذعر الفلاحون . وأجابوهم إلى طلبهم

وكان من بين هؤلاء الفـلاحين رجل له صلة قربى بأمى . . فما ان سمع هذه الانباء المزعجة ، حتى أطلق ساقيه للريح . ولم يكف عن الركض حتى بلغ المـكان الذى كنت نائما فيه .. وكان واقعا خارج السور الشمالى للهيكل العظيم .

واتفق أن كان أبي غائبا وقتئذ فى المقابر التى الى يسار الحصن . . وكان حراس فرعون يسرعون فى سيرهم .. فكاشف الفلاح (اتوّا) بكل شىء . وانبأها أن الجنود قادمون لقتلى ..

وسقط فى يد الاثنين . . ولم يدريا ما يفعـلان . فلو أنهما حاولا إخفائى لمـا أنقـذنى ذلك من أيدى الحراس . . فهم لاريب سيبحثون عنى فى كل مكان حتى يعثروا علىّ ..

ولاحت من الفلاح التفاتة إلى الباب ، فرأى طفلا يلعب . . فصاح :

— طفل من هذا أيتها المرأة ؟

— انه حفيدى . . أخو الأمير هارما كيس فى الرضـاعة . . وهو ابن المرأة التى جرت علينا هذا البلاء

فأشار الرجل الى الطفل مرة أخرى . . وهتف :

— أيتها المرأة . . إنك تعرفين واجبك فى هـذه اللحظة الرهيبة . . فأناشدك بحق الاسم المقدس أن تقومى به ! ؟

فر لون المرأة . . وجمدت فى مكانها لا تتحرك . .

ولـكنها أقدمت على التضحية العظيمة . . فأخـذت الطفل ، وغسلتـه ! وألبسته ثوبا حريريا ، ثم مددته فى مهدى . . أما أنا فانها أخـذتنى ولوثت وجهى بالأوحال . . ونزعت جلبابى ، وتركتنى ألعب فى الطين فى فناء الهيكل وانطلق الفلاح لشأنه . .

وبعد هنيهة أقبـل جنود فرعون .. فقدمت لهم العجوز (اتوّا) لبنـاً وعسلا ثم سألتهم عما يريدون . .

وإذ سـألها أحد الحراس عما إذا كان الطفل النـائم فى المهد هو ابن أمينمحعت الـكاهن الأعظم . . راحت المرأة تسرد عليهم النبوءة بحذافيرها .

وضحك الحراس ساخرين . . وتقدم أحدهم من الطفل . . وذبحه ذبح الشاة . . ثم أخرج الحارس خاتم فرعون . وأراه للعجوز . وأمرها ساخراً أن تنبيء الكاهن الأعظم بأن ابنه سيكون ملكا بلا رأس . !

وعند رحيلهم رآنى أحدهم وأنا ألعب في الأوحال . . فهتف :

— هوذا طفل آخر غير الأمير هارما كيس

وبدا التردد على الحراس . . وأخذوا يتشاورون فى قتلى . . ولكنهم انصرفوا فى النهاية . . وهم يحملون رأس أخى فى الرضاعة

وبعد وقت قصير ، عادت أم الطفل المقتول من السوق . . فلما رأت وزوجها ماحل بابنهما . . خطر لهما أن يقتلا العجوز (أتوّا) ويسلمانى لجنود فرعون .. ولكن حدث أن جاء أبى فى تلك الاثناء . . واطلع على الحقيقة فأمر باعتقال المرأة وزوجها . وزجهما فى مكان مظلم من الهيكل . . فلم يرهما أحد بعد ذلك . .

وأشيع فيما بعد أن امينمحعت الكاهن الأعظم تبنانى بدلا من ابنه هارما كيس الذى قتله جنود فرعون

الفصل الثانى

عصيان هارما كيس .

لم يزعجنا بطليموس (الزمار) بعد ذلك . ولم يعد الكرة فيبعث بجنوده إلى ابوثيس للبحث عن الطفل الذى تنبأت زوجة امينمحعت بأنه سيكون فرعون مصر .. وطبيعى الا يحاول ذلك بعد أن اتاه جنوده برأس الطفل — أخى فى الرضاعة — وهو جالس فى قصره ، المصنوع من المرمر فى الاسكندرية .

كان في هذه اللحظة ينفخ في مزماره ، فى جمع من نسائه . . وقد انتفخت أوداجه بفعل خمر قبرص . . فلما وقع بصره على رأس الطفل البرىء ، أمر جنديه أن يرفعه من شعره . ثم ضحك باشمئزاز ، وخلع حذاءه . ولطم الطفل

على وجهه . . وأمر إحدى جواريه أن تتوجه فرعونا بأ كليل من الورد . . وركع أمامه وأخذ يسخر منه .

وكانت الجارية سليطة اللسان . . فقالت لفرعون أنه أصاب بالسجود . لأن الطفل المقتول هو أحد الفراعنة ، بل أعظمهم جميعا ، واسمه (أوزوريس) .. وعرشه (الموت) ..

فانتفض بطليموس . . وأمر بقتل الجارية ، لتذهب إلى فرعونها الذى سمته .. وتعبده

وصرف الجاريات الأخريات . وكفّ عن النفخ فى المزمار . . وأقبل على الخمر يلتمس فيها النسيان .

وكرت أعوام . . وتتابعت سنون . وأخذ أبى ، والمعلمون ، يلقنوننى العلوم القديمة .. والدراسات الدينية المتعلقه بالاله . . حتى دخلت فى طور الغلمان .

كنت جميل الطلعة . . ذا شعر أسود . وعينين زرقاوين مثل زهرة اللوتس . أبيض البشرة كالمرمر .. وقد زالت هذه المحاسن الآن . . ولذا فأنا أذكرها دون خجل .

وقد شببت عريض المنكبين ، مفتول الساعدين . . يهابنى أترابى فى أبو ثيس . ولا يجرؤ أحدهم على منازلتى . بل لا أحسبنى مغالياً إذا قلت اننى كنت أفوقهم جميعا فى قذف المقلاع والرمح . وقد أغرمت باقتناص الأسود ولكن أبى نهانى عن ذلك خشية أن تستهدف حياتى الثمينة للخطر . . فاذا ما استوضحته معنى قوله . . عبس وقال ان الآلهة ستكشف لى عن الحقيقة فى حينها . .

وكان فى أبوثيس شاب قتل مع آخرين أسداً انقض على قطيع أبيه . . وكان هذا الشاب يحسدنى القوتى وجمال طلعتى ، فراح يذيع عنى اننى جبان . لا أصطاد غير الغزلان . وأبناء آوى

واتفق ان كنت منصرفا من حضرة أبى الكاهن الأعظم ذات يوم . . فالتقيت بهذا الشاب .

واستوقفني . وسخر مني . ثم قال إن الناس يتحدثون عن وجود أسد بين الأدغال والأحراش على ضفتي الترعة التي تمر بالهيكل على بعد ثلاثين فرسخا من ابوثيس . وسألني ساخراً أن أرافقه ان كنت على شيء من الشجاعة والاقدام . وأساعده على قتل الأسد . االهم ان آثرت أن أجلس بين النسوة لىمشطن شعري ؟ ! !

ثارت ثائرتي . وكدت أنقض على الشاب . ولكنني تمهلت . وقلت متحديا :

— هلم معي بمفردك لنبحث عن الاسد . وعندئذ سنرى أينا أشد جبناً وأضعف قلباً .

فبدا عليه التردد . فقد جرت العادة أن يخرج الشبان جماعات لصيد الأسود . ورحت أسخر منه بدوري .

وكأنما كبر عليه أن أعيره بجبنه وضعفه . إذ سرعان ما انطلق إلى منزله ثم عاد يحمل قوسه وسهامه . وسكيناً حاداً . وأما أنا فقد تقلدت رمحي الثقيل وكانت قصبته من خشب السنط . . وفي طرفه رمانة من الفضة تحول دون افلاته من اليد .

وانطلقنا صامتين إلى عرين الأسد

ووصلنا إلى غايتنا عند غروب الشمس . . ورأينا آثار أقدام الأسد مطبوعة على الطين فوق الضفة . . وكانت الآثار تتجه إلى الغاب . . فقلت لرفيقي :

— هل تجد من نفسك الجرأة على أن تتقدمني أيها المتكبر . . أم أفعل أنا ؟

فتردد . . وحينئذ هممت بالسير أمامه . فقال معترضاً :

— لا . . لا . . لاتكن مجنونا . والا فتك بك . . انظر ! . سأطلق سهمي ليستيقظ ان كان نائما .

وأطلق السهم .

لست أدري كيف أصاب الهدف . ولكن اتفق ان كان الأسد نائما . .

وحين أحبس بالسهم ينغرس فى لحمه . وثب من مكمنه ! وانفلت من الغاب كما ينبثق البرق من جوف السحاب . وواجهنا مكشراً عن أنيابه . والسهم يهتز فى خاصرته

وزأر زئيرا مخيفـاً . شعرنا على أثره كأن الأرض زلزلت من تحتنا . . فصحت :

— سدد اليه سهما آخر قبل أن يفتك بنا .

ولـكن الذعر كان قد شل حركة رفيقى . . وخانته أعصابه . وسـقط القوس من يده . ولم يلبث أن صرخ صرخة داوية .. وتراجع خطوة محاولا أن يتوارى خلفى من الوحش الـكاسر وتركنى وحدى أمامه وجها لوجه

أدركت اننى هالك لامحالة . ولـكننى لم أفـكر فى الهروب لعلمى بان مثل هذه المحاولة مقضى عليها بالفشل .

وفى اللحظة التالية . وثب الأسد من فوق رأسى ، دون أن يمسسنى بسوء ثم انقض على رفيقى . ولطمه بمخلبه لطمة هشمت جمجمته

وسقط الشاب صريعا على الأثر . ووقف الأسد مصعرا خده . وهو يختال فوق فريسته . ثم دوى زئيره يصم الآذان . فأيقنت أن لحظتى قد دنت . وانى ان لم أبادر بعمل سريع . فسألاقى حتما مصير رفيقى .

وقبضت على الرمح بكل قوتى . . وصرخت فى وجه عدوى الشديد المراس ثم حملت عليه . .

وتحفز الأسد . . ونهض على قائمتيه الخلفيتين . واستعد لملاقاتى . .

ولـكننى عاجلته بطعنة نافذة قاتلة . . ودفنت الرمح فى حلقـه . . فأن أنينا موجعاً . . ووثب فى الهواء على ارتفاع قامتين . . وجعل يناضل بمخلبيه الاماميين ليتخلص من الرمح . .

وأخيرا وهنت قواه .. لـكثرة مانزف من دمائه .. ثم خار خوار الثور . وسقط جثة هامدة .

وتنفست الصعداء . . ولـكننى كنت أنتفض فرقا ، وفزعا . بعد أن زالت أسباب الفزع .

وفجأة .. برزت (اتوّا) من بين الأشجار .

كانت قد انطلقت الى شاطىء الترعة لتجمع بعض الاعشاب الطبيـة . فبلغ مسامعها صوت صراعى الرهيب . فجاءت تستطلع جلية الأمر

ولما تحققت المرأة من أننى هـــارما كيس . جثت أمامى ، وحيتنى . وراحت تحدثنى وهى تطلق على لقب (ملك) !

نعم . نادتني باسم فرعون ! منقذمصر !

ولـكنى اعتقدت أن الرعب هو الذى اطلق لسانها بهذا الـكلام . وقلت :

— وهل قتلى أسداً يعتبر عملا عظيما يستحق كل هذا الاطراء والتضخيم؟ فى العالم كثيرون قتلوا اسوداً لا أسداً واحداً . ألم يقتل (امنحتب) المقدس أ كثر من مائة أسد ؟ ألم يفعل غيره مثلما فعل وفعلت ؟ لماذا تنطقين إذن بهذه الاسماء أيتها المرأة الحمقاء ؟

كنت أبغى التظاهر بالاستخفاف بمثل العمل الذى اتممت . ولـكن المرأة لم تـكف عن تقديم فروض الولاء والتـكريم . وجعلت تناديني بالقاب أرفع من أن تسجل

وهتفت :

— يا سليل الملوك . لقد تنبأت أمك عن حـكمة . ولا ريب أن الروح المقدس (نبث) كان يسكنها . انظر إلى هذا الفأل الحسن يا مبعوث الآلهة ! هذا الاسد المضرج بدمه . أنه يزأر بين جدران الـكابيتول فى روما . وهذا الرجل المقتول . إنه بطليموس ، نسل الملاعين الذين اغتصبوا وادى النيل . ستذهب مع أهل لاجدوس المقدونيين لقتل الاسد الرومانى . وسيولى الجبناء منهم فرارا . ويقتلهم الاسد الروماني . وأما أنت فستصرع الاسد . وستحرر ارض خم (مصر) مرة أخرى . وتعيد اليها حريتها ! نعم حريتها ! فـكن لطهارة نفسك حافظا وعلى نقائها حارساً . فهذا ما تطالبك به الآلهة يا سليل الملوك وأمل مصر . حذار من المرأة . فانها اس البلايا . ومصدر الارزاء

إننى إمرأة فقيرة شقية . صرعها الحـزن . والألم . وقـد اقترفت جرما

عظلها بافشائى ما كان يجب أن يبقى طى الكتمان . ولكنى وفيت الثمن .قطعة من ذات نفسى . وفديتك راضية مغتبطة . بيد أننى لا أزال أمتع بحكمة قومى. ولم تتخل الآلهة بعد ،والجميع عندها سواسية ، عن الفقير . فقد حدثتنى الأم المقدسة (ايزيس) ليلة أمس . وأمرتنى أن أجمع الاعشاب الطبية . واشرح لك العلامات التى أراها . وهأنذا أكرر أن ماذكرته لك سيحدث، فقط لو استطعت أن تحتمل وطأة التجربة الشديدة . اقترب منى يا سليل الملوك !

وقادتنى الى حافة الترعة . . وكانت المياه عميقة رقراقة .

ثم قالت :

— انظر الى وجهك منعكسا على صفحة الماء .. اليس هذا الجبين جديرا بلبس التاج المزدوج ؟ ألا تتجلى فى هاتين العينين الصافيتين عظمة الملوك ؟ ألم يكوّن الخالق (بتاح) جسمك هذا ليلائم لباس الملوك .

واستحال صوتها حادا رنانا .. واستطردت :

— لا . . لا . . لا تكن أحمق ايها الغلام . . إن الخدش الذى أصابك من صراعك مع الأسد سام يابنى . . انه شيء مخيف . . كلدغ الأفعى . . ينبغى ألا يهمل . والا تقيح . . ولكنى أحطت بدواء التقيح . فما فقدت عقلى عبثا . . ودون مقابل . . فان لكل شيء مقابله . . ففى الجنون حكمة عظيمة . . وفى الحكمة جنون عظيم ! انظر ! ان فرعون نفسه لا يستطيع أن يقول اين يبتدىء أحدهما وينتهى الآخر . . لا تحملق هكذا . . دعنى ألصق هذه الأعشاب فوق الجرح . لن تمضى ستة أيام حتى تبرأ منه تماما .

وبحق النائم فى فيلى أو فى أبوثيس أو فى أبيدوس — كما يعتقد رؤساؤنا المبجلون الآن — أو فى مكان آخر . . أقول بحق أوزوريس ستبرأ من كل سقم وستكون طاهرا مثل قربان مقدم الى (ايزيس) إذا تركتنى أضع الأعشاب فوق الجرح..

وكان بعض الناس قد التفوا حولنا ، والمرأة تبشرنى بنبوءتها . فتحولت

اليهم (اتوّا) . . وقالت :

ـ لا شيء أيها السادة . كنت الق عليه تعويذة لأمهد السبيل لدوائى . . انظروا !لاشيء هناك كالرقية . فان لم تـكونوا من المؤمنين بتأثيرها . فأتونى بزوجاتـكم المصابات بالعقم ، اجعلهن يلدن كما لو كن فى الحادية والعشرين . . ذلك خير لهن من الالتصاق باعمدة هيكل أوزوريس .

واذ سمعت أنا هارما كيس ، كلمات العجوز . وضعت يدى فوق رأسى . . كأنى أرى رؤيا . . ولـكنى لم ألبث أن رأيت رجلا أشيب بين المتمجهرين يراقبنا باهتمام . وقد علمت فيما بعد أنه من جواسيس بطليموس . بل لقد كان هو نفس الرجل الذى افضى الى بطليموس بسر النبوءة . وكاد يتسبب فى قتلى وانا فى المهد .

وهنا أدركت سر تظاهر (اتوّا) بالجنون .

قال الجاسوس :

ـ ان رقيتك هـذه عجيبة أيتها المرأة العجوز . . انك تكلمت عن فرعون والتاج المزدوج ، وعن شخص كونه الخالق (بتـاح) . اليس كذلك ؟

فأجابت المرأة :

ـ نعم . . نعم . هذا جزء من الرقية ايها الأحمق . أى شيء أحق بالقسم فى هـذه الأيام من فرعون السـامى (الزمار) . ادعو الالهة أن تحفظه ، وتحفظ مزماره ليملأ هذه البـلاد السعيدة بهجة وحبوراً . وأى شيء أعظم من التاج المزدوج الذى لبسه الاسكندر المقدونى ؟ وبهذه المناسبة ، أسألك ياسيدى هل استعادوا عباءته التى أخذها متريادينس الى قوص ؟ الم يكن بومبيوس آخر من ارتداها ؟ تصور ان بومبيوس يرتدى عباءة الاسكندر كجرو فى جلد أسد ! وبمناسبة التحدث عن الأسود . . انظروا مافعله هذا الغلام . انه قتل أسداً برمحه . وانظروا الى هذه الجثة . جثة الصبى الميت . . لقد فتك به الأسد . . واحسرتاه ! انه الآن راقد فى أحضان اوزوريس . . لقد كان منذ ساعة حيا يرزق مثلى ومثلكم ! هلموا واحملوه الى المحنطين .

انظروا لقد أطلت فى الحديث ، والليل يغشى الكون .. هلموا ! ألا تحملون هذه الجثة . وجثة الأسد أيضا ؟ وأما انت يابنى فضع هذه الأعشاب فوق الجرح حتى يندمل . . ولا تشعر بشيء من الألم . . انى اعلم امراً او اثنين برغم جنونى . فانت حفيدى ! ياعزيزى . . ياعزيزى . يسرنى ان تبناك الكاهن الأعظم المقدس ، عندما قضى فرعون ـ الذى ادعو اوزوريس ان ان يبجل اسمه ـ على ابنه .. انك جميل المحيا .. ولا ريب عندى فى انه لو عاش هارماكيس لما استطاع ان يقتل اسداً كهذا .

فقال الجاسوس متذمرا . وقد جازت عليه الحيلة :

ـ انك تعلمين أشياء كثيرة . وتتحدثين بسرعة عظيمة . . هو شاب باسل على كل حال . . اصغوا الى أيها الرجال . . احملوا هذه الجثة الى ابوتيس . . وليبق بعضكم ليعاونني فى سلخ جلد الأسد . .

واستطرد يحدثنى :

ـ سنرسل اليك الجلد أيها الشاب ، لا لأنك تستحقه ، فانه من الحماقة مهاجمة أسد ضار مثل هذا . . والأحمق ينال جزاء حمقه . . فحذار أن تهاجم قويا مالم تكن اقوى منه . .

فعدت إلى المنزل . . وقد أخذ منى العجب كل مأخذ

الفصل الثالث

علامة الآلهة

لقد عانيت بعض الألم من الأعشاب التى وضعتها العجوز (اتو ا) فوق جرحى . . ولكن لم يلبث الألم أن زايلنى بعد قليل .. ولعمرى كانت هذه الأعشاب سريعة المفعول قوية الأثر . فما انقضى يومان حتى التأم الجرح .. ولم يبق له أثر بعد بضعة أيام .

بيد أنى تذكرت أنى عصيت أمر الكاهن الأعظم امينمحعت الذى كانوا يسمونه أبى . . فقد كنت أجهل حتى ذاك اليوم انه أبي فى الجسد . . إذ علموني أن ابنه قتل ، وأنه تبناني حسب إرادة الآلهة . . وأنشأني لكى

أشغل مركزاً في الهيكل في الوقت المناسب . . ولهذا خفت الرجل . . وكانت تروعني نوبات غضبه . . ثم انه كان لا ينطق إلا بالحكمة .

ومهما يكن من أمر . . فقد عولت على الذهاب ، والاعتراف اليه بخطيئتي . . واحتمال أية عقوبة يفرضها على .

واجتزت الفناء الخارجي للمعبد ، وأنا أحمل الرمح في يدى . والدماء تنزف من جرح صدري . . إلى أن بلغت باب الغرفة التي يقطنها الكاهن الاعظم . . وهى غرفة كبيرة أقيمت على جوانبها تماثيل الآلهة العظيمة . . ويتسرب اليها نور الشمس من كوة في سقفها السميك . . في حين كانت تضاء أثناء الليل بمصباح من البرونز يتدلى من السقف .

ونفذت إلى الغرفة بهدوء تام من بابها المفتوح ، واجتزت الستائر الكثيفة . . ووقفت داخل الغرفة بقلب واجف .

وكان المصباح موقداً . . ورأيت على ضوئه الشيخ جالسا فوق مقعد من العاج والأبنوس ، وأمامه نضد من الصخر ، نثرت فوقه أوراق مكتوبة بكلمات غريبة عن « الحياة والموت » . . ولكنه لم يكن يقرأ . . فقد استسلم النوم . . وكانت لحيته البيضاء الطويلة تتدلى فوق المنضده فأكسبته هيئة رجل فارقته الحياة

وكان المصباح يرسل ضوءه الباهت على الشيخ . . وأوراق البردى التى أمامه .. وانعكس على الخاتم الذهبي الذى يزين أصبعه . . والذى نقش عليه زمز « ذلك غير المرئى » .. وفيما عدا ذلك كان الظلام يسود الغرفة . .

كان الشيخ حليق الرأس . . يرتدى ثيابا بيضاء . . والى جانبه عصا الكهنوت المصنوعة من خشب الأرز .. وقد بدت على جبينه دلائل القوة الجسمانية .. وتجسمت المهابة والوقار في تقاطيع وجهه النبيل . وحاجبيه الأشيبين . وعينيه الغائرتين . .

نظرت اليه . . وانتفضت .. فقد كان يتمتع بما هو أكثر من المهابة المألوفة في البعض من الناس .. ولا عجب ، فانه عاش أعواما طوالا مع الآلهة حتى تشبع بأفكارها المقدسة . وتضلع في إسرارها التى لا نكاد نفقه منها شيئا .

وفيما كنت أنعم النظر إلى وجهه . . فتح الشيخ عينيه السوداوين . ورغم انه لم ينظر الى ناحيتى .. فانه رآنى .. وخاطبنى بقوله :

لماذا عصيت أمرى يا بنى ؟ وكيف ذهبت لملاقاة الأسد بعد أن نهيتك عن مثل ذلك ؟ — وكيف علمت بذهابى يا أبى ؟

— وكيف علمت !؟ اليست هنالك وسيلة للمعرفة غير الحواس ؟! آه .. ايها الطفل الجاهل ! ألم ترافقك روحى عندما وثب الأسد على رفيقك ؟ ألم أضرع إلى الآلهة أن تحيط بك . وتحميك . وان تسدد طعنتك التى صوبتها إلى حلق الأسد ؟ لكن أخبرنى كيف ذهبت الى هناك يا بنى ؟

فأجبت :

— لقد سخر منى الشاب المتكبر . فذهبت .

— نعم . . أعلم ذلك . . كما أعلم أن دم الشباب يجرى فى عروقك ، وحماسته تتدفق فى نواحيك . ولذا فقد صفحت عنك يا هارماكيس . . لكن اصغ الى ، وع كلاتى جيداً ، لقد أرسل هذا الشاب لاغرائك ، أرسل لتجربة قوتك . . فانظر لقد اتضح انك أضعف مما توقع أن تكون عليه قوتك ، ولذلك أجلت ساعتك ، فلو قد أظهرت فى هذا النزال من القوة ماهو جدير بك ، لكشفت لك عن الطريق ، وحسرت الى حين النقاب عن كل سر ، ولكنك فشلت فارجىء موعدك .

فقلت : لست أفقه ماتقول يا أبى

— ماذا قالت لك العجوز (أتوا) بجانب الترعة يابنى ؟

فكاشفته بما قالته العجوز .. فقال :

— وهل صدقتها ياهارماكيس ؟

فأجبت :

— لا . . كيف يمكن ان أصدق هذه القصص ؟ لاريب انها مجنونة .. ان الجميع يعلمون ذلك .

وللمرة الأولى حول الشيخ عينيه الى ، ثم وقف فى الظل ، وهتف :

— يابنى ! يابنى ! انك مخطىء ، فهي ليست مجنونة ، لقد نطقت المرأة

بالصدق ، انهـا لم تتـكلم بلسانها ، ان (اتوّا) مقـدسة ، والآن اصغ الى فسأ كاشفك بالمهمة التى القتها الآلهة على عاتقك ، والويل لك اذا جعلت من ضعفك حائلا بينك وتحقيق هذه المهمة !! اصغ الى ، انك لست غريبا تبنيتك وأدخلتك الى منزلى ، وانما أنت ابنى الحقيق انقذتك هذه المرأة من براثن الموت ، ومع ذلك فأنت أعظم من أنت تـكون انسانا عاديا ياهارما كيس ، ان دم ملوك مصر يجرى فى عروقى ، وعروقك ، وأنا وأنت الشخصان الباقيان على قيد الحياة من سلالة (نخت ـ نف) فرعون مصر الذى طرده (اخوص) الفارسى من مصر

لقد جاء الفرس ، ثم ذهبوا ، وجاء من بعدهم المقدونيون ، وها قد انقضى على مجيئهم أكثر من ثلثمائة عام اغتصبوا خلالها التاج المزدوج .. ودنسوا أرض (خم) ، وأفسدوا عبادة آلهتها ، والآن اصغ الى قولى هذا وعه جيدا يابنى ، لقد مات الملك ينوس ديونيسس ، اوليتس الزمار ، ولم يعمل الخصى توثينوس ـ وهو نفس الخصى الذى جاء هنا من قبل ليقطع رأسك ـ بوصية مولاه ، فنصب الصبى بطليموس على العرش ، وقد فرت أخته كليوباترا ، الفتاة الساحرة ، الى سوريا لهذا السبب ، فاذا لم يخطىء زعمى. فانها ستؤلف هناك جيشا تهاجم به أخاها بطليموس ، فان وصية أبيها تقضى بأن تشاطر أخاها العرش

ولـكن لا تنس يابنى ان النسر الرومانى سيحلق عاليا فى الجو . . ينتظر وقد فتـح مخالبه ، الفرصة لينقض على الـكبش المصرى السمين ، ويمزقه أربا .. ثم لا تنس ايضا ان المصريين قد سئموا الحـكم الأجنبى الظالم . . وانهم يبغضون ذكرى الفرس . . وعافت نفوسهم تسميتهم فى أسواق الاسكندرية (برجال مقدونيا) .. وصفوة القول أن البلاد تئن من اقصاها الى اقصاها تحت نير اليونان ، وظل الرومان . .

ألم نضطهد ؟ ألم يذبح أولادنا ؟ وتسلب أموالنا لتملأ جيوب الغاصبين من المقدونيين ؟ ألم ينتهـكوا حرمة معابدنا ؟ ألم يستخفوا بجلال الآلهة الأبدية . واستعـاضوا عن اسم المعبود الأعظم باسم (سيرابيس) . . وهزأوا من كنه

(غير المرئى) ؟ الم تجأر مصر فى طلب الحرية ؟ وستظل تجأر عبثا ؟ لا .. لا .. يابنى .. انك طريق الخلاص .. والحرية .. انك يابنى خليفتى بحق الوراثة .. وأنا رجل على حافة القبر .. ولذا فقد أصدرت الأوامر التى تخولها لى حقوقى .. وها هو اسمك يذكر الآن همسا فى كثير من الهيا كل من (آبو) الى (آنو) . . والكهنة والناس يقسمون يمين الولاء والطاعة .. يقسمون بالرمز المقدس أن يشدوا ازرك . . ويقفوا من ورائك يوم يعلن اسمك .. ولكن لم يحن الوقت الملائم بعد . . فانت لا تزال غصنا رطبا لا تتحمل مثل هذه الزوابع العاتية .. لقد اختبرتك اليوم فتبين لى عجزك ..

ان الذى يريد خدمة الآلهة ياهارماكيس يجب الا يؤثر فيه التعيير .. ولا أية شهوة جسدية .. ان مهمتك عظيمة يابنى فضع ذلك نصب عينيك . . والا فشلت ، وحلت عليك لعنتى ، ولعنة مصر ، ولعنة آلهة مصر المحطمة !!

ولا تنس يابنى انه حتى الآلهة — وهى ابدية لا تفنى — تعتمد احيانا على الرجل الذى تختاره لتنفيذ مآربها ، كما يعتمد المقاتل على حسامه . . وويل للحسام الذى يتحطم ساعة القتال . . انه يلقى جانبا ، ليأكله الصدأ ، أو ربما وضع فى النار لينصهر !!

لتجعل قلبك طاهرا ، سامياً ، قويا . فان نصيبك ليس نصيبا عاديا . . وليس جزاؤك جزاء أى رجل حى . انتصر ياهارماكيس ، تفز بالمجد والسؤدد ، هنا ، وفيما بعد ! وأما اذا فشلت فالويل والحزن هما من نصيبك !

وأمسك الشيخ ، . وأحنى رأسه . ثم استطرد بعد هنيهة :

— غدا سأعطيك هذه الرسائل ، وستركب النيل . وتمر بمدينة ممفيس ذات الأسوار البيضاء الى (آنو) . وهناك تقضى بضعة أعوام ، لتزداد معرفة بحكمتنا القديمة تحت ظلال تلك الاهرامات السرية التى ستكون أيضا كاهنها الأعظم بالوراثة . وأما أنا فسأبقى هنا ، وأراقب . فان ساعتى لم تحن بعد . وسأنسج بمساعدة الآلهة شبكة الموت التى ستقتنص أنت بوساطتها ذبابة مقدونية . وتقضى عليها . .

اقترب منى يابنى . . وتعال قبلنى فوق جبينى لأنك أملى . ورجاء مصر

الوحيد . .

فتقدمت منه وأنا أنتفض . . وقبلته فوق جبينه . وهتفت :

— لتحل على كل هـذه اللعنـات وأ كثر منها ان أنا لم أحقق رجاءك ياأبى ! !

فصاح :

— لا . انه ليس رجائى . . بل رجاء الآلهة التى أنفذ مشيئتها . والآن اذهب يابنى ! وتأهب للنزال الطويل . . لاتخش ضرا يصـيبك لأنك بمنجاة من كل شر . ومن كل أذى ينالك من الخارج . لأن عدوك الوحيـد هو نفسك . . لقد تـكلمت .

فانصرفت من حضرته بقلب مثقل . وكان الليل سا كنا . . وأفنية المعبد خالية . فعبرتها مسرعا حتى وصلت الى مدخل البرج عند الباب الخارجى . . واذ كنت أنشد الوحـدة والعزلة . والتقرب الى السماء ، ارتقيت الدرج ، حتى وصلت إلى السطح ، فأسندت صدرى الى الحاجز . وأرسلت بصرى الى الفضاء اللانهائى .

ورحت أفـكر . . وغمغمت بصوت خافت :

— هل سأحكم حقا هـذه الأراضي التى يغمرها ضوء القمر . . وأحمى ذمار هذه الهيا كل المقدسة . وأعلى شأن آلهتها ؟ وأطرد البطالسة . وأحرر مصر من الحـكم الأجنبي ؟ ! إن دم أولئـك الملوك العظام الذين يترقبون يوم الحشر من قبورهم فى طيبة ، يجرى فى عروقى .

وأخذتنى نشوة الفرح وأنا أتمثل المستقبل الباهر الذى ينتظرنى هتفت :

— أى آمون . رب الأرباب . والموجود منذ الأزل ، إله الحق ، الاله القديم الباقى إلى انتهاء الدهر . انصت إلى .

إذا كانت الآلهة اختارتنى حقا لتنفيـذ مشيئتها ، فلتظهرنى على الدليل . وليـكن ذلك فى التو . أبسطى يديك نحوى أيتها الآلهة . انصتى إلىّ ، واصغى إلى توسلاتى .

وإذ جثوت على ركبتى ، ورفعت عينى إلى السماء . غشيت وجه القمر سحابة . فاظلمت الدنيا . وزاد السكون من حولى رهبة ووحشة . وعندئذ أحسست كأن روحى قد بلغت الحلقوم . ووقف شعر رأسى . ثم لم البث أن شعرت بالبرج يهتز تحت قدمى ، وهبت ريح صرصر عاتية .

وسمعت صوتا خافتا يهتف من اعماقى قائلا :

— انظر . ها هو الدليل . هدئ من ثائرتك ، وتجلد ياهارما كيس

وفيما كان الصوت يتكلم ، شعرت بيد باردة تمسس يدى . وتركت شيئا فيها

وانجابت السحابة فى تلك اللحظة . وبرز القمر . وخفت حدة الريح . وعاد السكون إلى سكونه وهدوئه الشامل .

وعلى ضوء القمر ، رأيت فى يدى زراً من زهر اللوتس المقدس ، على وشك أن يتفتح . وقد تصاعد منها اريج عاطر .

وفجأة . افلتت الزهرة من يدى . واختفت فى جوف الليل . وخلفتنى نهبة القلق والحيرة

الفصل الرابع

رحيل هارما كيس

وفى فجر اليوم التالى ، ايقظنى احد كهنة المعبد ، وطلب الى ان اتاهب للرحيل . اذ كانت حالة النيل تسمح بالسفر إلى آنو ـ رع ، (هليوبوليس الآن) ، برفقة نفر من كهنة (بتاح) فى ممفيس ، كانوا قد جاءوا الى ابوثيس ليواروا احد عظمائهم فى اثناء القبر الذى اعد له بجوار مدفن اوزوريس المقدس

فاذا كان المساء ودعت ابى ، وتسلمت منه الرسائل ، ثم انطلقنا الى شاطىء النهر وركبنا الزوارق ..

وما ان امر الربان بحارته برفع المرساة ، حتى اقبلت العجوز (اتوا) على عجل ، وكانت تحمل فى يدها سلة مملوءة بالاعشاب الطبية . .

وحيتنى المرأة مودعة . والقت ورائى (صندلا) ، كما يلازمنى حسن الحظ . . وقد احتفظت بهذا الصندل عدة سنوات .

وقضينا ستة أيام مسافرين . ولكن ما أن غابت تلك المناظر المألوفة عن ناظرى ، حتى الفيتنى وحيداً بين قوم غرباء عنى . لاتكاد تربطنى بهم أية آصرة .. فكدت ابكى لولا الحياء

وفى صباح اليوم السابع وصلنا الى ممفيس ذات الاسوار البيضاء . . وقضيت ثلاثة أيام فى الاستراحة من وعثاء السفر .. ولم يدخر كهنة هيكل (بتاح) وسعاً فى ارضائى وتكريمى ، حتى سرى عنى بعض الشىء .

وفى خلال فترة الراحة قمت مع رفاقى الكهنة بجولة فى المدينة . ورافقنى اثنان منهم فى زيارة سرية للمعبود (ابيس) المقدس . وهو المعبود بتاح الذى تنازل ، وعاش بين الناس على هيئة عجل اسود اللون . . على جبينه مربع ابيض .. وعلى ظهره علامة بيضاء مثل النسر . وتحت لسانه شبه جعران . . وفى ذيله شعرات مزدوجة . فى حين تدلت من بين قرنيه لوحة من الذهب الخالص

نفذت الى مقصورة المعبود ، وقدمت اليه فروض الطاعة . بينا وقف الكاهن الأعظم ، والكاهنان اللذان رافقانى يرقبوننى باهتمام ولهفة .

واذ فرغت من صلاتى ، ونطقت بالكلمات التي لقنتها من قبل ركع المعبود وتمدد أمامى . فتقدم الكاهن الأعظم ورفيقاه مني ، وكانوا من عظماء مصر العليا كما علمت فيما بعد ، وقد ارتسمت على وجوههم سيماء الدهشة والعجب . وقدموا الى فروض الاحترام ، دون أن ينبس أحدهم ببنت شفة لما رأوا من فأل حسن .

وفى اليوم الرابع أقبل بعض كهنة (آنو) ، ليأخذونى الى خالى (بيبيا) ، الكاهن الأعظم لمعبد (آنو) . . فودعت كهنة ممفيس . . ثم عبرنا النهر . . وامتطينا ظهور الحمير ، وقضينا ثلثى النهار ونحن نجتاز قرى صغيرة تبدو عليها مظاهر الفقر . .

وللمرة الأولى فى حياتي رأيت الاهرامات العظيمة الواقعة خلف تمثال

المعبود (هورمحو) . . وأبا الهول الذى يطلق عليه اليونانيون اسم (هارما كيس) ، وهيا كل الأم المقدسة (ايزيس) ، وملكة (ممنونيا) .. والاله (آوزوريس) ، سيد (روزاتو) . . تلك المعابد التى يخولنى حق الوراثة أن أكون كاهنها الأعظم مع معبد (منفرع) المقدس

أخذت من روعة هذه المعابد.. . واستهوتنى عظمتها ، واحجارها البيضاء والجرانيت الحمراء . . التى تنعكس عليها أشعة الشمس . . ولم أكن الى تلك اللحظة أعرف شيئا عن الكنوز المدفونة فى الهرم الثالث ، وياليتنى لم أعرفها أبداً .

وواصلنا السير إلى أن ظهرت مدينة (آنو) ، وهى المدينة الثانية بعد ممفيس من حيث المساحة والفخامة .. وكانت مشيدة فوق مرتفع من الأرض وأمامها بحيرات يأتيها الماء من النهر بواسطه قناة . . ويليها هيكل الاله (رع)

وترجلنا أمام البرج . . والتقينا فى الرواق برجل ضئيل الجسم ، تلوح عليه سيماء النبل ، حليق الرأس ، له عينان سوداوان متألقتان .

وما أن وقع بصره علينا ، حتى صاح بصوت قوى لا يتفق مع ضآلة جرمه :

— قفوا ! قفوا ! أنا سينا الذى ينطق الآلهة !

فقلت :

— وأنا هارما كيس بن امينمحعت الكاهن الأعظم بالوراثة ، وحاكم مدينة أبوثيس المقدسة . . أنني أحمل اليك رسائل ، أى سينا ...

فقال ، وهو يرمقنى بنظرة فاحصة :

— ادخل . . ادخل يابنى .

وتناول يدي . . وقادنى الى غرفته فى الردهة الداخلية ، وصفق الباب خلفنا . . ثم شرع يقرأ الرسائل التى حملتها اليه .

وأخيرا : رفع رأسه . وعانقنى . وهتف :

— على الرحب والسعة يابنى أهلا بابن اختى ، وأمل مصر . ! ! هاهى

صلواتى إلى الآلهة لم تذهب سدى . فعشت لأرى وجهك ، والقنك خلاصة حكمتى التى قد لا تتوفر لأحد ممن يقيمون فى مصر . هم قليلون ، أولئك الذين يجوز أن القنهم علومى . . وأما أنت فصاحب المستقبل الباهر . أنت الذى اختارتك الآلهة لسماع حكمتها.

ثم عانقنى مرة أخرى . وطلب إلى أن أذهب لاغتسل . وأتناول الطعام وقال انه سيحدثنى غداً حديثاً مستفاضاً

وقد بر بوعده . . فحدثنى طويلا . . وكاشفنى بأمور عدة ، لو شئت تسجيلها لما وجدت فى مصر كلها من أوراق البردى ما يحقق بغيتى . .

ولكن ذلك لا يحول دون ذكر طرف من حياتى فى خلال السنوات المقبلة . وهأنذا أقرر بعضه . فأقول :

كنت أنهض مبكراً . وأحضر الصلاة التى تقام فى الهيكل . . ثم أسلخ بياض النهار فى الدراسة . والاطلاع . فتعلمت الدين ، وفروضه ، ومعانيه ، وأصل الآلهة ، والعالم الأعلا . ووقفت على أسرار الاجرام السماوية ، وحركاتها ، وتعلمت السحر ، وتفسير الأحلام ، والتقرب من الآلهة ، ولغة الرموز وأسرارها الخارجية والداخلية ، والقوانين الأبدية للفضيلة والرذيلة ، وعرفت سر الاهرامات — ويا ليتنى ما عرفتها — واطلعت على تواريخ الماضى ، وأعمال الملوك القدماء من أيام هوروس ، وتدربت على أساليب السياسة والحكم ، وعلوم الأرض ، وتاريخ اليونان والرومان ، وحذقت لغتيهما .

خمسة أعوام طوال قضيتها عف الذيل ، طاهر القلب . لم أرتكب خلالها شراً فى نظر إله او بشر . أجد وأعمل للوقوف على كل شىء . وأعد نفسى للمهمة الشاقة التى تنتظرنى.

وكان أبى يبعث إلى برسالتين فى كل عام . فأرد عليه متسائلا : ألم يحن الوقت بعد لانتهاء دراستى ؟ !

وأخيراً ضقت ذرعا بالوحدة . ولما كنت بلغت مبلغ الرجولة . . وصرت

عالما محرراً ، فقد تاقت نفسى إلى حياة الرجال

وكثيراً ما ساءلت نفسى : ألا يجوز أن تكون كل تلك الأحاديث التى أسمعها . والنبوءات التي ترددت عن أمور ستحدث ، حلماً تمثلته عقول قوم تغلبت أهواؤهم على عقولهم ؟ صحيح . ان الدم الملكى يجرى فى عروقى . . فقد أطلعنى خالى سيبا على تاريخ سرى منقوش فوق حجر من الصوان يثبت ذلك . لكن ماذا أفيد منه ومملكتي ترسف فى قيود الاستعباد ؟ لقد انقضت أجيال طويلة على هذا الوطن المنكوب وهو يرزح تحت النير الأجنبي . فهل يمكن أن يتحقق ذلك الحلم السعيد . وتتحرر مصر مرة أخرى ؟

وهنا تذكرت صلاتى فوق البرج فى أبوثيس . والعلامة التى رأيتها . . فانتابنى العجب . . وتساءلت . . أتر انى كنت أحلم ؟ !

وذات ليلة . سئمت نفسى الدرس والاطلاع . فخرجت الى حديقة الهيكل المقدس لأروح عن نفسي . وفيما كنت مستغرقاً فى تأملاتى ، التقيت بخالى سيبا وهو يجوس خلال الحديقة متفكرا أيضاً .

وابتدرنى بقوله :

— مهلا ياهارما كيس ! . مالى أراك حزينا مبتئسا ؟ هل أضجرتك المعضلة التى كنا ندرسها معا ؟

فاجبت :

— ياخالى . . اننى ضجر حقا ؟ ولكن ليس من المعضلة ! فقد كانت سهلة الهضم . . ان قلبي مثقل . لأنني سئمت الحياة بين جدران هذه المعابد . وضقت ذرعا بأثقال العلوم المتراكمة فوق عاتقى . لافائدة من اختزان قوة لايمكن استخدامها .

— آه . . انك قليل الصبر ياهارما كيس . وتلك حال الشباب الطائش . ستذوق طعم القتال . وستعرض نفسك لاخطار المعارك والحروب . أليس لهذا تريد الرحيل ياهارما كيس ؟ حسنا . لك ما تشاء . فقد أذنت ساعتك . . لقد لقنتك كل ماأعلم ، وأظن ان التلميذ فاق معلمه .

وأمسك . . وجفف الدموع التى انثالت من عينيه .

فقلت مسروراً :

— والى أين سأذهب ياخالى ؟ أأعود الى أبوثيس لأبدأ فى تلقى أسرار الآلهة ؟ .

— نعم . . ستعود الى أبوثيس ، ومنها الى الاسكندرية . ثم الى عرش أجدادك ياهارما كيس . اصغ إلى . . ان الموقف يتلخص فى الوقت الحاضر فيما يلى : انك تعلم كيف ان كليوباترا ، الملكة ، فرت الى سوريا عند ماخالف الخصى الخبيث (بوثينوس) وصية أبيها أوليتس ، ونصب أخاها بطليموس ملكا على مصر .

وتعلم كذلك كيف عادت كليوباترا ، مثل ملكة حقيقية ، على رأس جيش عرمرم ، وعسكرت فى بلزيوم . . وكيف ابحر قيصر إلى الاسكندرية

على رأس فصيلة ضعيفة قادما من فارساليا . . فى أثر بومبيوس الذى عثر عليه مقتولا . . إذ كان قد قتله القائد اشيلاس ولو كيوس سبتيموس قائد القوات الرومانية بمصر .

وتعلم أيضاً كيف انزعج السكندريون لقدومه ، وأرادوا البطش برؤساء جنوده .. وقد اعتقل قيصر الملك الصغير بطليموس وأخته ارسنوى . ثم أمر بتسريح جيش كليوباترا ، وجيش بطليموس ، تحت قيادة ا كلاس ، اللذين كانا يعسكران فى بلزيوم (طينة) وجها لوجه . فأجاب القائد ا كلاس على هذا النداء بأن زحف على جيش قيصر ، وحاصره فى الاسكندرية . . وظلت الاحوال غامضة بعد ذلك . . ولا أحد يعلم من الذى سيفوز بحكم مصر . . ولكن كليوباترا ألقت (الزهر) . . وأقدمت على عمل ينطوى على الجرأة والاستخفاف . . فقد تركت جيشها فى (طينة) ، وتسللت الى الاسكندرية عند الغسق ، ولم يكن يرافقها غير (ابولو دورس) الصقلى ، الذى طواها بحزمة من السجاجيد المصنوعة فى سوريا . . وأرسلها هدية إلى قيصر .

وإذ فتحت الهدية أمام المهداة اليه . برزت من جوفه أجمل فتاة على ظهر البسيطة . . نعم .. وأغزرهن علماً وحكمة .. فهام بها قيصر العظيم . . ولم تجده معرفته ، وتجاريبه الطويلة أن تحميه من سحرها . . فكاد يفقد حياته وسؤدده الذى ظفر به بعد مئات من المعارك بجهله ، وطيشه . .

فقاطعته :

— يا للأحمق ! ! يا للأحمق ! ! انك تدعوه عظيما . . . ولكن كيف يكون الرجل عظيما إذا لم يقو على التخلص من اغراء المرأة ؟ قيصر . الرجل الذى يتوقف مصير العالم على كلمة تنطق بها شفتاه . ! قيصر الذى تكفى كلمة واحدة منه لتسيير الجيوش الجرارة ، وتغيير مصائر الشعوب . ! قيصر البطل ، الرجل الوقور البعيد النظر . . أقول أيسقط قيصر هذا مثل تفاحة ناضجة فى حجر فتاة غادرة ؟ إذا كان ذلك كذلك ، فما أحط منبت هذا القيصر . . وما أحقره من مخلوق ضعيف ! !

فأطال سيبا النظر إلى وجهى .. ثم هز رأسه نفيا .. وأجاب :

— لا تتعجل فى الحكم يا هارما كيس .. ولا تتكلم بمثل هذا التفاخر . ألا تعلم ان فى كل درع موطنا للضعف .. والويل لمن يحتمى بترس ينفذ منه السيف ؟ ! ان المرأة على ضعفها أعظم قوة على الأرض . . تأتى على أشكال متعددة ، وتطرق أبوابا كثيرة . انها سريعة ، صبورة ، تملك قياد عواطفها بعكس الرجل .

إن لها لعين القائد . . فوجب أن يكون القلب كالحصن المنيع حتى لا تجد منفذاً لها اليه . . فاذا كان الدم يجرى حارا فى عروقك ، فان قبلة من قبلاتها تحيله ثلجا .. واذا كنت طموحا إلى العلا . فانها تفتح مغاليق قلبك وترشدك إلى سبيل المجد ، والظفر .

اذا كنت متعبا مكدوداً ، فان لك فى صدرها راحة ، وهناء . . فاذا سقطت ، رفعتك ، وصورت لعينيك المخدوعتين الفشل نصراً وفوزا .. نعم يا هارما كيس ، فى استطاعة المرأة ان تفعل هذا ، وأكثر منه .. ولا عجب فالطبيعة تقاتل أبداً فى صفها . . فالمرأة اذن سيدة العالم .. وعظيم ولا ريب ذلك الرجل الذى يستطيع أن يتحدى سيطرة المرأة .

فانفجرت ضاحكا .. وهتفت :

— انك تتكلم بحماسة يا خالى سيبا . حتى ليخيل الى أنك لم تسلم من لظى الحب .. حسنا .. انا لا أخشى المرأة ، وشبا كها . . ولا أعلم شيئا عنها ولا أريد أن اعلم .. وما زلت أصر على أن قيصر هذا كان مأفونا أحمق . . ولو كنت فى موقفه ، لقذفت بحزمة السجاجيد من فوق درج القصر ، إلى حمأة من الأوحال لينطفىء سعير عهرها .

فصاح خالى :

— لا . . صه . . صه ! ! من الخطأ أن تتحدث هكذا . . فلتحفظك الآلهة من كل شر . . ولتبق لك هذه القوة التى تزهو بها . . ايها الرجل ، انك لاتزال جاهلا ، رغم علمك ، وحكمتك . . ان العالم الذى يجب أن تختلط به ليس هيكلا مثل هيكل ايزيس المقدسة .. فاتوسل إلى الآلهة أن

تظل لقلبك برودته ، لكى تكون رجلا عظيما سعيداً . تنقذ مصر من الاستعباد .

والآن دعنى استأنف سرد قصتى .

قد رأيت يا هارما كيس كيف احتلت المرأة مركزها حتى فى مثل هذه القصة الخطيرة .. سقط قيصر فى حبائل كليوباترا إذن .. فأطلق سراح أخيها بطليموس الصغير . . ولكن هذا لم يلبث أن انقلب على قيصر ، وخانه . . فاجتاح قيصر ومترياديس معسكر بطليموس واضطروه الى الفرار إلى النيل فى زورق لم يلبث أن غرق لكثرة اللاجئين اليه . وهكذا لاقى بطليموس التعس مصرعه .

وانتهت الحرب عند ذلك . وبرغم أن قيصر اولد كليوباترا ولدا اسماه قيصرون فقد نصب قيصر كليوباترا ملكة على مصر ، يشاطرها أخوها بطليموس الاصغر الحكم ، على أن يكون زوجها اسميا . ثم رحل إلى روما وقد حمل معه الاميرة إرسينوى الفاتنة ، وهى مكبلة بالاصفاد والاغلال . بيد أن قيصر لم يلبث ان مات مقتولا كما عاش يلغ فى الدم . وإذا جاز لى أن أعتمد على الانباء التى بلغتنى ، فقد قتلت كليوباترا أخاها وزوجها بالسم . ونصبت قيصرون الصغير شريكا لها على العرش الذى تحتفظ به بمساعدة الرومانيين . وبمعاونة سيكتوس بومبيوس ، وهو الذى احتل مركز قيصر من قلبها .

ولكن البلاد تغلى كالبركان . تتحفز للثورة فى وجه كليوباترا . وفى كل قرية من قرى مصر يتحدث الاطفال عن مخلص مصر . وهو أنت ياهارما كيس .

لقد أذنت الساعة . فعد إلى ابوثيس . وتعلم أسرار الآلهة النهائية . وقابل الذين سيوجهون العاصفة عند هبوبها .

وعندئذ يجب أن تعمل يا هارما كيس . لتطهر البلاد من الرومان ، واليونان . واجلس على عرش أجدادك . و كن ملك الشعب ، فما لغير هذه الغاية خلقت أيها الأمير .

الفصل الخامس

محذر أمينمحعت

ودعت خالى سيبا في صباح اليوم التالى . و كرزت عائدا الى ابوثيس غادرتها غلاما ، وعدت اليهايافعا ، فارع الجسم، غزير العلم . موفور الحكمة .

وفيما كنت اخترق الحقول في طريقي إلى الهيكل ، التف الكهنة وأهل القرية من حولي . وراحوا يحيونني باحترام وتبجيل

وانطلقت إلي غرفة أبي . فوجدته جالساً أمام النضد . وقد فعلت السنون فعلها في بنيته

وجثوت أمامه . ولثمت يده . فباركني . وقال :

— ارفع وجهك يا بنى . ودع عيني الضعيفتين تتأملا وجهك ، لأستشف طواياك . ففعلت . وأنعم النظر في وجهي فاحصاً . مدققاً .

وأخيراً قال :

— لقد قرأت خفاياك . وأيقنت انك طاهر القلب ، راجح العقل ، ولعمرى لم يخب ظنى فيك . أواه ! كانت سنوات موحشة ، ولكنى أحسنت صنعاً بارسالك إلى هناك . حدثنى الآن عما مر بك لأن رسائلك لم تشف غليلي . انك لا تعلم يا بنى مدى لهفة الاب على الوقوف على أنباء الابن

فحدثته وأفضت في الحديث حتى ساعة متأخرة من الليل . . وفي النهاية طلب أبى الى أتأهب لتلقى تلك الأسرار الاخيرة التى يجب أن يحيط بها كل من اختارته الآلهة

وقضيت الشهور الثلاثة التالية في التأهب ، حسب التعاليم المقدسة ، فلم أتذوق خلال تلك المدة شيئاً من اللحم . واحتجبت داخل الهيكل ، وانصرفت إلى دراسة أسرار الضحايا العظيمة . وغضب (الأم المقدسة) . . وكنت أصلى بحرارة أمام المذبح . حتى خيل إلى انى زهدت الحياة . ولم أعد أنظر اليها نظرة المتشبث بها المتعلق بأذيالها

وكنت متجها بافكارى وخواطرى إلى قبة السماء ، حيث الافلاك تجرى

فتجذب وراءها مصائر البشر . وحيث يجلس القديسون على عروشهم الملتهبة ، وهم يرقبون عجلة القدر ، وهي تدور وتنتقل من عالم إلى آخر .

ايه ايتها الساعات التى قضيتها فى التأمل والتفكير المقدس . . والتى ما أن ذقت حلاوتها مرة حتى رغبت ان تدوم ابد الدهر .. وأنت أيها الجسد الفاني الذى تقذف بنا مساوئك الى قرارة الهاوية . بودى لو تحللت منك وخلعتك عنى ، واطلقت روحى حرة تسعى الى اوزوريس !

ومرت أشهر التجربة سراعا .. واقترب اليوم المقدس الذى اتحد فيه جسما وروحا بالأم (ايزيس) . ولا أحسب أنى قضيت من قبل ليلة تلهفت فيها على طلوع الفجر ، كما قضيت تلك الليلة . . ولا اخال محبا أحس بالشوق للقاء عروسه .. كما أحسست أنا للقاء وجهك الجميل يا ايزيس . ! وحتى الآن بعد أن حنثت بعهدك ، ونأيت عنى ، لا تزال روحى تهفو اليك . ولكن . مادمت قد سمحت بكشف النقاب ، وذكر أمور وحوادث لم يشر اليهما أحد منذ ابتداء الخليقة . فسأسرد قصتى . وآتى على وصف ذلك الصباح المقدس .

اقيمت الحفلات الرائعة سبعة أيام سويا . . فاحتفل بام الاله اوزوريس . ورتلت أغنية أحزان الأم ايزيس ، واحتفل بذكرى مجيء الطفل المقدس هوروس .. الابن المنتقم ، ابن الاله . . وقد احتفل بهذه المناسبات طبقا للتعاليم الدينية القديمة .. فكانت الزوارق تتهادى فوق سطح البحيرة المقدسة وجلد الكهنة أنفسهم بالسياط أمام هيا كلهم .. وحملت الأصنام والتماثيل فى الشوارع ليلا .

وحين غابت شمس اليوم السابع وراء الأفق ، احتشدت جماهير غفيرة لترتم أغنية أحزان الأم ايزيس .. وكيف ثأرت من الشر .

خرجنا من المعبد صامتين . . وانطلقنا فى طرقات المدينة وكان أبى امينمحت يتصدر الموكب ، وهو يرتدى ثيابه الكهنوتية . ويتوكأ على عصاه المصنوعة من خشب الأرز .. وقد سرت فى أثره وحيدا فى رداء من الكتان .. يتبعنى الكهنة بثيابهم البيضاء . وقد رفعوا تماثيل الالهة والأعلام تخفق فوق الرؤوس . . ومن بعدهم حملة الزورق المقدس . ثم المترنمون . .

بينا امتدت صفوف الشعب الى مدى لاتأتى العين على آخره وجميعهم يرتدون ثياب الحداد على موت اوزوريس .

اجتزنا شوارع المدينة صامتين ، حتى وصلنا الى الهيكل .

ولم يكد ابى يطأ البرج الخارجى بقدميه . حتى شرعت امرأة ترتل بصوت عذب حنون (الاغنية المقدسة) .

وكانت جموع الشعب ترد على المرأة بين الفينة فيما يشبه الكورس . . . وكان لصوتهم وقع محزن فى نفسى ، حتى كدت أبكى .

وعقبت المرأة فانشدت اغنية قيام أوزوريس من الموت . . وهى أغنية الأمل . والفوز .

وبعد أن فرغت من غنائها . . أخذ قرص الشمس يختفى وراء الافق .

وانتهت الحفلة عند ذلك

وفيما يتعلق بى . . كانت تلك هى البداية . . فبانتهاء هذا الحفل سجلت انضمامى إلى زمرة الكهنة . . فغادرت فناء الهيكل . . واغتسلت . . وارتديت ثيابا بيضاء من الكتان . وطبقا للطقوس الدينية ، دلفت إلى مقصورة داخلية ، ولكنها ليست أقصى المقصورات ، وقدمت القرابين المعتادة على المذبح . ورفعت يدى إلى السماء . وشرعت أبتهل خاشعاً . . وأستجمع أطراف شجاعتى فى انتظار ساعة التجربة العصيبة

ومرت ساعات .ثم فتح الباب . ونفذ ابى إلى الغرفة بثيابه الناصعة البياض. وبرفقته كاهن المعبودة (ايزيس)

وانبعثت واقفاً . وتقدمت منهما بكل خضوع . فرفع كاهن ايزيس مصباحه إلى وجهى . وسأل :

— أمستعد أنت أيها المختار لمشاهدة جلال المعبودة وجهاً لوجه ؟

فأجبت : نعم . قدنى اليها

فأردف الكاهن بصوت رهيب :

— فكر فى الأمر ملياً ، فليس هو بالهين اليسير . فان كنت قد اعتزمت أن تبلغ أمنيتك الأخيرة ، فاعلم ياهارماكيس ، يا سليل الملوك ،

أن التعالم تقضى عليك بأن تموت الليلة بالجسد هنيهة ، لتعطى بذلك الفرصة لروحك كى تتطلع إلى المسائل الروحية . فان مت ، ثم وجد بين طيات قلبك أى دنس أو رياء ، فالويل لك يا هارماكيس . لأن الحياة لا تعود اليك حينئذ ويتلاشى جسدك . فهلا أنبأتنى الآن ، هل أنت طاهر ، نقى من التفكير فى الخطيئة . وفى المرأة البشرية

فأجبت : نعم .. خذنى اليها ..

فقال الكاهن :

— حسنا .، سننطلق من هنا وحدنا أيها الكاهن النبيل امنمحمث .

فقال أبى :

— الوداع يا بنى ، كن ثابتا . وعالج التجربة بعزم وطيد وايمان راسخ كما تنجح وتنتصر ، ان من يرعى الحق والصدق فى حكم الشعوب يجب أن يتسامى أولا فوق البشر ! ولا بد أن يضع رضاء الآلهة نصب عينيه ، لأن ذلك هو الوسيلة الوحيدة للوقوف على الأسرار المقدسة ، ولكن كن على حذر ، فان الالهة تطالب من يجرؤ على الدخول فى دائرتها المقدسة بالشىء الكثير ؛ واذا حاد عن طريقها انزلت به أشد القصاص فبقدر مايصيب الانسان من مجدها ، وفخارها ، يكون مبلغ إذلاله ، وتأديبه ، فليكن قلبك ثابتا إذن ياهارماكيس الملكى ! ! والآن ، اذا كان قد استقر منك العزم ، فاذهب الى حيث لايسمح لى بمرافقتك ، والى اللقاء !

وقفت هنيهة مثقل القلب ، حائراً ، ولكن كانت تسيطر على رغبة قوية فى الاجتماع بالآلهة ، وكنت أعلم انى طاهر الذيل ، نقى القلب ، وألا شىء يحول دون أن احقق رغبتى فى الاجتماع بهم.

فصحت : تقدمنى أيها الكاهن المقدس وسأتبعك

وانطلقنا . .



الفصل السادس

مدينة الموتى

انطلقنا صامتين الى مقصورة ايزيس ، وكانت خالية ، معتمة إلا من ضوء باهت كان ينبعث من مصباح صغير ، وينعكس على الجدران المنحوته ، حيث نصبت مئات من تماثيل الأم (ايزيس) ،وهى ترضع الطفل المقدس .

وأغلق الكاهن الأبواب بالمزاليج . ثم قال :

— هأنذا أسألك للمرة الثانية : هل أنت مستعد ياهارما كيس ؟

فاجبت : وللمرة الثانية أقول انني على تمام الاستعداد

فلم يتكلم ثانية . وانما رفع يديه الى أعلا . ثم قادنى الى (الهيكل المقدس) وبحركة سريعة اطفأ المصباح . ثم هتف بصوت خيل إلى أنه أجوف وسط هذا المكان الرهيب :

— انظر أمامك ياهارماكيس

فنظرت ، ولكنى لم أميز شيئا . بيد أننى سمعت صوتاً ينبعث من الكوة حيث وضع رمز الآلهة المقدس الذى لم يره الا القليلون .

وإذ كنت أصغى لهذا الصوت خائفا ، رأيت أطراف الرمز ، وقد رسمت بخطوط من نار فى ذلك الظلام الحالك . . وكان معلقا فوق رأسى ، وينبعث منه رنين .

وحدث أن تحول الرمز ، فرأيت وجه الأم ايزيس بوضوح ! محفورا على أحد جانبيه . . وكان يرمز الى الولادة الأبدية فى حين حفر على الجانب الآخر وجه أختها المقدسة (نفتيس) ، وكان يرمز الى انتهاء كل حى الى الموت .

وتحول الرمز ببطء ، وهو يتأرجح فى الهواء . كما لو كان راقصا سحريا يخطر فوق فى الفضاء . ولكن لم يلبث الضوء أن اختفى وتلاشى الصوت .

وفجأة . . أضيء أحد جوانب الغرفة . فرأيت وسط النور الأبيض صوراً تتوالى وتترى .

رأيت النيل القديم ينساب وسط الصحارى الى البحر . والطيور البرية

تحلق فوق مياهه ، ووحوشا غريبة الهيئة تلقى بنفسها فى الماء ، وتغوص فيه . وكانت الشمس تنحدر نحو الأفق ، وراء صحراء ليبيا . فاصطبغت المياه بلون الدم . والجبال الشاهقــة تتسامى الى السماء ، فأدركت اننى أرى العالم كما كان قبل بدء الخليقة . . وسرت الى نفسى رهبة . ودهشة .

واختفت هذه الصورة ، وحلت محلها أخرى . . فرأيت شـاطئ سيجور (النيــل) مرة أخرى . . وقد اكتظا بالخلائق . . وهم فى صورة أقرب الى القردة منهم لبنى الانسان . وهم يتشاحنون ! ويفتك بعضهم ببعض . بينا كانت الطيور البرية تفر خوفا من النار التى أشعلها الأعداء فى الأكواخ المصنوعــة من الغاب ، بعد أن سلبوا مابها . وسرقوا محتوياتها . وقتلوا الأطفال وهشموا رءوسهم ببلط من الصخر . وبرغم أنى لم أسمع صوتاً يدلنى على حقيقة ماأرى ، فقد أيقنت اننى أرى حال الانسان منذ آلاف السنين عند مادب على الأرض فى بدء الخليقة .

وللمرة الثانية اختفت الصورة ، وظهرت مكانها أخرى . . فرأيت شاطئى (سيجور) وقد شيدت على أرضها مدن جميلة ، يجتاز أبوابها رجال ونساء وهم يروحون ويغدون فى أراض خضراء .. ولـكنى لم أر حراساً ، أو جيوشاً أو أسلحة حرب وقتال .. فقــد كانت الحـكمة ، والرخاء ، والسلام تسود البشر .

وإذ كنت مستغرقا فى مشاهداتى وتأملاتى برز شيخ يرتدى حلة من المهابة والوقار ، تتوقد مثل شعلة من اللهب ، من أبواب معبد ، تتقدمه وتسير فى أثره نغمات الموسيقى . الى أن جلس على عرش من العاج ، وضع فى السوق مقابل النهر . . فلمــا غابت الشمس وراء الافق ، نادى فى النـاس يدعوهم للصلاة . . فصلوا جمـاعة ، وسجدوا اجلالا وتعظما . . فأدركت أن هــذه الصورة تمثل حكم الآلهة على الارض . . وذلك قبل حكم مينا بوقت طويل . .

تغير شكل الرؤيا ، فبقيت المدينة الجميلة على حالها . . ولـكن أبدل أهلها بقوم ترتسم على وجوههم أمارات الجشع والشر ، يبغضون قيود الاعمـال الشريفة ، وينغمسون فى الشر . . وجاء المساء فجلس الشيخ على عرشه ،

ونادى الناس للصلاة . ولكن أحداً منهم لم يلب النداء . . فيطأطىء الرأس اجلالا وتعظيما

وصاحوا قائلين :

— لقد اجتويناك . . نريد ملك الشر ! ! اذبحوه ! اذبحوه ! واطلقوا الشر من عقاله ! !

فنهض الشيخ الوقور عن عرشه . . وراح يحملق فى الاشرار بعينين حزينتين . .

ثم هتف :

— انكم لاتفقهون ماتقولون . . لكن ما أردتم سيكون لكم ! وأقسم بذاتى أنى إذا مت ، فلن تجدوا سبل الخير ذلولة معبدة . .

وفيما كان يتكلم ، رأيت شيطانا رجيما يثب فوق الشيخ وهو يسبه ويلعنه ثم ذبحه . ومزقه اربا . وارتقى العرش بين تهليل الجماهير وصيحات استحسانها .

بيد أن ذلك لم يطل أمده . فقد هبط من السماء شبح مقنع على أجنحة من الظل . وأخذ الشبح يجمع أشلاء الشيخ المتناثرة ، وهو يبكى ويعول . ولم يلبث الشبح (وكانت امرأة) ان رفعت يديها . وبكت . وبينما هى تبكى وثب من جانبها محارب مسلح له وجه رع (الشمس) وقت الظهيرة . وحمل هذا المحارب على المارد الذى اغتصب العرش . . وصرخ فى وجهه . . ومن ثم اشتبكا فى نضال رهيب . إلى أن صعدا معاً إلى السماء

واعقبت هذه الصورة صور أخرى . فرأيت ممالك ، وشعوبا فيأزياء متباينة ، ويتكلمون لغات مختلفة . رأيتهم يمرون أمامى أفواجا . أفواجا . يحبون ، ويبغضون ، ويقاتلون ، ويقضون . وكان القليلون منهم سعداء . بينما انطبعت على وجوه البعض علامات الحزن والشقاء . ولكن كانت تلوح على وجوه غالبيتهم سيماء الصبر ، والتجلد

وبينما كانت هذه الصور تترى وتتتابع أمام عينى من جيل إلى جيل كان (المنتقم) ينافح إله الشر فى أجواز الفضاء . وكانت الحرب بينهما سجالا . ولم

يبح لى أن أعلم كيف انتهى النضال بينهما

وأخيراً أدركت أن ما رأيته ان هو إلا الرؤيا المقدسة للنضال بين قوتى الخير والشر .

رأيت كيف خلق الانسان مفطوراً على الشر . وكيف أشفق عليه الذين فى السماء ومدوا اليه أيديهم ليطهروا قلبه منه ويقيلوا عثراته ! ويتمموا عليه نعمة السعادة . بيد انه لم يلبث أن عاد إلى الطريق المرذول . وعندئذ تقدمت روح الخير الجليلة التى تدعوها أوزوريس ، والتى لها أسماء متعددة وتطوعت لمكافحة شرور الانسان الذى أسقطها عن عرشها . .

واختفت الصور . وتكلم الكاهن مرشدى . قال :

— هل فهمت ياهارما كيس معنى هذه الأشياء التى أرادت الآلهة أن تطلعك عليها ؟

— نعم . . فهمت . . هل انتهت الطقوس الدينية عند ذلك ؟

— كلا . . انها انما بدأت . . وأما ما سيأتى بعد . . فعليك أن تبلوه وحدك . ! سأتركك الآن على أن أعود اليك عند الفجر . ولكنى أرى أن أحذرك مرة أخرى . فليكن معلوماً أن ماستراه عيناك لايراه أحد ثم يعيش . لم أر فى حياتى غير ثلاثة أقدموا على مواجهة هذه الساعة الرهيبة ، ولكننى لم أجد غير واحد منهم بقى على قيد الحياة عند ماعدت اليه فى الفجر . . وأما أنا فلم أجد فى نفسى الجرأة على اقتحام هذا السبيل لأنه أعظم من أن تطأه قدما رجل مثلى .

فقلت :

— ليكن . . ان نفسى متعطشة للعلم والمعرفة . وسأجازف

فوضع الكاهن يده فوق رأسى ، وباركنى . ثم انصرف .

وشعرت أننى وحيد فى الحرم المقدس مع (أشياء) لاتمت الى هذا العالم بسبب . .

وساد السكون ، سكون رائع ، ومظلم كالظلمة التى تكتنفنى .

وتكلمت . فرجعت جوانب المكان صدى كلماتى . وكان له وقع مروع

لايمكن احتماله .

وتساءلت : ترى ماذا سأرى ؟ وهل سأموت ، حتى فى هذه الليلة التى أتمتع فيها بقوة الشباب ، وفتوته ؟ ماأروع عبارات التحذير والانذار التى سمعتها ! !

وانتابنى الفزع . . حتى لم أتمالك من التفكير فى الهرب . . الهرب ؟ ! ولكن الى أين ! ! ان أبواب الهيكل موصدة . وليس فى استطاعتى أن أجد منفذا آخر للخارج . اننى الآن وحيد مع القوة الخفية التى ناديتها . ولكن قلبى كان طاهراً ، عفا . فلماذا أخاف ؟ ! سأواجه الرعب الذى ينتظرنى . . . ولو هلكت .

وفجأة بدأ الهواء يهب . وحملقت فى وجهى أعين متألقة . وهز نفسى همس غريب . وفى احشاء الظلام كانت هناك اعمدة من نور . أخذت تتغير

وتتبدل . وتتحرك من هنا ومن هناك . وترسم رموزا غريبــة لم استطع حلها او فهم كنهها .

وزادت سرعة الضوء . وتجمعت الرموز . وتــكومت . ثم تلاشت . ولم تلبث أن ظهرت مرة أخرى . ودارت بسرعة أعظم من سرعتها الأولى . فلم أستطع أن أتتبعها . وعندئذ خيل إلى أننى أسبح فى بحر من الجـد ، متلاطم الامواج . كالمحيط . فـكنت ارتفع عاليا فوق اللجة . ثم لا البث أن أهبط

وأخيراً ، بدأت الانوار تخبو فى مهب الهواء العنيف .

ثم الفيت نفسى فى النهاية اشبه بكرة من نار . أو نجم فى سمـاء ليل مظلم حالك . وفجأة ارتفع دوى موسيقى مفزعة تنبعث من مـكان سحيق وسط الظلام . وأخذ هذا الدوى يقترب رويدا رويدا . ويزداد وضوحا وارتفاعا إلى أن اكتنفنى من كل جانب . وولد الذعر فى قلبى . وسحرنى أيضا .

وكما جاءت تلك الاصوات المروعة ، لم تلبث أن أخذت فى الابتعاد حتى تلاشت تماما . وتلتها أصوات أخرى متباينة فلبعضها رنين (الجـــلاجل) ، وللبعض الآخر صوت الابواق النحاسية . وبين هذه وتلك كنت اسمع نغمات حلوة فوق نغمات البشر . وقرع طبول يدوى كالرعد .

ثم تلاشت هذه الاصوات أيضا . وساد صمت مروع .

وبدأت قواى تخور . وشعرت بالحياة تفـارقنى . والمـوت يدنو منى فى شكل سكون ووحشة . وأحسست ببرودة مخدرة تتمشى فى اوصالى .

ولـكنى كنت متمتعا بقواى العقلية . فرحت أفـكر .

أدركت أننى أقترب وشيكا من الحـــد الفاصل بين الموت والحياة . ولـكن ما أرهب مثل هذا الاقتراب !

جاهدت لـكى أصلى . ولـكنى فشلت . فما كان هناك وقت للصـلاة . ولم البث أن شعرت باطمئنان فـكرى . وانقشع عنى الخوف والذعر . واستولى على نعاس لا قرار له .

كنت اموت ! اموت ! ولا شىء غير ذلك !

بل كنت ميتا . . ! !

ثم حدث انقلاب ، عادت الى الحياة ، ولكن شتان بين الحياة الجديدة ، والحياة التي ولت .

ووثبت واقفا في ظلام المعبد ، ولكن الظلام لم يحجب مافي جوفه عني ، بل خيل كأن نورا ساطعا يغمر الغرفة ، وما كان هناك نور .

وقفت ، ولكن لم أكن أنا الواقف . وانما هو كياني الروحي ، فقد كنت أرى جثتي مسجاة تحت قدمي ، وكانت متصلبة . ترتسم على وجهها أمارات هدوء مروع .

وانعمت النظر الى جثتي في ذهول ، وعجب .

وفجأة ، الفيتني محمولا على أجنحة من اللهب ، اندفعت بي بسرعة البرق الخاطف ، وانطلقت في اجواء فارغة الى مسافات بعيدة ، ثم هوت بي في النهاية الى قرار سحيق ، وظلت تهوى وتهوى آلافا من الأميال ، حتى استقرت أخيرا في مكان غير محدود مضاء بنور لايتغير ، به هياكل ، وقصور ومساكن لايحلم بها البشر ، وكانت جميعها مشيدة من اللهب ، والظلمة ، ترتفع مسلاتها في الفضاء الى مدى بعيد ، وتمتد أفنيتها الى مسافات شاسعة .

وبينا انا محلق في الفضاء أخذت معالم الدنيا تتغير باستمرار ، فكان اللهب يستحيل الى ظلام ، والظلام الى ألسنة من نار ، وكان بريق البلور ، ولمعان اللآلىء يلمع ويسطع هنا وهناك وسط البهاء الذي كان يكتنف مدينة الموتى ، ثم رأيت أشجارا لحفيف أوراقها صوت أشبه بنغمات الموسيقى ، وهواء تشبه نسماته صوت الغناء .

وتمثلت أمامي أشكال غامضة غريبة ، متغيرة ، اندفعت نحوى ، ثم رفعتني ، وهبطت ، حتى خيل الى انني استقر فوق أرض أخرى

وصاح صوت عظيم : من جاء ؟

فأجابت الاشكال التي كانت دائمة التغير :

— انه هارماكيس ، هارماكيس الذي استدعى من الأرض ليشاهد

وجه (التى كانت وكائنة وستكون) هارما كيس ، ابن الأرض !

فصاح الصوت البغيض :

— افتحوا الأبواب ، واغلقوا شفقيه لئلا يعكر صوته موسيقى السماء الشجية ، وأغمضوا عينيه لئلا برى مالا تجوز رؤيته ، ودعوا هارما كيس الذى استدعى من الأرض يسير فى السبيل المؤدى الى (المكان الذى لايتغير) تقدم يابن الأرض ، ولكن انظر أولا لكى تعرف المسافة التى ارتفعتها فوق الأرض :

فأطعت .. ونظرت .. فاذا بى أرى ظلاما ، يلمع فى سمائه نجم صغير .

ومست اذناى وعيناى وشفتاى تخيم عليها السكون ، والظلام . فلا صوت يصل الى مسمعى .. ولا شىء تنعكس صورته فوق عينى . .

وفتحت الأبواب .. ودخلت مدينة الموتى

ودفعت إلى الداخل دفعا . . فانطلقت على غير هدى . . وأخيرا وقفت على قدمى .. وصاح الصوت مرة أخرى .

— ارفعوا نقاب الظلمة عن عينيه . . واطلقوا لسانه ، وافتحوا أذنيه لكى يتمكن هارما كيس ابن الأرض من أن برى ويسمع ويفهم . . ويقدم فروض العادة فى معبد (التى كانت وكائنه وستكون)

فمست شفتاى وعيناى وأذناى مرة أخرى . فانجابت الغشاوة عن عينى ، وغادت الى حاسة السمع . وانطلق لسانى

ورأيتنى واقفا فى قاعة من الرخام الاسود . . وكانت عظيمة الارتفاع حتى لم أستطع أن أرى قباب سقفها برغم ضوئها الوردى . . وكانت نغمات الموسيقى تتردد فى جوانبها .. بينا اصطفت على جانبها أرواح من اللهب ذات أجنحة . . بهرت عينى فلم أستطع النظر اليها . . وكان أمامى مذبح صغير مربع الشكل خال :

وصاح الصوت :

— يا أيتها التى كانت وكائنة وستكون . ياذات الاسماء المتعددة ، والتى لا إسم لها . يارسول الاله .

ان هارماكيس المصرى الذى استدعى من الأرض استجابة لرغبتك ينتظر الآن أمام مذبحك ، بأذنين واعيتين وعينين مصرتين ، وقلب مفتوح .. اسمعى واهبطى !

وتلاشى صوت المتكلم . وساد الصمت .

ومن احشاء السكون ارتفع صوت كهدير موج البحر . . ثم تلاشى أيضا .. وعلى أثر ذلك رفعت يدى عن عينى ، ولا أدرى باية قوة فعلت ذلك ونظرت فرأيت سحابة معتمة معلقة فوق المذبح . . وكان يخرج منها

ويدخل فيها ثعبان من نار .

وخرت الأرواح المنيرة ساجدة فوق أرض الغرفة . . وشرعت تترنم وتبتهل .. ولكنى لم أفقه معنى ما تقول .. وبعد هنيهة هبطت السحابة المعتمة واستقرت فوق المذبح .. وتمدد الثعبان . ولمس جبينى بلسانه المتشعب . ثم اختفى .

وسمعت صوتا يتكلم من جوف السحابة بلهجة رقيقة هادئة :

— انصرفوا أيها الخدم .! دعونى مع ابنى الذى استدعيته ..

فزايلت الأرواح الغرفة .. كأسهم من نار تتطاير فى الفضاء

واستطرد الصوت :

— لا تنذعر ياهارماكيس ، فأنا التى تعرفوننى فى مصر باسم ايزيس .. ولكن لا تحاول أن تعرف اسمائى الأخرى لأنها فوق مستوى ادراكك .. أنا كل شىء . وروحى هى الحياة ، وجسمى هو الطبيعة .. انا ضحكة الطفل وحب العذراء . وقبلة الأم . انا ابنة (غير المرئى) . وخادمته .. وهو الاله والقانون .. والقدر . . وأما انا فلست قانونا . ولا قدراً . ولكنك تسمع صوتى اذا عصفت الريح . أو زمجر البحر . . وترى صورتى اذا نظرت الى صفحة السماء المزينة بالنجوم .. واذا تفتح الزهر رأيت ابتسامتى . فالطبيعة انا .. واشكالها اشكالى .. لاشىء يضارع جلالى ..ولا شىء مهما دق حجمه لا يأويى .. والذى أمر بأن تخلق أمر بان اخلق ايضا . . فلا تخف رغم ما بيننا من فوارق . فان رابطة الحياة المشتركة تربطنا معا ..

فأطرقت .. وارتج على ، فقد عقل الرعب لسانى ..

واردف الصوت

— لقد تفانيت فى خدمتى يابنى ، وتقت الى رؤيتى هنا فى (امنتى) . . ولم تدخر وسعاً فى تحقيق هذه الرغبة . وجازفت باطلاق روحك من جسدك قبل الساعة المعنة فنعم الولاء . لقد استدعيتك الى لكى أبادلك الحديث ، كما حدثتنى تلك الليلة فوق برج الهيكل فى ابوثيس . . أتذكر زهرة اللوتس التى وضعتها فى يدك ؟ انها الدليل الذى كنت تطلبه . . وقد قدمته اليك لأن

دمك من دم الملوك . . ابنائى الذين خدمونى على مر الأجيال . . نعم يابنى . سترتقى ذاك العرش الملكى العظيم .. وتعيد فروضى الدينية النقية ، وتطهر هياكلى من الرجس . والرياء .. اللهم الا ان فشلت فى مهمتك العظيمة ، وعند ئذ لا يكون لروح ايزيس فى مصر الا مجرد الذكرى

وكف الصوت عن الكلام . . فاستجمعت قواى . وسألت :

— وهل سيكون نصيبى الفشل أيتها الأم المقدسة ؟

— لا تسألنى عما لا يجوز أن أكاشفك به . قد يكون فى وسعى أن أقرأ ما سيصيبك . وقد لا تسرنى قراءته . وما فوزك وفشلك إلا مرجعهما اليك وحدك . وكيفما تكن أعمالك يكن مجدك أو عارك . اننى لا آبه كثيراً للنتائج ، لأننى لست إلا منفذة لما هو منسجل ، ومقدور ولكنى لن أتخلى عنك يا بنى . فقد وهبتك حبى . ولا أستطيع أن أسترد ما وهبت . فاعلم إذن انه بقدر فوزك سيكون جزاؤك . وأما إذا فشلت فسوف تكون العقوبة بنسبة الفشل ولكن اعلم أيضاً أن العار والآلام لا تدوم . لأنه مهما كان الانحراف عن الطريق السوى فانه يوجد ، مع الشعور بالندم ، طريق شائك يمكن العودة منه . فلا تأل جهداً فى تجنب سلوك هذا الطريق

يا بنى . إنك أحببتنى وأنت تهيم فى وادى الخيال الذى يفقد الناس أنفسهم فيه على الأرض . وأنا أيضاً أحبك ، واتطلع إلى ذلك اليوم الذى ستأتى فيه وتسكن فى نورى مباركا . أقول اننى لأجل هذا كله سأطلعك على (الكلمة) التى استدعى بها من (المنتهى) . والتى يستطيع أن يلجأ اليها ذاك الذى قابلنى وجهاً لوجه ونظر إلى وجه (ايزيس) وإلى عينى (الرسول) دون أن يموت، كلما ألمت به شدة

انظر ! !

وتلاشى الصوت الساحر . وتبدلت السحابة التى كانت تحلق فوق المذبح تدريجياً . الى أن ابيضت ولمعت . واستحالت فى النهاية إلى شكل امرأة ترتدى ثيابا . ثم زحف الثعبان من قلبها وأحاط برأسها على هيئة تاج

وفجأة . نادى صوت بالكلمة الرهيبة فانفجر الابحره . وانقشعت .

ورأيت بعيني رأسى ذلك (الجـلال) الذى ترتعد فرائصى لمجرد ذكراه . ولـكنى لست فى حـل من تسجيل ما رأيت . فقد حذرت من ذلك تحذيراً قاطعاً .

رأيت إذن ما لا يمكن أن يتصوره عقل بشر

ولم يكد يتردد صدى (الـكلمة) . وتنطبع تلك الرؤيا على صفحة قلبي حتى خارت قواى . وسقطت أمام ذلك (البهاء) . وعندئذ خيل كأن الغرفة الـكبرى قد انشقت . وتهدمت واستحالت الى شـهب لامعة أحاطت بى . ولم أع شيئا بعد ذلك

الفصل السابع

تتويج هارما كيس

وعند ما أفقت . . الفيت نفسى ممددا على الأرض ، فى مقصورة ازيس فى مدينة أبوثيس . . ورأيت الـكاهن الشيخ واقفا بجانبى ، وهو يحمل مصباحا فى يده . . وينعم النظر فى وجهى .

وما أن فتحت عينى . . حتى هتف :

— لقد ولدت اليوم من جديد . . فشكرا للآلهة على نعمها . . انهض أيها الملك هارما كيس . . لا . . لا تحدثنى بشىء عما وقع لك . . قم أيها المحبوب من الأم المقدسة . . تقدم . فقد اجتزت النار . . واطلعت على ما وراء الظلام . . تقدم أيها المبعوث من جديد !

فنهضت . . وانطلقت الى غرفتى بخطى ثقيلة . . وقد تبلبلت أفـكارى واضطربت خواطرى .

وتمددت فوق فراشى متعبا ، مكدودا . . ولم ألبث أن استولى على سبات عميق . . لم تتخلله رؤى مزعجة ، ولا شبه مزعجة .

وقد قضيت فترة من الزمن فى عبادة الأم ازيس . . ودراسة الأشكال الخارجية للاسرار التى بيدى الآن مفتاحها . . وتعلمت الأساليب السياسية .

وكان كثيرون ممن يؤازرون حركة ارتقائى عرش مصر يفـدون سراً

لزيارتى من جميع الانحاء . . ويتحدثون الى عن كراهية الشعب لـكليوباترا الملـكة .

ومضت ثلاثة شهور .

واجتمع منـدوبو مصر العليا والسفلى للمناداة بى ملـكا على عرش الفراعنة .

وكان من المتفق عليه سلفا أن تقام الحفلة سراً . فى معبد أبوثيس .

جاء نواب الشعب إذن من كل حدب وصوب . متنكرين فى شتى الأزياء فـكان بعضهم فى ثياب كهنوتية .. والبعض كحجاج إلى (المقدس) . والبعض فى زى شحاذين .. وكانوا فى مجموعهم سبعة وعشرين نائبا .

ومع القادمين جاء خالى سيبا متنكراً فى ثياب طبيب متجول . . ولـكنى عرفته بمجرد أن سمعت صوته الجهورى .

وإذ لاقيته على ضفة الترعة . وناديته باسمه . صاح مأخوذاً :

— عفا الله عنك . ألا يستطيع الانسان أن يتنكر ساعة واحدة ؟ لقد بذلت جهداً عظيما فى تغيير هيئتى ، ومع ذلك فقد عرفتنى لأول وهلة !!

وضمنى إلى صدره باشتياق .. وأراد أن يرافقنى إلى ابوثيس . ولـكننى ذكرته بالدور الذى يلعبه . . وكيف انه لا يجب أن ينسى دقة موقفه حيال جواسيس الملـكة كليوباترا الخطرين

* * *

والتأم عقد الجميع .

كان الوقت ليلا . . فاغلقت أبواب المعبد .. ولم يسمح لأحد بالبقاء داخله غير السبعة والعشرين نائبا .. وابى امينمحعت الـكاهن الأعظم .. والـكاهن العجوز الذى رافقنى إلى مقصورة ازيس . والعجوز (اتوّا) . اذ كان عليها حسب العادات المتبعة أن تدهننى بالزيت . وخمسة كهنة آخرين أقسموا ذلك القسم الذى لا ينقض أن يكتموا السر .

كنت أجلس وحـدى فى الدهليز حيث نقشت اسماء ستة وسبعين ملـكا من الملوك الأقدمين الذين حكموا قبل سيتى المقدس . فى حين اجتمع النواب

فى الغرفة الثانية من الهيكل القديم

وبعد قليل ، أقبل أبى امينمحعت . . وكان يحمل مصباحا . ثم قادنى من يدى إلى القاعة الكبرى .

كانت الغرفة ضيقة ضعيفة الصوء . . والنواب يجلسون فوق مقاعد صخرية ينتظرون قدومى . . وأمام الهيا كل السبعة ، وضع عرش مرتفع . . التف حوله الكهنة وهم يحملون الصور المقدسة . والأعلام .

ولم أكد اطأ المكان المقدس بقدمى . حتى انبعث الرؤساء وقوفا . . وأحنوا رؤوسهم اجلالا وتعظيما .

وذهب بى أبى إلى العرش . . وأمرنى بصوت منخفض أن أقف أمامه . . وتحول الى المجتمعين . . وقال :

— أيها الاعيان . والكهنة . والأمراء . يا أبناء مصر القديمة . . وأشراف مصر العليا والسفلى الذين لبوا ندائى . . اصغوا إلى : أقدم اليكم الأمير هارما كيس . وارث عرش الفراعنة الأقدمين . وسليلهم بحق النسب والدم . انه كاهن إيزيس المقدسة . والواقف على أسرارها العظيمة . . والكاهن الوراثى للاهرامات القريبة من ممفيس . فهل يساور أحدكم الشك فى صحة نسبه ؟

فانبعث خالى سيبا واقفا . . . وقال : لم نجد شيئا يخالف ما قلت فى السجلات التاريخية . . ولا ريب أن نسبه لاغبار عليه .

فأردف أبى : هل فيكم من يرتاب فى أن الأمير هارما كيس انضم إلى الأم ايزيس بموافقة الآلهة . . وأن الطريق قد فتح له إلى أوزوريس . . وسمح له بأن يكون الكاهن الأعظم للاهرامات المجاورة لمفيس وهيا كل الاهرامات ؟

فنهض الكاهن العجوز الذى رافقنى الى مقصورة المعبودة ايزيس . . . وقال :

— لا . . ليس فينا من يرتاب فى ذلك يا أمينمحعت . . اننى أعرف كل شىء عن ذلك حق المعرفة

فقال أبى : إذن فقد توفرت الشروط فى الأمير هارما كيس ، سليل (تخت ـ نف) لتتقدم العجوز (اتوّا) . ولتحدثكم عن النبوءة التى فاهت بها زوجتى عن هذا الأمير عندما حضرتها الوفاة

فبرزت المرأة من ظلال الأعمدة . . . وأعادت على مسامع الحاضرين النبوءة التى نطقت بها أمى قبيل وفاتها .

وإذ فرغت العجوز من سرد قصتها . نهض خالى سيبا مرة أخرى . . . وقال :

ـــ أيها الامير هارما كيس . . لقد اجتمعنا هنا لكى تنادى بك ملكا على مصر العليا والسفلى . بعد أن تنازل لك أبوك المقدس امينمحعت عن جميع حقوقه .. وبعد .. اننا لم نجتمع هنا بتلك الروعة والفخامة اللتين كان يجب اظهارها فى مثل هذه المناسبة فان ما نفعله الآن يجب أن يبقى طى الكتمان والا فقدنا أرواحنا ، وضاعت قضيتنا التى تقدسها أكثر من ارواحنا ولكننا ، مع ذلك ، قمنا بواجب التكريم .. وراعينا التعاليم الدينية القديمة بقدر المستطاع .. ففكر فى الأمر أيها الأمير ، فاذا وافقت على عملنا ، اصعد الى عرشك . . يا فرعون واقسم اليمين .

لقد عانت مصر الأمرين تحت حكم اليونانيين : وكم انتفضت جزعا ، وفزعا ، عند رؤية حراب الرومان .. وكم تدنست آلهتها القديمة . ولكن هاهى ذى ساعة الخلاص والحرية قد حانت . .

ان عشرين الفا من الرجال المخلصين قد أقسموا لك يمين الطاعة والولاء وهم على استعداد لأن يهبوا كرجل واحد عند أول كلمة تصدر من فمك ، ليقضوا على الأغريق ، ويقيموا لك عرشا فوق اشلائهم وجثثهم . . عرشا أثبت أساسا من اهرامات مصر القديمة ، يصد عنها جموع الرومان . ويدفعها دائما إلى الخلف . . اما اشارتك فستكون قتل تلك البغى كليوباترا . . وهو أول عمل ينبغى أن تقوم به ياهارما كيس طبقا للخطة التى ترسم لك .

قوبلت هذه الكلمات الحماسية بعاصفة من التهليل والاستحسان . فصحت :

ـــ كفى ! كفى ! أبكم حاجة إلى شحذ عزيمتى بهذه الكلمات ؟ ! وهل

يرتاب أحدكم فى أننى اضن ببذل الف حياة على مذبح تحرير مصر ؟

فهتف خالى سيبا :

— أحسنت .! أحسنت .! رافق هـذه المرأة (اتوّا) ، لـكى تطهر يديك قبل أن تمس الرموز المقدسة .. وتدهن جبينك بالزيت قبل أن يوضع فوقه التاج . .

فانطلقت برفقـة (أتوّا) الى غرفة منعزلة ، حيث أفرغت المرأة ماء نقيا على يدى من وعاء من الذهب .. وكانت تصلى .. ثم غمست قطعة من القماش الرقيق فى الزيت .. ودهنت به جبينى . . وقالت :

— ايها الأمير السعيد .. الذى خلق للمجد . والسعادة . والحب

فقلت وقد أمضنى كلامها :

— صه ! صه ! لاتقولى انى سعيد حتى تعلمى نهايتى . ولا تذكرى شيئا عن الحب لأنه من الحب تتولد الآلام والاحزان . وأما أنا فاسلك سبيلا آخر أعظم شأنا من هذا الذى عنه تتحدثين .

— نعم . . نعم . . هـذا ماتقول . . ولـكن السرور يأتى مع الحب . . فلا تستخف بالحب يامليكى لأنه هو الذى جاء بك الى هذا المـكان . وما أصدق السكنـدريين حيث يقولون « إن الأوزة الطائرة تسخر من التمساح ولـكن التمساح هو الذى يسخر منها وهى نائمة فوق سطح الماء » . وما كانت النساء الا تماسيح جميلة . . والرجال يعبدون (التمـاسيح) فى (مدينـه التماسيح) . بيد أنهم يعبدون المرأة فى جميع بقاع العالم . . والآن لقدتطهرت من كل رجس ياسيد التاج المزدوج . . فاذهب ! !

فزايلت الغرفة . . وكلمات المرأة الحمقـاء تدوى فى أذنى . ولا ريب انها كانت كلمات تنطوى على الحـكمة . وحسن البصر بالأمور .

ولما دخلت على النواب هبوا وقوفا إجـلالا وتعظما . . وأحنوا رؤوسهم أمامى احتراما . ودنا الى منى . . ووضع فى يدى تمثالا من ذهب يمثل الآلهـة (ما) آلهة الحق . وتماثيل ذهبية أخرى للمعبود (أمون ــ رع) والمعبود (موت) ، والمعبود (خونس) ، ثم قالت بصوت متزن رزين :

— هل تقسم بجـلال (ما) وبجـلال (آمون ـ رع) و (موت) و (خونس) ؟

— نعم . . أقسم . .

— وهل تقسم ، وأنت تذكر المصـير المخيف الذى ينتظرك اذا فشلت ، أن تحكم مصر حسب قوانينها القديمة . وأن تحافظ على عبادة آلهتها . . وأن تحكم بالعدل . وألا تخون بلادك ! وألا تتحالف مع الرومان أو الاغريق . . وأن تهدم الأصنام الأجنبية . . وأن تكرس حياتك لتحرير مصر ؟

— نعم . . أقسم

— هذا حسن . . اذن ارتق العرش حتى أنادى باسمـك (فرعونا) أمام هؤلاء الرعايا المخلصين .

فاطعت . . وتقدم أبى ، ووضع الثعبان الملكى على جبينى . وتاج مصر المزدوج فوق رأسى . والعباءة الملكيـة على منكبى . ثم سلمنى صولجان الملك . والسوط .

ثم بدأ الجميع يقسمون يمين الولاء بين يدى . . كل واحد بدوره . وتقـدم أبى . وأقسم بدوره يمين الاخلاص . ثم تناول يدى . وقادنى فى صدر موكب رهيب الى الهيا كل السبعة . وطاف بى فى أرجائها ، وأنا أقدم القرابين فى كل منها . وأحرق البخور . وأبتهل بوصفى كاهنا . . ثم قدمت القرابين على مذبح أوزوريس وآمون ـ رع وبتاح . حتى بلغت فى النهاية الى مذبح غرفة الملك .

وهنا قدموا الى القرابين بوصفى فرعون مصر المقـدس . . ثم انصرفوا لشأنهم وخلفونى منهوك القوى . ولـكننى ملـكا ! !

« * »

(الى هنا انتهى ماجاء فى الملف الأول من أوراق البردى . . وهو أصغرها) . .



القسم الثانى

سقوط هارما كيس

الفصل الاول

هارما كيس فى الاسكندرية

حان وقت العمل.

لقد رسمت كاهنا أعظم . . وتوجت فرعونا . . ومع أن الشعب كان لا يزال يجهلنى . . أو فقط يعرف اننى كاهن ايزيس ، فقد كان هناك ألوف من الناس ينحنون لى احتراما بوصفى فرعون مصر .

وأذنت الساعة أخيرا . . وكنت أتحرق شوقا للقضاء على الأجنبى . وتحرير مصر من العبودية . . وارتقاء العرش الذى آل الى بالوراثة . . وتطهير هيا كل الحق .

انعمت النظر إلى هيئتى فى المرآة . . فرأيت النصر مسطراً فوق جبينى . والمستقبل يمهد لى سبيل السؤدد والعظمة .

ووقفت أمام تمثال أمى ايزيس . . وناجيتها . . ثم انفردت بنفسى فى غرفتى . . ورسمت الخطة لبناء هيا كل جديدة . . وسن تشريعات تعود على شعبي باليسر والرخاء .

وقد حتمت على فروض السكهنوت ، أن أطلق لحيتى . . وواجبات الملك أن أتدرب على الحركات العسكرية المختلفة ، واستعمال الأسلحة . . كما تضلعت فى العلوم السحرية القديمة ، لأسباب ستأتى فيما بعد، وقراءة النجوم .

وكانت الخطة التى تم الاتفاق عليها تتلخص فيما يلى :

اعتزل خالى سيبا العمل فى هيكل (آنو) مؤقتا ، بدعوى اعتلال صحته . . ورحل الى الاسكندرية انتجاعا للصحة على حد قوله . . وليتفرج

على عجائب المتحف العظيم . . ومجد بلاط كليوباترا .

وقد تم الاتفاق على أن ألحق به فى الاسكندرية حيث كانت تحاك خيوط المؤامرة .

ومضت فترة من الزمن . . وجاءتنى دعوة خالى المترقبة . . فتأهبت للرحيل . . وذهبت لوداع ابي ، فالفيته جالسا فى غرفتـه ، كما رأيته يوم زجرنى لذهابي فى أثر الأسد .

واذ دخلت عليـه .. نهض عن مقعده .. وأراد أن يجثو امامى . . وهو يقول :

— السلام لفرعون !!

فقبضت على يده .. وقلت : ابى .. هذا لا يجوز ..

فقـال : لا . بل يجوز جدا . فأنا الآن اجثو أمام مليـكى . ولـكن على سلك .. هل ازمعت الرحيل يابنى ؟ لتحل عليك بركتى . ولتهبنى الآلهة القوة حتى أراك جالسا على عرشك . لقد حاولت . وأفرغت تجاريب السنين . وعصارة العلوم التى أحطت بها فى الوقوف على ما كتب لك فى مستقبل أيامك ولـكنى برغم ذلك كله لم أفز بطائل، ولست أكتمك بأنى احس الما فى بعض الاحايين . وأرى لزاما علىّ أن انبهك الى أن الطريق وعر شائك ، محفوف بالاخطـار والمهالك . وسيأتى الخطر فى شـكل (امرأة) !! لقد علمت ذلك منذ أمد بعيد وهذا ما حفزنى على دعوتك لعبادة (ايزيس) المقدسة .. التى تأمر عابديها أن يجعلوا بينهم وبينها سدا لا يتخطوه اليها ، الى أن يحين الوقت الذى تراه ملائما لتخفيف القيد . آه يابنى . وددت لو أنك كنت أقل جمالا منك الآن . فأخوف ما أخاف أن يـكون جمالك هذا حجر عثرة فى طريقك . . حـذار يابنى من فاتنات الاسكندرية خشية أن تتسلل احداهن كالدودة الى قلبك .. وتنتهك حرمة اسراره ..

فعبست وأجبت :

— لا تخش شيئا يا ابى . فان لى من واجبى ما يصرفنى عن التفـكير فى الثغور البسامة .. والعيون الفتاكة .

— حسنا .. الوداع اذن يابني . واضرع الى الآلهة الا نلتقي ثانية الا في تلك الساعة السعيدة التي انطلق فيها من ابوثيس في رهط من كهنة مصر العليا لنقدم لك فروض الولاء . والاحترام . وانت جالس على عرشك ..

فعانقته ثم انصرفت .

وفي الليلة العاشرة لرحيلنا ، وصلنا الى مدينة الاسكندرية .. تلك المدينة العظيمة ذات الالف مصباح ، التي يعلوها ويكسف نورها ذلك المنار الابيض ، احدى عجائب الدنيا ، وهو فنار ينبعث من قمته ضوء مثل ضوء الشمس فوق مياه الميناء لهداية السفن في الليل .

ونزلت إلى البر .. ووقفت وأنا في حيرة من أمري . أقلب الطرف حولي وأنصت بدهشة الى مختلف اللغات واللهجات التي كان يتحدث بها أهلها

وبينما كنت واقفا .. اقترب مني شاب .. وضع يده على عاتقي .. ثم سألني :

— هل أنت الأمير هارماكيس القادم من أبوثيس ؟

فأجبت : نعم ..

فمال فوق أذني .. ونطق بالكلمة السرية .. ثم أومأ الى عبدين .. وأمرهما بأن يحملا امتعتي من السفينة ..

وعاد العبدان بعد هنيهة .. فانطلقنا جميعا نحو شاطىء الميناء العظيم .. ثم انعطفنا إلى اليمين .. واستأنفنا السير في طريق لاحب ، مرصوف بالجرانيت .. وعلى جانبيه منازل فخمة لم أر لها مثيلا ..

ووصلنا إلى حي هادىء من المدينة .. ولم يلبث أن وقف رفيقي أمام منزل مشيد بالطوب الابيض .. فعبرنا بابه الخارجي الى رحبة صغيرة .. ثم دخلنا غرفة مضاءة بمصباح .. وكان يجلس فيها خالي سيبا ..

واستقبلني خالي مسروراً .. وكاد يرقص من الطرب ..

وبعد العشاء .. جلسنا نتجاذب أطراف الحديث .. فأنبأني خالي أن كل شيء يسير في الطريق المرسوم له .. وأن رجال البلاط لم يوجسوا خيفة حتى الآن .. وقال إن الملكة كليوباترا سمعت بمجيء كاهن معبد (آنو) إلى

الاسكندرية ، فأرسلت تستدعيه اليها . . وأمطرته بوابل من أسئلتها ، لاعن الدسائس ، فهى لم تكن تعلم عنها شيئا ، وانما عن الاشاعة التى تطايرت عن وجود كنز مخبأ فى الهرم الاكبر المجاور لمدينة (آنو) . .

كانت كليوباترا امرأة مبذرة . . مسرفة لا تكف عن طلب المال . . فخطر لها أن تفتح الهرم الأكبر وتضع يدها على الكنز .

وقد ضحك خالى سيبا من قولها . . وأخبرها أن الهرم الأكبر هو مدفن الملك خوفو المقدس . وانه لايعرف شيئا من اسراره . فغضبت كليوباترا من جوابه . . وأقسمت ان تهدم الهرم من أساسه ، كى تكشف عما فى جوفه من أسرار . . فضحك سيبا مرة أخرى . . وردد على مسامعها القول المأثور : «ان الجبال تعمر أكثر من الملوك» . فابتسمت وسرتها سرعة خاطره . . وأذنت له بالانصراف .

وأضاف خالى بأنه ستتاح لى فرصه رؤية كليوباترا هذه فى اليوم التالى . وهو يوم ميلادها ! كما كان يوم ميلادى أيضا . . وانها سترتدى ثياب ايزيس المقدسة ، وتغادر قصرها فى موكب رسمى . . إلى (السرابيوم) لتقدم ذبيحة فى معبد الاله الكاذب الجالس فى الهيكل . . ثم قال انه يجب أن ترسم الخطة التى تمهد لى سبيل الدخول على الملكة بعد ذلك

ولكننى كنت متعبا مكدودا . . فاتفقنا على تأجيل الحديث فى ذلك الى الوقت المناسب . . ومن ثم قمت الى مخدعى ، وتمددت على الفراش أنشد النوم . . ولكنه لم يطرق جفني الا غراراً بسبب غرابة المكان ، وجلبة الشوارع .

وقد استيقظت من نومى قبيل الفجر . . وصعدت إلى سطح المنزل . . وقلبت الطرف حولى فى مدينة الاسكندرية العظيمة . . وقد بدت فى ثوب أرجوانى أشبه بثياب الملوك .

وابتهلت الى الأم ايزيس المقدسة .. ثم هبطت إلى غرفة خالى . فاستقبلنى سائلا : ما رأيك فى مدينة الاسكندرية ؟

— انها تشبه إحدى مدن الآلهة .

فصاح بحدة :

— نعم . . انها مدينة الآلهة الجهنمية . . بؤرة الفساد . . ومنبع الظلم . . مدينة الأديان الكاذبة التى تؤمن بها قلوب فاسدة . بودى لو دكت من أساسها . والقيت ثروتها فى اعماق البحر . . وكم اتمنى من صميم قلبي أن ينعق البوم بين أطلالها . . !! لاتجعل أيها الأمير هارماكيس جمال الاسكندرية يخدر أعصابك ، أو يصرفك عن واجبك النبيل . فهى مقبرة كل ايمان . وحذار أن تستهويك خلاعة نسائها ، أو جمالهن ، واجعل نصب عينيك ، حين تأتي الساعة ، أن تضع عرشك بين أسوار مدينة ممفيس البيضاء تشبها بأجدادك الفراعنة العظام

فلذت بالصمت .. وما كان فى استطاعتى أن أجيب وأنا أعلم ان ماقاله هو عين الصواب .

وأفطرنا .. ثم أخبرنى خالى ان الوقت قد حان للخروج لشهود موكب كليوباترا ، وهى فى طريقها الى معبد (سرابيس) .

وكان خالى قد استأجر مقعداً خشبيا عند باب (كانوب) . واستطعنا ان نصل اليه بعد مشقات وطول عناء . وكان المقعد مظللا بقماش ارجوانى . فجلسنا . وانتظرنا طويلا .

وأخيراً ، جاء الجنود ليفسحوا الطريق للموكب .وهم فى ثياب الرومان .

ويلبسون الدروع . ومن بعدهم أقبل الرســل ، وطلبوا الى الشعب أن يلزم الصمت لأن كليوباترا على وشك الوصول .

وبدت طلائع الموكب على البعد . واقبل الف جنــدى من الصقليين يتبعهم الف من جنود تراقيه ، والف من المقدونيين ، ومثلهم من الغاليين وكل فريق منهــم يرتدى بزة بلاده الرسمية . وفى أعقاب هؤلاء جاء خمسمائة فارس ، يرتدون وجيادهم دروعا . . وعلى أثرهم فوج من الغلمان والجوارى وهم يرفلون فى حلل فاخرة . . ويضعون التيجان الذهبية على رؤوسهم . . ويحملون التماثيل التى ترمز إلى الليل والنهار . . والصباح والظهر . والسماء والأرض . ومن بعدهم أقبلت طائفة من فاتنات النساء كن ينثرن الزهور ، ويسكبن الروائح العطرية على جانبى الطريق

وهنا . تعالت أصوات الجماهير صائحة : « كليوباترا ! كليوباترا ! »

فانحنيت إلى الأمام . وحبست أنفاسى . لأرى تلك التى بلغت بها الجرأة أن ترتدى ثيــاب الأم إيزيس المقدسة . . ولــكن الزحام كان شديداً ، فلم أستطع أن أرى شيئاً . ولم أجد مفراً من تضحية مكانى . . ونهضت واقفاً . . وأعملت منكبى فى الجماهير حتى بلغت الصف الأمامى .

وأقبلت فى تلك اللحظة ثلة من زنوج النوبة ، يحملون فى أيديهــم هراوات غليظة . وحملوا على المتفرجين بقوة . وكان أغلظهم قلباً زنجى مارد ، لم يتورع عن استعمال هراوته بكل وحشية وقساوة

واتفق أن كانت امرأة مصرية تقف بجوارى ، وهى تحمل طفلها على ذراعها . فهوى الجبار بهراوته فوق رأسها . فانكفأت على وجهها بين صرخات الاستياء من الجمهور

ساءنى هذا المنظر . . وغلى الدم فى عروقى . ولم أتمــالك شعورى . . فرفعت الهراوة التى كنت أحملها فى يدى . . وهويت بهــا بكل قوتى بين منكبى الزنجى فانبثق الدم من جسمه ، ولوث ثيابه .

وصرخ الزنجى من شدة الألم . وتحول الى وشرر الغضب يتطــاير من

عينيه . ثم انقض على كوحش كاسر أحيط به . فارتد الجمهور الى الخلف .

ولم أتمهل . . أو أتريث . . وعاجلته بلطمة من قبضتى بين عينيه ! فتمايل وترنح . وهلل الناس ابتهاجا بفوزى . فقد كان الزنجى مشهورا بقوة الشكيمة . وشدة المراس

وسب الجبار . . وشتم . . ثم استجمع قواه . . وحمل على بهراوته مرة أخرى . . وسدد الى ضربة قاتلة . ولكننى تفاديتها ببراعة . فارتطمت هراوته بالأرض . وتهشمت . . وتناثرت أجزاؤها

وهلل المتفرجون . واشتدت سخريتهم . فزاد ذلك فى غضب الزنجى فانقض على للمرة الثالثة وقد أعماه الحقد عن كل شيء . فصرخت فى وجهه صرخة داوية .. وأطبقت على عنقه . وتعلقت به .

ولم يجد الرجل سبيلا الى التخلص منى سوى أن يلقى بنفسه فوق الارض بيد أننى ازددت تشبثا بعنقه . حتى خارت قواه . . فوضعت ركبتى فوق صدره وضغطت بكل قوتى حتى كدت أزهق روحه . . لولا أن خف خالى سيبا وبعض المتفرجين لنجدته . فرفعونى عنه .

وكانت مركبة كليوباترا قد وصلت فى تلك اللحظة . تتقدمها الفيلة ، وتسير خلفها الأسود . فانبعثت واقفا على قدمى .

ونظرت الى المركبة ، وأنا ألهث اعياء . وقد أصبت بجروح عديدة فى جسمى ، وتلوثت ثيابى البيضاء بدم الزنجى . . فرأيت كليوباترا لأول مرة ، وهى فى مركبتها المصنوعة من خالص الذهب ، يجرها جوادان ناصعا البياض

كانت تتوسط المركبة ، وعلى جانبيها جاريتان حسناوان . فى ثياب يونانية وهما تروحان لمولاتهما بمراوح مرصعة باللآلىء .. وقد وضعت كليوباترا على رأسها غطاء ايزيس ، وهو ذو قرنين من ذهب بينهما قرص القمر المستدير . ورمز عرش أوزوريس . . وقد التف حوله الثعبان الذهبى الملكى . . وتحت هذا الغطاء القلنسوة الذهبية . . والجناحان الزرقاوان . . المطعمان بالميناء . ورأس العقاب بعينيه المتلألئتين .. وأما جدائل شعرها الطويل فكانت تتماوج من تحت تاجها . حتى قدميها . وحول عنقها المستدير

(طوق) من الذهب مرصع بالجواهر .. وحول ذراعيها ومعصميها أساور من ذهب مرصعة بالياقوت والمرجان . وتحمل فى إحدى يديها صليب الحياة المقدس المصنوع من البلور ، وفى الأخرى صولجان الملك الذهبى .

كانت عارية الصدر .. وأما ثوبها فكان يلمع كالصدف . وقد نثرت عليه اللآلىء النادرة . وتحت هـذا الثوب قميص مذهب أخفى جزء منه بوشاح من الحرير الموشى .. يتدلى إلى نعلها . وقد ربطا بلآلىء كبيرة .

ورفعت عينى إلى وجهها . ذلك الوجه الذى أسر قيصر .. وجر المصائب على مصر . وقدر عليه أن يقدم صولجان العالم لاكتافيوس .

وانعمت النظر الى تقاطيع الوجه الأغريقى الساحر . إلى الذقن المستديرة والشفتين الرقيقتين . والانف الدقيق . . والأذنين الصـغيرتين . والجبين العريض . والشعر الأسود اللامع . . والحاجبين المقوسـين ، والأهداب الطويلة المقوسة . والقوام الممشوق . والعينين المتألقتين ، اللتين يخيل الى الناظر اليهما أنهما تحجبان تحت جفنيهما أسراراً . .

كانت (شـعلة متوقدة) . لامثيل لها بين النساء . ولا أخالنى بالرغم من هذا الوصف الدقيق قد أتيت على كل ما كانت عليه من جمال وجلال . وحتى تلك اللحظة فقط أدركت أن قوة جاذبيتها وجمالها ليست كامنة فى ملامحها الفتاكة . بل فى ذلك المجد الذى يحيط بها ويتجلى من خلال هيكلها .

لقد جمعت كليوباترا كل سحر منح للمرأة . كما وهبت عقلا راجحا . . وحـكمة عظيمة . ولـكنها كانت موفورة الدهاء والخبث لاتخشى شيئا ولا تقيم وزنا لشريعة أو قانون . فاتخـذت من الممالك والبلدان مسارح للهوها وعبثها . وروت حقل رغباتها واهوائها بدماء الرجال الزكية ، وهى تبتسم .

تركزت كل هذه الرغبات والاهواء فى صدرها . فابرزت الى العالم تلك المرأة الجياشة العواطف . الملتهبة الحواس . التى سميت كليوبترا ، فلم يتمكن رجل من استمالتها أو قهرها . وما كان أشق على المرء حين يراها أن ينساها أو يسلوها .

لقد كونتها الطبيعة عظيمة (كالصاعقة) . قوية السحر (كلمعان البرق)

فتاكة (كالوباء) ومع كل هذا كان لها قلب ينبض بالحرارة والحياة

التقت عيناى بعينيها لحظة عندما انحنت فى مقعدها إلى الأمام لترى مصدر الجلبة .. كانت عيناها شبه مغلقتين بادىء ذى بدء . . ولكنهما لم تلبثا أن استيقظتا ، وخيل كأن صفاءهما قد تعكر ، كما يتعكر صفاء البحر إذا اضطربت مياهه .. فانبعثت من عينيها نظرة غضب صارم ، لم يلبث أن استحال إلى دهشة شديدة حين وقع بصرها على النوبى الجبار ، وهو ممدد فوق الأرض ، يخور كالثور .

والتفتت كليوباترا إلى حراسها . . والقت عليهم بعض الأوامر . . فاقبلوا نحوى .. وقادونى اليها . فحبس الجميع أنفاسهم وهم يتوقعون هلاكى .

ووقفت أمامها معقود الساعدين فوق صدرى . . ولا شك أننى أخذت بهذا الجمال . ولكننى أحسست بالبغض يطغى على كل مشاعرى . نعم نقمت عليها لاجترائها على ارتداء ثياب ايزيس .. واغتصابها عرشى . . وتبذيرها أموال وطنى وثروته فى شراء المركبات الذهبية . والروائح العطرية .

وصعدتنى كليوباترا بنظرة فاحصة . . ثم قالت فى صوت متزن . . باللغة المصرية التى تعلمتها من دون ملوك الاغريق :

— من أنت ؟ وماذا تكون ايها المصرى ؟ وكيف تجرأت على ضرب عبدى اثناء سيرى خلال مدينتى !

فأجبتها فى ثبات :

— أنا هارما كيس . . هارما كيس الفلكى ، ربيب الكاهن الأعظم لمعبد ابوثيس ، وحاكم المدينة . جئت إلى هنا سعيا وراء عمل . وقد ضربت عبدك أيتها الملكة لأنه اعتدى على تلك المرأة لغير ما سبب . . ولك أن تسألى من شهدوا قسوته يا ملكة مصر . .

فقالت بصوت هادىء :

— هارما كيس ؟! لهذا الاسم وقع عظيم فى السمع . . كما أن لمنظرك وقع عظيم فى النفس .

وطلبت الى جندى رأى الحادث أن يقص عليها ماحدث . . ففعل ومن

ثم تحولت كليوباترا إلى الجارية التى كانت تروح لها . . وتحدثت اليها . .
وكانت فتاة ذات شعر مجعد . . وعينين سوداوين . . وجمال ملحوظ .

وأجابتها الجارية على سؤلها . . فأمرت كليوباترا أن يأتوها بالزنجى . .
فجىء به ، ومعه المرأة التى ضربها . .

وقالت كليوباترا بصوتها الهادىء الرزين :

— أيها النذل ! كيف سولت لك نفسك أن تعتدى على امرأة ضعيفة .
وماذا تقول ايهـا الجبان فى موقفك المزرى من هذا الشاب الذى ألقى عليك
درسا من جنس عملك

انظر ! ! سألقنك بدورى درساً لا تنساه . . أيها الحراس . . ابتروا يده
اليمنى . .

واعتدلت فى مجلسها . . وبدا الفتور على سحنتها . .

وانقض الجنود على الزنجى ، فاعتقلوه ، وبتروا يده اليمنى بالسيف . .
ثم حملوه بعيداً وهو يئن ويتوجع

واستأنف الموكب سـيره بعد ذلك . . وقد لاحظت أن حاملة المروحة
التفتت نحوى . . وابتسمت . ثم أحنت رأسها دليلا على الرضى . . .
فحرت فى تأويل هذه الاشارة ، ولم أدر ماتريد . .

وهتف لى الشعب . . وقال بعضهم أننى سأحتل منصب الفلكى فى قصر الملكة عما قريب . . ولكن سرعان ماجذبنى خالى سيبا من ذراعى . . . وراح يؤنبنى على تهورى واندفاعى . بيد أننا لم نكد ندخل الى غرفته حتى عانقنى جذلا . . وهنأنى بانتصارى على المارد الجبار

الفصل الثانى

غضبة سيبا

وفى اثناء تناولنا العشاء فى الليلة عينها ، طرق باب المنزل . . ولما فتح نفذت منه فتاة تتشح برداء سابغ .. يشملها من قمة رأسها الى أخمص قدمها . فلا يكاد الانسان يتميز ملامح وجهها .

ونهض خالى لاستقبال القادمة . فنطقت الفتاة بالكلمة السرية . وقالت بصوت عذب حنون:

— لقد جئت يا ابى ، برغم ما لا قيت من عناء فى الافلات من الحفلة التى يقيمونها الآن فى القصر . ولكننى قلت للملكة إننى أشعر بصداع ، فأذنت لى بالانصراف

فقال سيبا :

— حسناً . اخلعى رداءك فأنت هنا فى أمان

فخلعت الفتاة رداءها بضجر . فاذا بى وجها لوجه أمام الفتاة التى كانت تروح لكليوباترا فى المركبة . وهى حسناء الوجه . ترتدى ثياب الاغريق الانيقة . معتدلة القوام . بينما كانت جدائل شعرها معصوبة برباط من ذهب وأما وجنتاها فكانتا متوردتين كالزهرة

وعبس خالى عندما وقع بصره على ثيابها .. وسألها بخشونة :

— لماذا جئت فى هده الثياب يا شارميون ؟ ألا تلائمك ثياب أمهاتك ؟ ليس هذا وقت اظهار المحاسن النسوية . ولا مكانه ، إنك لم تأت إلى هنا للتسلط بل للاذعان

فأجابت الفتاة بصوت رقيق :

— لا . لا تغضب يا أبى . ربما تعلم أن التى أخدمها لا تميل إلى لباسنا المصرى . لأنه قديم على حد قولها . . وارتدائى إياه يثير حولى الظنون والريب . ثم إننى جئت على جناح السرعة فلم أستطع استبدال ثيابى

وفيما كانت الفتاة تتحدث . لاحظت أنها تراقبنى خلسة من خلال أهدابها الطويلة .

وقال خالى بصرامة . وهو يطيل النظر إلىّ :

— حسناً . حسناً . . ولكن تذكرى أبداً قسمك أيتها الفتاة ، والقضية التى وهبت نفسك لخدمتها . وليكن معلوما إنك إن نكثت عهدنا فسيحل بك انتقامنا . وانتقام الآلهة ! !

وارتفع صوته حتى بلغ مرتبة الصراخ . واستطرد :

— إنك خلقت . . وأنشئت لهذه المهمة يا شارميون . ولأجل هذا الهدف تعلمت . ووضعت فى المكان الذى تشغلينه الآن . فاستميلى تلك البغى الفاجرة التى تتظاهرين بخدمتها . . وحذار أن تدعى أبهة القصر وفخامته . . يصرفانك عن واجبك المقدس . أو يفسدان نقاء قلبك

واتقدت عيناه . . وخيل كأن جسمه الضئيل قد نما بجلال وعظمة . . وتقدم من الفتاة . . ورفع أصبعه فى وجهها متوعدا . ثم أردف :

— شارميون . . اعلمى اننى تساورنى الريبة فى أمرك أحيانا . . ومنذ ليلتين رأيتك فى منامى واقفة فى صحراء . تضحكين . . ثم رفعت يدك الى السماء ، فسقطت منها قطرات من الدم ، غطت أرض مصر ، فمن أين هذا الحلم أيتها الفتاة وما معناه ؟ ليس لدى ما آخذه عليك فى الوقت الحاضر ، ولكن حذار ، وإلا قطعت أوصالك هذه التى تعجبين بها ، ومثلت بجسدك برغم حبى لك ، وانتمائك الىّ دماً ولحماً

وكف عن الكلام . . وخمدت ثورة غضبه ، ولكننى أدركت لاول مرة مدى حماسة هذا الرجل النحيل ، ومبلغ توقد ذهنه ! وتشبثه بالغرض الذى يسعى اليه

وأما الفتاة فقد انكمشت مذعورة . . ثم غطت وجهها بيديها . . وانتحبت

ثم قالت :

— لا . . لاتتكلم هكذا يا أبى . . إذ أى شىء فعلت حتى استحققت غضبك ؟ لست أدرى شيئا عن حلمك هذا ، لكن .. ألم أنفذ كل شىء طبقا لرغباتك ! ألم أحافظ على القسم الرهيب ؟ ألم ألعب دور الجاسوسة ، وأطلعك على كل شىء ؟ ألم استميل قلب الملكة الى ، حتى باتت تحبنى ، ولا تمسك عنى شيئا ، كما استملت قلوب حاشيتها . ؟ فلم التهديد ، والوعيد ؟ !

وانتحبت مرة أخرى ، فزادها البكاء جمالا وملاحة

فقال خالى :

— كفى .. كفى .. لقد قبلت ماقلت .. فكونى على حذر . . ولا تأتى الينا مرة أخرى بهذه الثياب الخليعة الماجنة .. انظرى أيتها الفتاة .. هوذا ابن عمك .. ومليكك . .

فكفت الفتاة عن البكاء .. وجففت عينيها .. وطأطأت رأسها أمامى ثم قالت : أكبر ظنى انك ابن عمى المحبوب الأمير هارما كيس . .

فقلت وقد اصطبغت وجنتاى بحمرة الخجل .. فما حدثت فتاة لها مثل هذا الجمال الساحر من قبل :

— نعم ياابنة عمى .. هل كنت أنت رفيقة كليوباترا اليوم فى المركبة ؟

فلمعت عيناها ببريق الغبطة . . وتلاعبت على شفتيها ابتسامة عذبة . . وأجابت :

— نعم . . كانت شجاعة منك أن تقدم على مقاتلة ذلك الوحش الضارى . وقد شاهدت المعركة . . ومع أننى لم أكن أعرفك . فقد أشفقت على بطل مثلك أن يصيبه أذى . فأوعزت إلى كليوباترا أن تأمر حراسها بستر يده . . ولو قد علمت حقيقة نسبك لأوعزت اليها بقتله .

وابتسمت . . فتدخل خالى فى الحديث قائلا :

— كفى . . كفى . . ان وقتنا لايتسع لمثل هذا الحديث . فقصى مالديك من أنباء ياشارميون . وانصرفى .

فتبدل حال الفتاة . . ووضعت يديها فوق صدرها . وقالت :

— ليصغ فرعون إلى جاريته . انني ابنة عم فرعون شقيق أبيك ، الذى مات منذ أمد بعيد . فدم ملوك مصر اذن يجرى فى عروقى . وأنا أيضا ممن يعتنقون الدين القديم . ويمقتون هؤلاء اليونانيين . ولا غاية لى أعظم من أن أراك جالسا على عرش أجدادك . وقد نبذت مكانتى السامية . وقبلت أن أكون خادمة لكليوباترا ، رغبة منى فى تحقيق الغرض السامى الذى وهبت له نفسى . واستطعت أن أمهد لك الطريق الذى يؤدى الى العرش .

تقضى المؤامرة المدبرة بان تدخل القصر فى الوقت المناسب لتقف على طرقاته ، وأسراره . وأن تكون لك الرئاسة على الخصيان والقواد . . وقد تمكنت من اغراء البعض ، واستمالتهم إلىّ . فاذا ماأعددنا التدابير الخارجية . وحان الوقت ، قتلت كليوباترا . ثم انتهزت فرصة الاضطراب الذى سيسود القصر وقتئذ ، وفتحت الابواب بمساعدتى . فيدخل اليه أنصارنا ومؤازرونا . ويفتكون بالجنود الموالين لنا . ومن ثم تستولى على (بروشيم) فاذا تم ذلك بنجاح سقطت الاسكندرية كلها .

وفى ذات الوقت يهب الذين أقسموا لك يمين الولاء فى جميع أنحاء مصر . ليخنقوا كل ما من شأنه أن يتعارض مع هذا الولاء . ولن تمضى عشرة أيام على قتل كليوباترا حتى تصبح فرعون مصر

تلك هى الخطة التى استقر الرأى عليها . والتى لأ دخر وسعا فى انفاذها على الوجه الأكمل .

دهشت ايما دهشة . . نعم أدهشنى فى الواقع أن تكون لفتاة لا تجاوز العشرين من عمرها تلك الحنكة والمقدرة على تدبير مؤامرة بمثل هذه الدقة . فما كان المشروع الا مشروعها فى الأصل . . ولكننى لم أكن أعرف شارميون حق المعرفة فى تلك الأثناء .

وأخيراً قلت مأخوذا :

— سمعت قصتك يا ابنة العم . ولكن اخبرينى كيف أتمكن من دخول القصر ؟

— ان الأمر هين يا ابن العم . فلكليوباترا ولع عظيم برؤية الرجال

ومعذرة ياسيدى ان قلت إنك جميل الطلعة ، والقوام . وقد لاحظت لهفتها على معرفة مقرك . إذ أيقنت ان من كاد يقضى على زنجى جبار وهو أعزل من السلاح لاريب يكون عالما متضلعا فى أسرار النجوم . وحين اعادت على سؤالها عنك ، قلت لها إننى سأتحرى أمرك . . فاصغ الى أيها الأمير الجليل : من عادة كليوباترا أن تنام وقت الظهر فى غرفتها الداخلية المطلة على الحديقة المجاورة للميناء . . وسأنتظرك غدا فى هذا الميعاد عند أبواب القصر . . فعليك أن تطلب مقابلة السيدة شارميون . . وسأحاول أن أجمعك بكليوباترا على انفراد بعد استيقاظها . وأما الباقى فمن شأنك وحدك . .

ان كليوباترا مولعة بالعلوم السحرية . وطالما رأيتها تقضى لياليها مسهدة . ترقب النجوم . . وهى تدعى أنها تقرأ اسرارها . . وقد رفضت أخيرا الطبيب ديوسكوريدس من خدمتها . . إذ شاء تغفيله وقصر نظره أن يتنبأ ، ان كازيوس سيهزم مارك أنطونى فارسلت كليوباترا إلى القائد النيوس ، تأمره بان يضم الفرق التى أرسلتها الى سوريا لمساعدة مارك أنطونى ، إلى جيش كازيوس ، الذى انتصر طبقا لنبوءة ديوسكوريدس . . ولكن سرعان مادارت الدائرة على كازيوس ، وكذبت نبوءة المنجم . فهزم انطونى كازيوس ثم انتصر على بروتس . . فثارت ثائرة كليوباترا . وطردت المنجم شر طردة ومازال مكانه شاغراً . وهذا المكان هو الذى أعددته لك أيها الأمير . . فاذا ماحصلت عليه . . فسنعمل معا فى الخفاء لمصلحه مصر . إلى أن تحين ساعة الخلاص . فتهدم بطعنة من خنجرك صرح هـذا العرش الذى بناه الأغريق ومن ثم ترفرف الملكية بجناحيها على مصر العظيمة من جديد .

وكفت الفتاه عن الكلام . . فحدقت فى وجهها بذهول وعجب .

وقال خالى : نعم . . نعم . يسرنى دائما أن أراك على هذه الحال . . فانت الآن شارميون التى عرفتها . وانشأتها ، لاجارية البلاط التى أبغضها وأحقد عليها . والآن انصرفى الى عملك فقد طالت غيبتك .

لبست الفتاه رداءها فى صمت . وقبلت يدى باحترام . وانصرفت

وقال خالى :

ــ انها فتاة غريبة الاطوار . بل من أغرب النساء اللائى يرتاب الانسان في إخلاصهن .

ــ لقد عاملتها بشىء من القسوة والصرامة يا خالى .

ــ نعم . ولكن لكل سبب مسبب . ومهما يكن . فعليك بالحذر الشديد منها . فهى فتاة جموحة وأخشى أن تنحرف عن طريقنا . انها متوقدة الذهن غيورة . تحب قضيتنا . ولكنى أرجو ألا تتعارض قضيتنا مع رغباتها الخاصة . وأنا فى الواقع لم أفعل أكثر من إخافتها وتهديدها ، خشية أن يفلت قيادها من يدى . إن حياتنا فى قبضة هذه الفتاة يا هارما كيس . والويل لنا يوم تدور خيانتنا بخلدها .

الفصل الثالث

هارما كيس فى القصر

وفى اليوم التالى ، ارتديت معطفا طويلا فضفاضا كذلك الذى يرتديه السحرة والمنجمون . ووضعت على رأسى قلنسوة رسمت فوقها أشكال النجوم بينا وضعت فى حزامى محبرة للألوان ، وحزمة من أوراق البردى . سجلت فوقها رموز سرية وتعاويذ . وأمسكت فى يدى عصا من الابنوس طرفها من العاج . كتلك التى يحملها الكهنة والسحرة

وانطلقت . وبرفقتى خالى سيبا . إلى القصر .

واجتزنا الباب الاكبر المصنوع من الرخام . ثم نفذنا من الابواب المصنوعة من البرنز . والتى تقع من خلفها ثكنات الحراس .

واستأذن خالى . ودعا لى بالنجاح والتوفيق .

وتقدمت من الباب . فاعترضنى بعض الحراس . وسألونى بغلظة عن اسمى . والغرض من قدومى . فاجبتهم بأن اسمى هارما كيس الفلكى . وانني جئت لمقابلة السيدة شارميون وصيفة الملكة .

وكاد الرجل يتنحى عن طريقى ، لولا أن أقبل فى تلك اللحظة ضابط رومانى اسمه يوليوس . ورفض أن يسمح لى بالدخول . .

وكان هذا الضابط بدين الجسم . . له وجه يشبه وجه النساء . . ترتعش يداه من افراطه فى الشراب . .

وما أن وقع بصره علىّ حتى عرفني . . وقال يخاطب زميله باللاتينية :

— انه الشاب الذى هزم النوبى أمس

ثم تحول الىّ وقال :

— لماذا تريد مقابلة السيدة شارميون .؟ لا . . لا . . لن اسمح لك بذلك فانى أعبدها . . بل كلنا يعبدها . . فهل تعتقد أن نسمح لشاب له مثل جمالك أن يعكر صفونا ؟ ! لا . . لا . . وحق المعبود (بخيوس) لن اسمح لك بالدخول .- وأما إذا أرادت هى مقابلتك فلتأت اليك . .

فقلت بلهجة التوسل . . ولكنها لاتخلو من الكبرياء :

— اذن أرجو أن تبعث بمن ينبئها بقدومى .

فبدت سماء الاشمئزاز على وجه الضابط . . وقال رفيقه :

— هو منجم كما يدعى . . فدعه إذن يتنبأ . . أويطلعنا على شىء من الاعيبه السحرية . .

وأيده الباقون بحرارة.. وقال أحدهم:

— نعم . . دعوه يظهر مهارته السحرية .. فاذا كان حقاً ساحراً ففى استطاعته أن يجتاز الأبواب رغم انف بوليوس . .

فلاحت لى بارقة أمل .. فقلت لرفيق بوليوس :

— على رسلكم ياسادة . . هل تريد أيها السيد أن أحدق النظر فى عينيك .. فربما استطعت أن اقرأ خفاياك ؟

— ليكن .. بودى لوكانت شارميون الفاتنة هنا ..

فامسكت بيده .. وحملقت فى عينيه .. ثم قلت :

— أرى ساحة قتال . . والليل ينشر جناحيه على الكون .. ثم .. ماهذا ؟ ! أرى اشلاء القتلى مبعثرة فى الساحة ، ومن بينها جثتك ياسيدى ينهش فيها وحش ضار .. ستموت ايها السيد المبجل بحد السيف قبل أن ينصرم عام واحد ..

ففر لون الحارس . . وصاح فى وجهى مزمجراً . . ثم مضى عنى . . وهو يتمتم بكلام غير مفهوم . . وتحولت إلى يوليوس . . وقلت له :

— انك تمنعنى من الدخول . . ولـكننى سأدخل رغم انفك . وسأجرك ورائى . . تقدم أيها السيد وحدق فى طرف هذه العصا .

فامتثل بعد الحاح زملائه . . وراح يحدق فى طرف العصا . . حتى فقدت عيناه قوة الأبصار . وعندئذ سحبت العصا فجأة . ثم وضعت وجهى مكانها . . ورحت اتحول . وأدور . وهو يدور ورائى . ووجهه الجامد يكاد يلتصق بوجهى . .

وجعلت أتقهقر . وهو يتبعنى . . حتى اجتزت الأبواب . ثم رفعت رأسى فجأة فسقط فوق الأرض .

واسرع بالنهوض ، وهو يمر بيديه فوق وجهه . وقد ارتسمت عليه سيماء البلاهة . .

فقلت : هل اقتنعت أيها الضابط النبيل ؟ ! هأنذا قد اجتزت الأبواب . . فهل يقنعك ذلك بمهارتى السحرية ؟ !

وقبل أن يتمكن الضابط من الاجابة . . أقبلت شارميون فى الطريق المرصوف بالرخام ، يتبعها زنجى مسلح . وكانت تسير بخطى وئيدة متزنة . وقد شبكت يديها خلف ظهرها .

وأفسح لهـا الجنود والضبـاط السبيل .. وأحنوا رؤوسهم احتراما .. اذ كانت ، كما علمت ، تلي كليوباترا سلطة ونفوذا .

وتظاهرت الفتاة بأنها لم ترني .. وقالت تخاطب جندي اسمه برينوس :

— لم هذه الجلبة يا برينوس ! الا تعلم أن الملكة نائمة الآن ..

فقال باستكانة : نعم يا سيدتي . . ولكن هذا الساحر (وأشار الي) اتى عملا خارقا . وقص عليها ما فعلته مع يوليوس . وأردف :

— ثم إنه يقول إن لديه مهمة هامة جاء لمقابلتك بشأنها .

فتحولت شارميون . ونظرت إلي بدون اكتراث . ثم قالت :

— آه ! نعم . تذكرت . سترى الملكة حيله وألاعيبه . ولكن اذا لم يكن في استطاعته أن يفعل أكثر من اجتذاب سكير (ونظرت الى يوليوس باحتقار) فخير له أن يعود من حيث أتى .

وابتسمت . . واومأت إلى أن أتبعها .

انطلقنا في طريق مرصوف بالرخام. واجتزنا الحديقة، بين صفين من تماثيل معبودات الوثنيين . . ثم نفذنا إلى رواق فاخر به أعمدة منحوتة على الطراز اليوناني . . ومن هذا الرواق انتقلنا إلى دهليز تتوسطه نافورة ينطلق منها الماء بهدوء . . ومن ثم عبرنا بابا صغيرا الى غرفة تعرف باسم (قاعة المرمر) وهي غرفة جميلة المنظر . . يستند سقفها على أعمـدة من الرخام الأسود . . وجميع جـدرانها من المرمر . . وقد نقشت فوقها قصص يونانيـة . . واما الأرض فكانت من الرخام الملون . وقد سطرت فوقها قصة غرام اله الحب ليسيش . . وعلى جانبيها صفت مقاعد من العاج والذهب .

وأمرت شارميون الزنجي المسلح بالبقاء عند باب الغرفـة . . ثم دخلنا منفردين . . فرأيت في الناحية المقابلة من الغرفة ستاراً كثيفا . . على جانبيه خصيان شاهران سيفيهما .

وهمست شارميون :

— شـد ما يؤلمني ياسيدي أن استقبلك هؤلاء الضباط الرومان بغلظـة وخشونة . . ولكنهم معذورون على كل حال . فهم كثيرو الهواجس .

والريبة . . والآن ابق هنا ريثما أذهب إلى مخدع كليوباترا . . وأعود .

ثم نفذت من بين الستائر . . وغابت هنيهة . . عادت بعدها على الأثر . . وقالت :

— هل تريد أن ترى أجمل امرأة فى العالم وهى نائمة .؟

فدهشت . . ولكنها أسرعت تقول :

— لا تخش شيئا . . فلو انها استيقظت لما فعلت شيئا . . . بل لعلها تضحك ملء شدقيها ، فقد أمرتنى أن أذهب بك اليها فى الحال سواء كانت نائمة أو مستيقظة . . انظر .. إن معى خاتمها الملكى .

واجتزنا الغرفة . . وبينا كنت أحاول المرور من خلال الستائر اعترض الخصيان سبيلى .. فعبست شارميون . . وأبرزت لهما الخاتم من صدرها . . فاحنيا رأسيهما . . وأفسحا لى السبيل .

ودخلنا مخدع كليوباترا .

كانت غرفة على جانب عظيم من الروعة والفخامة . . مزينة بأنواع مختلفة من الرخام والذهب والعاج . . والزهور واللآلىء .. وأثاثها يجل عن الوصف . . وتماثيلها من أروع آيات الفن .

وكانت كليوباترا مستلقية فوق سرير فاخر ، عليه غطاء من حرير رقيق لامع . . وشعرها الأسود المتماوج ينتشر من حولها . . وقد توسدت أحد ذراعيها ، بينما تركت الآخر ملقى فى استرخاء . . وافترت شفتاها الجميلتان المفترقتان . . عن ابتسامة عذبة رقيقة . . وكشفتا عن صفين من أسنان كاللؤلؤ المنظوم .

جمدت فى مكانى مبهوتا حائراً . . . ولبثت برهة مبهوراً من ذلك الجمال النادر .. وخيل الىّ فى تلك اللحظة أنه من القسوة أن أقتل هذه المخلوقة الجميلة . .

أدرت بصرى فجأة . . فألفيت شارميون ترقبنى بعينيها النافذتين . . . وكأنها تريد أن تقرأ خواطرى .. ولا ريب أن شيئا منها قد انعكست آثاره على صفحة وجهى . . فاستطاعت أن تقرأها بسهولة إذ همست :

— إنه أمر مؤلم ولا ريب . . أليس كذلك ؟ انك رجل قبل كل شيء يا هارما كيس . . وأحسب أنك ستحتاج الى مجهود جبار لتستطيع الثبات الى النهاية .

فوجمت . . ولم أحر جوابا .

ولمست شارميون ذراعي . . وأومأت نحو الملكة . . فأدرت بصرى ، ونظرت إلى كليوباترا . .

وشد ماراعني منظرها . .

كانت قد شبكت يديها . . . وارتسمت على وجهها أمارات الذعر ، والفزع . . وكانت تلهث . . ثم لم تلبث أن رفعت ذراعها . كأنما تريد أن تدفع أذى يهددها . .

وتأوهت . . ثم استوت جالسة فى فراشها . . وفتحت عينيها النجلاوين وكانتا سوداوين كقطعة من الليل البهيم . . ولكن سرعان ما تغير لونهما ، فاستحال أزرق كالسماء .

وقالت :

— قيصرون ؟ أين ابنى قيصرون ؟ إذن كنت أحلم ؟ ! لقد رأيت فى المنام أن يوليوس قيصر — يوليوس الذى مات — جاءنى ، وقد لف وجهه بوشاح ملوث بالدم .. ثم طوق ابنه بذراعيه .. وانطلق به . . ثم رأيت أننى مت — مت من الألم ، وكثرة مانزف من دمى — وأن رجلا لم استطع رؤية وجهه كان يسخر منى عند موتى .

آه . ! من يكون هذا الرجل ؟ « مشيرة الىّ »

فأجابت شارميون :

— اطمئنى يا سيدتى . إنه هارما كيس المصرى الساحر الذى امرتنى أن آتيك به

— آه ! الساحر ؟ ! هارما كيس الذى قهر المارد النوبى ؟ ! لقد تذكرت الآن . على الرحب والسعة . اخبرنى أيها السيد الساحر . هل تستطيع أن تفسر هذا الحلم ؟ ! لو وفقت فى تفسيره . فسأدلك على طريق

للثروة والسؤدد أعظم من أى طريق آخر تشير اليه نجومك .

فأجبت :

— يخيل انى جئت فى الوقت الملائم أيتها الملكة العظيمة . فأنا ضليع فى تفسير الاحلام . ما النسوم الاسلم يرتقيه الذين انتقلوا إلى أحضان اوزوريس إلى مركز شعورنا الحى من وقت لآخره ويرددون صدى ما فى (قاعة الحق) التى يقيمون بها . باشارات ورموز . وكلمات نستطيع نحن الاحياء ان نفسرها عما أوتينا من علم وحكمة

تقولين انك رأيت قيصر العظيم فى ثيابه الملطخة بالدماء . وقد طوق الامير قيصرون بذراعيه . ثم حمله . وانطلق به . إذن اصغى إلىّ

إن روح قيصر اتت حقا اليك فى المنام من (امنتى) . والمقصود باحتضانه الطفل قيصرون أن يوحى بأنه هو الذى فقد عظمته وحبه دون سواه . وأما تظاهره بأخذ الطفل . فمعناه أنه يريد أن ينطلق به من مصر ليتسوج فى (الكابيتول) امبراطورا على روما . وسيدا على جميع الممالك . وهذا هو كل شىء أيتها الملكة .

كنت أعلم أن تفسيرى على شىء كثير من الغموض والابهام . وقد تعمدت ذلك . إذ ليس من المستحسن أن يتنبأ الانسان بشر للملوك .

ونهضت كليوباترا من مكانها . ثم جلست على حافة الفراش . وراحت تتفرس فى وجهى . وهى تعبث باطراف حزامها المرصع باللآلىء ..

ثم قالت :

— إنك أعظم ساحر التقيت به . فقد أمكنك أن تقرأ خفايا قلبي . كما لو كنت تقرأ فى كتاب مفتوح .

ثم شبكت يديها خلف رأسها . واضطجعت . ونظرت إلىّ من خلال عينيها شبه المغلقتين . ثم قالت :

— هلم أيها الساحر المصرى . أرنا سحرك . فانى أريد التسرية عن نفسى بعد أن سئمت مقابلة رسل العبرانيين . ماذا تستطيع أن تفعل ؟ أقسم بحق

المعبود (سيرابيس) أن أهبك منصبا فى القصر . وأملاكا إضافية تدر عليك مالا وفيراً إذا برهنت على مهارة فى السحر مثل مهارتك فى التنبؤ .

فأجبت :

ـــ إن جميع أساليبى قديمة مع الأسف . . ولكن هناك بعض أعمال سرية نادرة الاستخدام . وربما لم ترها من قبل . هل تخشين رؤية السحر ؟

ـــ لا أخشى شيئاً . فاصنع ما شئت . تعالى يا شارميون واجلسى بجانبى لكن لا . . . أين جميع الجوارى . ؟ أين إيراس ومريرا . ؟ انهما يحبان السحر أيضاً .

فأسرعت قائلا :

ـــ لا . إن السحر لا يفلح فى حضرة كثيرين . . والآن . انظرى

والقيت عصاى فوق الرخام .. ثم تلوت تعويذتى سراً . . فمكثت العصا مكانها هنيهة . ثم جعلت تتلوى ببطء . بينما كنت مستمراً فى التلاوة . ولم تلبث أن استحالت إلى حية . أخذت تزحف وتحدث فحيحاً مزعجاً

فصفقت كليوباترا طربا . وصاحت :

ـــ تباً لك ! تباً لك ! أتسمى هذا سحراً ؟ إنها العوبة عتيقة يستطيع أى ساحر من الجالسين على قارعة الطريق أن يأتى بها . لقد رأيتها من قبل عشرين مرة

فقلت :

ـــ مهلا أيتها الملكة . فأنت لم ترى كل شىء بعد

وبينما كنت أتكلم . إذا بالحية تتجزأ إلى قطع صغيرة . تولد من كل منها حية جديدة . وتجزأت هذه الحيات بدورها ، وخرجت منها حيات أخرى تسعى . وهكذا دواليك ، حتى خيل إلى أعينهما المأخوذة أن المكان قد استحال إلى جحر للافاعى . وقد أخذت تزحف . وتصفر . وتلتف حول نفسها . .

وأتيت باشارة من يدى . فأحاطت الحيات بى . ثم أخذت تزحف نحوى ببطء وتلتف حوا جسدى ، وذراعى ! إلا وجهى إلى أن بدوت وكأننى

أرتدى ثوبا من الحيات .

وصرخت شارميون فزعا . وأخفت وجهها فى ثوب الملكة

وهتفت الملكة : كفى أيها الساحر . لقد حيرنا سحرك

فحركت ذراعىّ .. فاختفت الحيات . وإذا بعصاى ملقاة عند قدمى .

وتبادلت الملكة ووصيفتها نظرة دهش . فالتقطت عصاى . وواجهتهما وأنا معقود الذراعين . وقلت بخضوع :

— هل اقتنعت الملكة باعمالى المتواضعة ؟ .

— نعم اقتنعت أيها الساحر المصرى . انك جئتنى بعالم أره من قبل أو اسمع به. لقد عينتك منذ الآن فى حاشيتى . وخولت لك حق الدخول على الملكة . أمن أعمال سحرية أخرى من هذا القبيل ؟

— نعم أيها الملكة . لو تكرمت باسدال الستائر ، أريتك شيئا آخر

فاسدلت شارميون الستائر . وأظلمت الغرفة .

وتقدمت من كليوباترا .. ووقفت بجانبها . ثم أشرت بعصاى الى البقعة التى كنت أقف فيها من قبل . وقلت :

— انظرى هناك ، ترى ما تفكرين فيه .

وساد الصمت . . وراحت المرأتان تحدقان إلى البقعة الخالية بخوف وانزعاج . وسرعان ماتجمعت سحابة أمامهما . وأخذت تتجسم ببطء ، إلى أن اتخذت شكل رجل ، جعل ينمو تارة ، ويتلاشى أخرى .

وعندئذ صرخت :

— أيها الخيال . اظهر بحق جميع الآلهة ! !

فظهر الشبح متجسما كاملا . . وكان على هيئة قيصر الملك . . وقد لف وشاحه حول وجهه . وثوبه ملطخ بدماء كانت تنبثق من جراح تملأ جسمه

ولوحت بعصاى فى الهواء . فاختفى الشبح فى الحال .

وتحولت الى المرأتين . وشد ماراعنى اصفرار وجه كليوباترا ، وأمارات الفزع التى كانت مرتسمة على وجهها .

وصاحت لاهثة :

— من أنت أيها الرجل ؟ من أنت حتى تستطيع أن تجلب الأموات من قبورها ؟ .

فضحكت . . وأجبت :

— ما انا الا ساحر الملكة ، ومنجمها . وخادمها المتواضع .. ألم يكن هذا ماتفكرين فيه أيتها الملكة ؟

فلم تجب . ولكنها نهضت واقفة . وزايلت الغرفة من باب آخر .

وتمالكت شارميون روعها . وسألتنى :

— كيف تفعل هذه الأشياء الخارقة أيها الملك هارماكيس ؟ اخبرنى فقد بت أهابك وأخشاك !

— لاتخافى ياشارميون . ولا تفكرى فيما رأيت .. فقد انتهت اللعبة .

فتهللت أساريرها . وقالت :

— لعمرى انك بارع كل البراعة . ولن تنصرم الليلة حتى يذيع صيتك فى أنحاء الاسكندرية . ويهابك الناس أكثر من أى رجل آخر . . هلم ياهارماكيس . واتبعنى

الفصل الرابع

أساليب شارميون

تلقيت فى اليوم التالى مرسوما بتعيينى كبيرا لمنجمى وسحرة القصر الملكى براتب كبير ، وآلت الىّ جميع الممتلكات الموقوفة على شاغل المنصب . وقد افردت لى غرفة خاصة فى القصر كنت أنطلق منها ليلا الى برج المرصد العالى حيث أرقب النجوم . وأسجل أسرارها .

وكانت كليوباترا فى تلك الفترة شديدة القلق من الناحية السياسية ولا تعلم كيف سينتهى النضال العظيم القائم بين أحزاب روما . . على أنها قررت فى النهاية أن تنضم إلى أقوى الأحزاب ، لتأمن على عرشها . ومن ثم كثرت استشاراتها لى . وكانت تطالبنى بتفسير أسرار النجوم والأفلاك . . فكنت أجيبها الى طلبها ، ولكن بطريقة تتفق وأغراضى الخاصة .

وكان انطونى ، أحد أعضاء الحكومة الثلاثية الرومانية ، المؤلفة منه ، ومن اكتافيوس وبيدوس ، موجوداً فى آسيا الصغرى . وقد بلغه أن كليوبترا تحقد على الحكومة الثلاثية .. وأنها لذلك أرسلت تأمر قائدها سرابيون بمساعدة كازيوس . . بيد أن كليوبترا انكرت هذه الحقائق أمامى وأمام غيرى .. وادعت أن سرابيون تصرف من تلقاء نفسه . وتغطية لموقفها استدعت القائد ، وقتلته لكى تبرىء نفسها أمام انطونى .

وسارت الأمور سيرا حسنا بعد ذلك ، وانصرفت كليوباترا وأعوانها الى مراقبة الحالة السياسية الخارجية . . وضربوا صفحا عن الشئون الداخلية فما كان يجول بخاطرهم أن ثمة فتنة تدبر .

وقد قوى حزبنا فى تلك الأثناء .. وبدأ المترددون ينضوون تحت لوائنا . ويقسمون بالقسم الرهيب الذى لا ينقض أن يخدموا مصر مابقى فيهم نفس

يتردد .

وكنت أغادر القصر بين الفينة والفينة . وانطلق لاستشارة خالى سيبـا فى منزله . وهنـاك كنت التقى بكثيرين من الأعيـان وكبار الـكهنة الذين انضموا إلى حزب مصر

وكثيرا ما التقيت بكليوباترا . . وطـالما أدهشتنى بغزارة علمها ، وتوقد ذهنهـا . وكانت تهـابنى بعض الشىء ، فسعت إلى خطب ودى . ولم تقتصر العلاقات بيننـا على مجرد الاستشارات الفلـكية . بل تعدتهـا إلى استشارات أخرى .

وأما شارميون فـكانت تتردد على غرفتى بكثرة . بل طالما رأيتها بجـانبى دون أن أدرى من أين جاءت ، ولا متى تذهب . وفى كثير من الأحايين كنت لا أراهـا على الاطلاق ، إلى أن يقع بصرى عليها فجأة .. فاذا بهـا تراقبنى من خلال أهدابها الطويلة .

وكانت الفتـاة شعلة من الحركة الدائمة . لا تتدخر وسعـا فى خدمتى ، وخدمة قضيتنا المقدسة .، فاذا ما شكرتهـا ، وأطريت اخلاصها وولاءها . . وقلت انني سأذكر لهـا ذلك الاخلاص فى الوقت الذى أخذ يقترب ، راحت تضرب الأرض بقدمها . وارتجفت شفتاها ، كطفل غاضب . ثم تقول اننى ، رغم غزارة علمى ، واتساع أفق حكمتى ، أجهل ان الخدمات التى يؤديهـا الانسان بدافع الحب ، لا تستحق الجزاء . فهى جزاء نفسها .

ولـكننى كنت أجهـل معنى قولها هذا ، ولا عجب ، فقد كنت خالى الذهن . لا تجول مثل هذه المسائل بخاطرى . وكيف كان يمـكن أن تخطر الغراميات ببالى . وانا ما سعيت الى كليوباترا إلا فى سبيل خدمة قضية بلادى . التى وهبت لها نفسى . فضلا عن يمين الاخلاص الذى أقسمته بين يدى الآلهة . . الا استجيب لدواعى الاغراء . والحب . ذلك الحب الذى كان مصدر بلائى وبلاء مصر ؟!

والواقع اننى كنت أفسر عباراتها فى مبدأ الأمر بان الخدمات التى تسديها لمصر التى تحبها انما تحمل فى طياتها لونا من الجزاء . فلا حاجة اذن لشكرى .

ولكن اذا اتفق وأطريت سمو روحها . ثارت وبكت بدموع الغضب المكبوت ، ثم تنصرف عنى ، وقد خلفتنى نهبة الحيرة والارتباك .

كنت أجهل ما يؤلمها . ولا أعلم أن هذه الفتاة قد وهبتنى قلبها . . نعم ، كنت اجهل ذلك . وانى لى أن اعرفه ، وأنا الذى كنت أعتبرها أداة لخدمة قضيتنا المشتركة المقدسة ؟

لم يستهونى جمالها . وحتى حين كانت تميل فوقى وتلفح أنفاسها وجهى لم اكن افكر فيها الا كما يفكر المرء فى جمال تمثال فنى .. صقلته يد بارعة !

والغريب أن حب المرأة كان سبيل انزلاقى إلى الوهدة التى طالما سخرت منها ، واستخففت بها !

لقد أحبتنى شارميون وكان حباً مشئوماً انتهى بها إلى خاتمة مفجعة

صفوة القول انى كنت أجهل كل شىء . . وظلت معاملتى لها لا تتعدى معاملة الأخ لأخته .. وسرت إلى جانبها نحو نهايتنا المشتركة

* * *

اتفق أن أقيمت فى القصر حفلة سمر ، فى الليلة السابقة لتلك التى حددناها للقيام بحركتنا الثورية . وكنت قد قابلت خالى سيبا ظهر هذا اليوم ، وكان مجتمعاً بقواد فرقة مؤلفة من خمسمائة رجل مسلح ، هم الذين أنيطت بهم مهاجمة القصر عند منتصف ليلة الغد ، بعد قتل كليوباترا . . والفتك بالجنود الرومانيين ، والغاليين . وكنت قد استملت الضابط يوليوس إلىّ .. وأرغمته ، تحت تأثير التهديد بقوتى السحرية ، على أن يعدنى بفتح باب القصر الصغير الواقع فى الجهة الشرقية عند تلقى الاشارة المتفق عليها

وكان من المتفق عليه أيضاً أن تحتشد القوات المسلحة فى كل مدينة من آبو إلى آنو . وأن تبث العيون والارصاد فى كل مكان . فى انتظار وصول الرسول الذى يحمل اليهم نبأ مصرع كليوباترا . واستيلاء هارما كيس ملك مصر على عرش أجداده . ومن ثم تقوم هذه الفرق بعملية التطهير اللازمة .

وهكذا أعد كل شىء .. وأصبحت قاب قوسين أو أدنى من النجاح ولكنى ، مع ذلك ، شعرت اثناء جلوسى فى المأدبة الملكية بحزن غامض

وبسحب شر مقبلة

انصرفت إلى النظر إلى كليوباترا وهى ترتشف كأس الخمر .. وتعبث بأصابعها فى أكاليل الزهر الذى زينت به جبينها .. وتذكرت الخنجر الذى اخفيه بين طيات ثوبى .. ذلك الخنجر الذى أقسمت أن اغيبه فى صدرها فانتفضت

وحاولت جاهداً أن أقنع نفسى بكراهيتها .. وأن ابتهج لموتها .. ولكنى فشلت .. وكانت شارميون تقف خلف مولاتها وهى تراقبنى كعادتها من بين اهدابها الطويلة ..

وانتفضت للمرة الثانية .. وراعنى أن الطخ عرشى بالدم .. وأن استعين بالشر لتطهير البلاد من الشر .. وكم تمنيت فى تلك اللحظة أن أكون فلاحا يزرع أرضه ، ويحصد منها حباً من الذهب فى موسم الحصاد ولكنى ، واأسفاه .. ان الحبة التى قضى القدر أن أبذرها هى حبة الموت فلا مفر اذن من أن احصد محصولها الأحمر ! !

ابتسمت كليوباترا بهدوء .. وقالت تخاطبنى :

— ماذا يؤلمك ياهارما كيس ؟ هل اختلطت سلاسل النجوم ، أو هل تفكر فى العوبة سحرية جديدة ؟! لماذا تستقبل مأدبتنا بهذا الاستقبال الفاتر ؟

- لا أيتها الملكة .. فقط اشعر بشىء من الخجل .. فخادم النجوم لايلاحظ نظرات المرأة التى لاتفيض عليه بأى لون من الوان السعادة

فتحولت كليوباترا إلىّ .. وأطالت النظر إلى عينى .. فاشتدت ضربات قلبى ..

واستطردت بصوت خافت لم يسمعه أحد غيرى وشارميون .

— لا تزه بنفسك ايها المصرى المتعجرف .. والا اغريتنى على أن اجرد سحرى فى وجه سحرك . . أية امرأة تستطيع أن تحتمل رؤية رجل يمر بها ، ويدفعها جانباً كما لوكانت شيئاً تافها ؟ انها اهانة ما بعدها اهانة وتمايلت فى مقعدها . . وضحكت ضحكة موسيقية رنانة . .

وحانت منى التفاتة إلى شارميون ، فرأيتها تعض على ناجذيها . . وقد

أجهم وجهها غضبا .

وأجبت الملكة ببرود ولكن بلباقة :

— معذرة ايتها الملكة . . ان النجوم ليكسف ضوؤها أمام ملكة السماء .

كنت أقصد القمر بقولي هذا . . فالقمر رمز الأم المقدسة ازيس ، التي أرادت كليوباترا منافستها . . وتسمت باسمها .

ولكن كليوباترا أخطأت فهمي .. وصفقت بيديها البضتين .. وهتفت :

— نعم القول ! هوذا فلكي متوقد الذهن . . استطاع أن يحي أحسن تحية . . لا . . مثل هذا العمل المدهش لا ينبغي أن يمر دون اهتمام وإلا غضبت الآلهة . . شارميون ، ارفعي ا كليل الزهور من فوق رأسي ، وضعيه على رأس هارما كيس العالم الكبير . . لابد من تتويجه (ملكا للحب) سواء رضي أو لم يرض

فامتثلت شارميون . . ووضعت الا كليل فوق رأسي ، وهي تبتسم . . وكان الا كليل معطرا . ولا يزال دافئا . . ولكن الفتاة وضعته بشيء من الخشونة ، آلمتني قليلا . . ولم تخف عني نظرة الغضب التي ومضت في عينيها رغم الابتسامة الخفيفة التي ارتسمت على شفتيها .

وهمست الفتاة في أذني قائلة : هذا فأل سيء ياهارما كيس

ثم انحنت أمامي .. وقالت باللغة اليونانية : هارما كيس ملك الحب !

فقهقهت كليوباترا ضاحكة . . وشربت نخبي بوصفي (ملك الحب) . واقتدى بها المدعوون جميعا . . فقد أعجبتهم الملحة .

وابتسمت . . وكانت ابتسامة فاترة كاذبة . . وعصف الغضب بين جنبي . . فقد تذكرت سمو مكانتي ، وآلمني أن أكون أضحوكة في عيني كليوباترا ، وحاشيتها . . وساءني أن تكون شارميون أعلاهم ضحكا . . فما كنت أعلم وقتئذ أن الضحك والحقد يكونان أحيانا ذلك النقاب الذي يسدله القلب ليخفي ضعفه عن الأعين النفاذة .

قالت شارميون عن ا كليل الزهور أنه (فأل سيء) .. والصواب ما

قالت . . فقد شاء القدر أن استبدل تاج مصر المزدوج ، با كليل من زهور الحب الذابلة . . وفراش فرعون العظيم بصدر امرأة خادعة . مستهترة . .

ملك الحب ! ! لقد توجونى ساخرين . . نعم . . فأنا ملك العار أيضاً . وقد تذكرت وا كليل الزهور فوق جبينى ، أنا هارماكيس فرعون مصر بحق الدم والنسب ، قاعات أبوثيس التى لاتبلى . وتتويجى غدا للمرة الثانية .

واستأذنت فى الانصراف . ثم انطلقت الى البرج لأرقب النجوم

وما أن احتوانى البرج ، حتى خلعت اكليل الزهور المشين . وقذفت به بين الآلات . ثم أخذت أتظاهر بمراقبة الكواكب والافلاك

وبعد قليل ، فتح الباب بهدوء . ونفذت شارميون الى البرج ، فى ثيابها البيضاء التى كانت ترتديها خلال المأدبة .

الفصل الخامس

هدية كليوباترا

هتفت من فورى :

— هاأنت قد جئت أخيراً ياشارميون ! لقد تأخرت كثيراً .

— نعم يامولاى . . لقد تعذر على الافلات . فهى الليلة متقلبة الأطوار ، كبحر ثائر . فلم أتمكن من ادراك نواياها وأغراضها .

— حسنا . . دعينا منها الآن . هل قابلت خالنا سيبا ؟

— نعم يامولاى .

— وهل أعطاك القائمة الأخيرة ؟

فأخرجتها من صدرها . . وقالت : نعم..هاهي قائمة الذين يجب قتلهم عقب قتل الملكة . وهي طويلة كما ترى

فقلت وأنا أفحصها : نعم . . هى قائمة طويلة كما تقولين . لكن الواجب هو الواجب . . أمن أنباء أخرى ؟

— اليك قائمة اخرى بأسماء الذين يعفى عنهم . وأما هذه القائمة فبأسماء

المدن التى لا شك فى ثورتها على أثر وصول الرسول الذى يحمل نبأ مصرع كليوباترا .

— حسناً . والآن . .

وأمسكت متردداً . ثم قلت : لنتكلم الآن فى مقتل كليوباترا . . هل أعددت كل شىء : وهل يحب أن يكون قتلها بيدى ؟

فأجابت الفتاة بلهجة تشوبها رنة الحقد :

— نعم يا سيدى . ولا ريب أن فرعون يسره أن يستخدم يده فى تحرير مصر . والقضاء على هذه البغى ، الخائنة

— كفى عن الكلام بهذه اللهجة أيتها الفتاة . . فلعلك لا تجهلين اننى مرغم على ركوب هذا المركب الخشن بدافع من الضرورة الملحة والعهود التى قطعتها على نفسى . ألا يمكن قتلها بالسم ؟ ألا يمكن اغراء أحد الخصيان على قتلها ؟ إن نفسى لتشمئز من ارتكاب هذه الجريمة المنكرة ، وشد ما يدهشنى أنك تتحدثين بمثل هذا الاستخفاف عن اغتيال المرأة التى أحبتك مهما كانت جرائمها وموبقاتها وقراً ثقيلا

— مرحى . مرحى . ما هذه الشفقة .. وهذا العطف . يا فرعون ؟ ! يخيل انك نسيت الغرض من طعنة خنجرك . اصغ إلى يا هارماكيس . . من واجبك أن تتم هذا العمل . . وتتمه وحدك . ولو كانت ذراعى قوية لما أحجمت عن اتمامه . أما قتلها بالسم فمستحيل . لأن كل قطرة تشربها . وكل لقمة تأكلها يتذوقها ثلاثة من الخدم قبلها . وهؤلاء لا يمكن اغراؤهم بحال . صحيح أن اثنين منهم أقسما لنا يمين الولاء . ولكن الثالث عنيد لم تلن قناته . ومن مصلحة قضيتنا المقدسة أن نقتله فى النهاية .

لقد استقر الرأى على أن تضرب ضربتك الحاسمة قبل منتصف ليلة الغد بساعتين .. إذ ترافقنى ، ومعنا خاتم الملك ، إلى غرفة الملكة الخارجية ،لان السفينة التى تحمل الأوامر إلى الجنود تبحر من الاسكندرية عند فجر الغد . وستقرأ مع كليوباترا أسرار النجوم . وأنتما منفردان . وذلك لرغبتها فى أن يبقى الأمر سراً . فعليك خلال انهماكك فى قراءة الأوراق أن تطعنها فى

ظهرها طعنة الحمام . . وحذار أن تخونك جنانك فى اللحظة الأخيرة . فاذا فرغت من عملك خذ الخاتم الملكى واخرج إلى حيث يقف الخصى ، ثم اقتله إذا لم يكن من ذلك بد ، وهنالك تلتقى بى لنذهب إلى يوليوس. وسأرغمه ومن معه على فتح الباب الجانبي . كى يدخل سيبا والخمسمائة جندى الذين معه ويفتكوا بالجنود وهم نيام . فالمهمة كما ترى هينة يا سيدى . . فثق بنفسك . ولا تدع مخاوف النساء تتسرب إلى قلبك . . ماذا تكون طعنة خنجر . ؟ إنها لا شيء . ومع ذلك فان مصير مصر بل ومصير العالم يتوقف عليها

فقلت : صه ! ! ماهذا ؟ ! انى أسمع صوتا . .

فهرولت شارميون الى البـاب . . وأطلت فى الدهليز المعتم وهى ترهف السمع . ثم عادت ، وأصبعها على شفتيها . . وهمست قائلة :

— انها الملكة ! ! انها الملكة ترتقى الدرج وحدها . . سمعتها تأمر ايراس أن تتركها وحدها . . لا أريد أن تراني منفردة بك فى مثل هذه الساعة . . فهى امرأة متوقدة الذهن ، وقد ترتاب فى الأمر ! لماذا جاءت الى هنا ؟ ! أين اختبىء ؟ !

تلفت حولى . . فوقع بصرى على مكان صغير محفور فى جدار الغرفة . . وقد أسدل عليه ستاران كثيفان . . وكنت أستخدمه لوضع أوراقى وآلات رصد النجوم . . فأشرت الى المكان . . وقلت للفتاة : هلمى الى هناك . .

فتسللت شارميون وراء الستائر . . وأما أنا فوضعت خنجرى فى ثنيات معطفى . . وتظاهرت بالانكباب على فك الرموز السرية . .

وسرعان ماسمعت حفيف ثياب نسائية . . أعقبه طرق خفيف على الباب فقلت : ادخل ...

ففتح البـاب . . ودلفت كليوباترا بثيابها الملكية إلى الغرفة . . وكان شعرها الأسود المرسل يتماوج من حولها . . والثعبان الملكى يلمع ببريق يخطف الأبصار فوق رأسها . .

وجلست . . ثم تنهدت . . وقالت :

— ليت شعرى . . كم هو شاق تسلق الطريق إلى السماء . . بيد أننى

كنت قد اعتزمت ان أراك على انفراد

فأحنيت رأسى . . وقلت : هذا شرف عظيم وأيم الحق أيتها الملكة . .

— أحق ما تقول ! لم تبدو على وجهك الأسمر سماء الغضب ؟ إنك شاب جميل لا تصلح لهذه المهنة يا هارما كيس . . ما هـــذا ؟ أراك قد ألقيت إكليل الزهور الذى وهبتك إياه بين آلات مهنتك التى أكلها الصدأ !! لو حظى الملوك بهذا الشرف يا هارما كيس لاحتفظوا بهـذا الاكليل أبداً . . . ولضموه الى كنوزهم الثمينة . . وإما أنت فقد ألقيته جانباً كما لو كان شيئا تافها . . فأى رجل أنت ؟ ولـكن مهلا . . ماهذا ؟ انه منديل امرأة ! ! هل لك أن تخبرنى كيف جاء هذا المنديل إلى هنا ؟ وهل المناديل النسائية جزء من آلاتك الفلـكية ؟ ياللعار ! أترانى ضبطتك متلبسا ؟! ألا تكون فى الواقع ثعلبا ما كراً ؟ !

فقلت وأنا أنظر الى المنديل . وكان قد سقط من شارميون :

— لا أيتها الملـكة . لست أدرى كيف جاء هذا المنديل إلى هنا . ربما سقط من احدى النساء اللاتى ينظفن الغرفة .

فقالت بخشونة . . وهى تضحك تلك الضحكة الرقيقة المألوفة :

— أحقا ! من دواعى فخرى أن تحمـل خادماتى مناديل من خالص الحرير . ولا أكاد أجد غضاضة فى أن ألفه حول عنق . إذ يخيل أنى أعرفه وأحاطت به عنقها . واستطردت : قد يسوءك أن ترى منديل حبيبتك حول عنق الحقير . خذه يا هارما كيس . خذه واخفه فى صدرك ، فوق قلبك

فأخذت المنديل من يدها غاضبا . . وتمتمت ببضع كلمات تدل على السخط ثم تقدمت من الشرفة التى أرقب منها النجوم . وكورت المنديل . . وقذفت به الى الريح .

فقهقهت كليوباترا ضاحكة . وهتفت :

— ما عساها أن تقول لو اتفق ورأت رمز حبها يقذف هكذا إلى الريح ؟ آمل ألا تقذف بإكليـل زهورى كذلك . . انظر . ! لقد ذبلت الزهور ياهارما كيس . خذه . والقه للريح .

والتقطت الاكليل وقدمته إلىّ .

ثارت ثائرتى . وخيل إلىّ أن أعمل بمشورتها . . ولكننى تمالكت نفسى . وسلكت سبيل الحكمة . وقلت بلهجة رقيقة :

ــ لا . . انه هدية منك أيتها الملكة . . وسأحتفظ به .

وحانت منى التفاتة إلى الستارين اللذين تختفى شارميون خلفهما فرأيتهما يتحركان . . واأسفاه . . شد ماندمت فيما بعد على هذه الكلمات ! !

وحدقت كليوباترا فى وجهى بنظرة غريبة . قالت :

ــ شكراً لك على هذا العطف ياملك الحب . . هلم بنا الى الشرفة لتحدثنى عن سر النجوم . إننى أحب دائما النجوم النقية المتلألئة . . وبودى لو أقمت هناك لأسبح فى أفق الليل البهيم . وأنسى احساسى الضعيف بنفسى عند ماأطيل النظر والتأمل فى هذا الفضاء اللانهائى الساكن . . من يدرى ياهارماكيس ؟ ربما كانت هذه النجوم جزء من كياننا . . فهل لك ياخادمى أن تشرح لى هذه الغرائب . فانى بحاجة الى الاستزادة من العلم والمعرفة

سرنى ان أدارت دفة الحديث الى هذا السبيل المأمون . بيد أننى دهشت قليلا لاهتمامها بالتعمق فى دراسة الفلك والاحاطة بالافكار الفلسفية العالية . . فرحت أحدثها مسروراً عما يجوز قوله .

واصغت الى كليوباترا باهتمام ولهفة . وراحت تحدق فى وجهى وأنا أحدثها بلغتى المصرية . . وأراقب النجوم فى نفس الوقت

وأخيراً قالت : آه . يخيل الىّ أنك لاتحب التكلم باللاتينية . على رسلك سأحدثك اذن بلغتك التى أحذقها . فأنا أول ملكة اغريقية تتكلم لغتكم .

وشرعت تتحدث بلغة مصر القديمة بلهجة أجنبية زادتها عذوبة . قالت :

ــ كفى حديثا عن النجوم ، وما لجأت الى طرق موضوعها إلا لأنه يروقك ، ويبعد عنك الكآبة والملل . ولكننى أقول ان هذه المهنة لاتليق بك ياهارماكيس . إنك لاتزال فى عنفوان الشباب ، وحرام أن تقبر نفسك فى هذا البرج الموحش . كم عمرك ياهارماكيس ؟

ــ إننى فى السادسة والعشرين من عمرى أيتها الملكة . فقد ولدت فى

الشهر الاول من (شومو) فى فصل الصيف . وفى اليوم الثالث من الشهر
فهتفت :

— اذن فسننا واحدة . فقد ولدت فى ذات اليوم أيضا . ولعمرى انه من دواعى فخر آبائنا أن أنجبونا . فاذا كنت أنا أجمل امرأة فى مصر . فأنت يا هارما كيس أجمل وأقوى رجل فيها . . إن يوم مولدنا المشترك دليل على أننا خلقنا لنتآزر . فأعمل أنا بوصفى ملكة . وتعمل أنت معى لتثبيت دعائم عرشى . وهكذا يعمل كل منا لخير الآخر .

أطربنى حديثها . وصعد الدم إلى وجنتى . وأجبت :

— أو ربما ليعمل كل منا لشر الآخر .

— لا . لا تتحدث عن الشر . اجلس بجانبى يا هارما كيس . ولنتحدث كاصدقاء . لقد أغضبتك أثناء المأدبة . ولكنى لم أرد غير المزاح يا هارما كيس . والمزاح فحسب . فشد ما يزعجنى هؤلاء الامراء والاشراف بغباوتهم . وأولئك الرومان المتعجرفون . المتصلبو الاعناق . انهم يتظاهرون أمامى بالولاء . فاذا ما انفردوا بأنفسهم سخروا منى . وقالوا إننى خادمة الحكومة الثلاثية الرومانية . أو خادمة امبراطوريتهم . أو جمهوريتهم ، حسب الظروف . لم يرتفع من بينهم رجل إلى القمة التى بلغها قيصر ، ذلك الرجل الذى لم يستطع العالم كله الوقوف فى وجهه . انهم أشبه بدمى الاطفال وقد رأيت من جانبي أن أوقع بينهم لتظل لى الغلبة وأنقذ مصر من براثنهم . ولكن ماذا كان جزائى ؟ لقد بات الجميع يتحدثون عنى سراً . ولست أجهل أن رعاياى يمقتوننى . . وأكبر ظنى أن بينهم من يود قتلى لو استطاع إلى ذلك سبيلا :

وكفت عن الكلام . وغطت وجهها بيديها . وقد أحسنت صنعا . اذ نفذت كلماتها إلى أعماق قلبي . ولم اتمالك من الانتفاض وأنا جالس بجانبها . واستطردت بعد قليل :

— لست أجهل أنهم يحقدون علىّ . وينعتوننى بالبغى . مع انى لم احد عن طريق الشرف غير مرة واحدة . وكان ذلك عندما احببت أعظم رجل

فى العالم . لقد التهبت شعلة هيامى عندما مسنى الحب . ولعمرى يخطىء السكندريون حين يعتقدون اننى دسست السم لأخى بطليموس الذى أراد مجلس شيوخ روما أن يكرهنى على الزواج منه . ضاربا صفحا عن قوانين الطبيعة التى لا تبيح مثل هذا العمل الشاذ . ومهما يكن فانهم يشتطون فى حكمهم ضدى . منذ مات أخى متأثراً بمرض الحمى . نعم . انهم يظنون بى سوء ولعلك أنت أيضا تشاطرهم هذا الرأى يا هارما كيس .

وامسكت . ريثما تلتقط أنفاسها . ثم أردفت :

— تذكر ياهارما كيس ماهو الحسد قبل أن تصدر حكمك . . انه ذلك المرض العقلى الذى يعمى القلوب . . ويجعل عين الشفقة ترى كل شىء مشوها . . وتقرأ الشر على وجه الأبرار. وتجد الرجس فى أطهر عذراء .

وتذكر ياهارما كيس ان العظماء هم دائما وأبدا هدف لحسد الحاسدين . وطمع الطامعين. فاحكم ياهارما كيس ، كما تريد أن يحكم الناس عليك ، ولا تنس أن الملكة ليست حرة فى تصرفاتها ، كن صديقى ومستشارى ياهارما كيس ، صديقى الذى اعتمد عليه ، فاننى اشعر بوحشة بغيضة فى هذا القصر المكتظ ، لقد توسمت فيك الأمانة والاخلاص . ولست أرى مايحول دون ثقتى بك ، وسأرفع مكانتك ، فاننى بحاجة الى شخص أجعله معين أسرارى ، ومستشارى الأمين .

وكفت عن الكلام هنيهة ، وراحت ترمقنى بعينيها النافذتين ، ثم سألت :

— والآن ياهارما كيس ، هل لك أن تكون صديقى ، انا التى لاصديق لها ؟

ومالت نحوى ، ولمستنى لمسا خفيفا ، وصوبت الى سهام عينيها الساحرتين فتبددت مقاومتى فى الحال .. وغلبت على أمرى . .

ورحت أفكر فى الليلة المقبلة ، فاعترانى الخجل والحزن .

أأكون أنا صديقها .. أنا الذى أخفى بين طيات ثيابى ذلك الخنجر الذى سأغتالها به ؟ !

وأطرقت . . وزفرت زفرة حرى .

ولكن كليوباترا ظنت انى رثيت لحالها ، فابتسمت ابتسامة رقيقة وقالت : ان الوقت متأخر الآن ، فلنرجىء الحديث إذن الى الليلة المقبلة ونهضت ، وقدمت الى يدها لالثمها ، فلثمتها ، وأنا لا أكاد أعى مافعلت وانصرفت . . وقد خلفتنى منتصبا فى وسط الغرفة أحدق النظر وراءها كالحالم

الفصل السادس

غيرة شارميون

جمدت فى مكانى لا أتحول . . ولا أتحرك . . وقد استغرقت فى التفكير ..

ثم تناولت اكليل الزهور . . وأطلت النظر اليه .. ولا أدرى كم مكثت على هذه الحال . . بيد انى لم اكد أرفع عينى ، حتى رأيت شارميون واقفة أمامى ، وهى تطيل النظر إلى وجهى . .

ولاحظت — ولكنى مع الأسف لم أعر ذلك اهتماما كبيراً فى تلك اللحظة — ان وجه الفتاة تكسوه حمرة الغضب . . ثم لم تلبث أن ضربت الأرض بقدمها فى غيظ وحنق ...

فقلت : آه ! اهذه انت ياشارميون ! ! ماالذى يؤلمك ؟ هل آلمك الاختباء طويلا ؟ ! لماذا لم تتسللى من الغرفة خفية عندما قادتنى كليوبترا إلى الشرفة ؟

فرمتنى الفتاة بنظرة غاضبة . . وأجابت :

— أين منديلى .؟ لقد سقط منى منديلى المزركش هنا

— منديلك ؟ آه ! ألم ترى ماحدث ؟ ! انى اضطررت إلى القائه من الشرفة .

— آه ! نعم . . لقد رأيتك وأنت تلقى به . . ولكنك لم تلق باكليل الزهور أيضاً لأنه هدية من ملكة . . ولقداحتفظت به ياهارمكيس

يانسل الملوك . وكاهن أيزيس . . ومختار الآلهة . . وفرعون مصر الذى توج ليعمل لنصرة أرض (خم) . . انك القيت منديلى ارضاء للملكة الجميلة . .

فعجبت للهجة الفتاة . . وسألتها : ماذا تعنين ؟

فدفعت الفتاة رأسها إلى الخلف بكبرياء . . وأجابت : ماذا اعنى ؟ اتريد أن تعرف ما اعنى يا ابن عمى . . ومولاى هرما كيس ؟ ! اذن فسأخبرك . .

واستطردت بلهجة حافة صارمة :

— انك على وشك التردى فى هاوية الشر المروع . . لقد القت كليوبترا شبا كها حولك . . ولا أحسبنى اغالى حين اقول انك كدت تقع فى شرك غرامها . . نعم ، كدت تقع فى حب المرأة التى يتحتم عليك أن تقتلها غداً !! تمهل ياهارما كيس ، وانعم النظر فى هذا الا كليل الذى تحمله . . الا كليل الذى لم تجرؤ على القائه وراء منديلى . . لأنه كان لها وهو لايزال معطراً من شعرها . . شعر محظية قيصر . . وغيره . .

. اخبرنى بحق الآلهة . . إلى أى حد وصلتما من سمركما فى تلك الشرفة ؟ ما انسبها من عش جميل جدير بالعشاق . اليس كذلك ؟ نعم . . وما أحلاها من ساعة أيضاً ؟ !

نطقت الفتاة بهذه الكلمات اللاذعة بهدوء عجيب ، وبلهجه رقيقة معتدلة ولكنها كانت تقطر حقداً وموجدة . فاستبد بى الغضب . وارتج على القول . ولم يسعفنى المنطق

وانتهزت الفتاة الفرصة ، فاسترسلت فى سخريتها . حتى ثارت ثائرتى . . وانطلق لساني من عقاله . . فصحت بها : كيف تجرؤين على مخاطبتى بهذه اللهجة يا فتاتي ؟ الا تعلمين من أنا ؟! كيف سمحت لك نفسك بالسخرية منى ؟

فصاحت : إننى أهتم بتصرفاتك . وأما من أنت ! فلا شأن لى به .

فقاطعتها : ماذا تعنين ؟ هل أستحق اللوم إذا كانت الملكة ؟ . . !

— الملكة . . ؟!

— إذا كانت كليوباترا قد شاءت أن تأتى إلى هنا ليلا . وتتحدث عن . .

— عن النجوم يا هارما كيس . نعم . عن النجوم والورد فقط .

جن جنونى . فانفجرت فى وجهها مهدداً ، متوعداً . فانكمشت وتراجعت إلى الوراء مذعورة . ولكنها لم تلبث أن أخذت تبكى بحرقة . فخجلت من نفسى . وأمسكت عن الكلام . برغم الغضب الذي كان يعصف بين جنبى !

قالت الفتاة ، وهى تنتحب : يجب ألا تخاطبنى بهذه اللهجة يا هارما كيس . . هذه قسوة منك لا تتفق ومبادىء الرجولة . آه ! معذرة . . فقد نسيت انك لست إلا كاهناً . لا رجلا . . اللهم إلا فيما يتعلق بكليوباترا

— بأى حق تفوهين بهذه الكلمات ؟! وماذا تعنين بها ؟

فرفعت الفتاة الىّ عينيها السوداوين . . فاذا هما مخضلتان بالدموع . . التي لم تلبث ان انحدرت فوق وجنتيها الموردتين كما تنحدر قطرات الندى فوق زهر الزنبق ، ثم قالت :

— تسألنى بأى حق أفوه بهذه الكلمات ؟ آه . . ياهارماكيس . ! هل أصبت بالعمى ؟ ! اننى أخاطبك بأول وأقدس حق تملكه المرأة ! أخاطبك بحق الحب العظيم الذى أطويه لك بين جوانحى . الحب الذى تتعامى عنه ! نعم ! وبحق مجدى ، وعارى ! . آه ياهارماكيس ، لاتغضب ، ولا تستخف بي اذا كانت الحقيقة قد أعلنتها شفتاى قسراً فى النهاية .

سأكون الفتاة التي تريدها ياهارما كيس ! اننى كقطعة من الشمع اللين تستطيع أن تصورها كيف تشاء ، هذا اذا قبلت ان تكون لسفينتى رباناً . ومرشداً يا هارما كيس ، واما اذا فقدتك ، فسأفقد كل شيء يصدني عن الشر ، والهلاك ، ولا مفر من أن تتحطم سفينتى في النهاية .

انك لاتعرفنى ياهارما كيس ، ولا يمكنك ان ترى روحى المتوقدة التى تضطرم بين جوانح هذا الجسم الضعيف ! ! بل لعلك تعتقد اننى فتاة ماكرة عنيدة ، قليلة الخبرة ، ولكن مهلا ، فأنا أجل شأناً من ذلك ، فاذا كنت قد بلغت القمة فى الحكمة والفلسفة . . ففى استطاعتى ان أبرهن لك على اننى لست دونك في هذا الميدان ، إن لم أزد

اننا من دم واحد ، وفى استطاعة الحب ان نزيل مابيننا من الفروق البسيطة . .

ان غايتنا واحدة ، فنحن نحب وطنا واحداً ، ويربطنا عهد واحد ، فافتح لى قلبك ياهارما كيس ، وأجلسنى بجانبك فوق عرش مصر المزدوج ، ارفعك وحق الآلهة الى السماك ، وإما اذا نبذتنى ، فاحذر أن أجذبك معى الى قرار سحيق . .

وأمسكت فى انتظار قرارى وقد عقدت ساعديها فوق صدرها ،وتقدمت نحوى خطوة ، ثم أخذت تحدق النظر الى وجهى ، وقد تغير لونها . . وأخذ جسمها ينتفض .

وأما أنا فقد جمدت فى مكانى واجماً . فقد أثر بى سحر صوتها . وقوة بيانها . وعنف لهجتها . ولم يساورنى الريب فى انه لو كانت فى قلبى ذرة من الحب لها . لأوقدت كلماتها هذه شعلة غرامى . ولـكنى لم أ كن كذلك . بل ولم استطع ان أحمل نفسى على حبها . أو التظاهر به على الأقل

وعجبت لأطوار الفتاة . ولم اتمالك من الضحك.وتذكرت فى هذه اللحظة فقط، خشونتها وهى تضع أكليل الزهور فوق رأسى اثناء المأدبة والمنديل وكيف قذفت به الى الريح . فهززت كتفى استخفافا . وكان الأجدر بى أن أتدبر أمرى. فقد كانت هذه الضحكة أصل بلائى .

ازداد امتقاع وجه الفتاة إذ سمعت ضحكتى . . وبدت على وجهها علامات اليأس القاتل . . فأمسكت عن الضحك . . وانتظرت .

وأخيرا . قالت الفتاة بصوت متحشرج . . وقد غضت من بصرها :

— إذن فقد راقك قولى .. وجلب السرور الى نفسك

— لا . لا ياشارميون . أرجو المعذرة . فما ضحكت إلا يأسا وقنوطا .!!

انك تعرفين من أنا . . وما هى مهمتى . . وتعلمين أننى قطعت على نفسى العهد لايريس . . وان لا شـأن لى بك طبقا للقوانين المقدسة .

فقاطعتنى قائلة : نعم . نعم . وأعلم أيضا أن عهودك ومواثيقك قد نقضت بالروح . وتلاشت كالسحب . لأنك تحب كليوباترا يا هارما كيس .

فهتفت : انك تكذبين أيتها الفتاة الشريرة ! انك تريدين اغرائى لأتحول عن واجبي المقدس ، وأرتدى ثوب الخزى والعار ! ! إن العاطفة ، أو الطمع ، أو حب الشر ! تدفعك الى سلوك هذا السبيل الوعر

أتريدين أن أجيبك بصراحة على سؤالك الصريح ؟ ! انك لا تهميننى فى شيء خارج نطاق الواجب الذى أعمل على اتمامه . واعلمى أن نظراتك الرقيقة لاتهز مشاعرى . ولا تزيد ضربات قلبي ! ! بل انك لا تكادين تكونين صديقتى . لأننى لا أثق بك كثيراً . ومهما يكن ، فاننى أحذرك من ارتكاب ما قد يتعارض مع قضيتنا . وإلا فموتا تموتين . والآن ، هل انتهت الرواية ؟

تراجعت الفتاة إلى الوراء . إلى أن أصطدمت بالجدار . وغطت عينيها بيديها . ولكنها لم تلبث أن رفعتهما . ورمقتنى بعينين يرسلان شواظاً من اللهب . ثم أجابت بلهجة رقيقة :

— لا . . لم تنته بعد . . صحيح . انى رميت (الزهر) فخسرت . . والويل للمغلوب . ! هل لك أن تعطيني ذلك الخنجر الذى تخفيه بين طيات ثيابك لكى اضع حداً لذلى وعارى فى التو واللحظة ؟ ! لا . ! ! إذن اسمع منى كلمة أخرى أيها الملك هارماكيس : إذا استطعت أن تنسى حماقتى فلا تخش شرى . فأنا لا ازال الى الآن ، كما كنت فيما مضى ، خادمتك وخادمة قضيتنا المقدسة . الى اللقاء .

وزايلت الغرفة وهي تستند إلى الجدار .

وأما أنا فانطلقت الى غرفتى . وألقيت نفسى فوق الفراش . . وجعلت أتأوه ألما وكمداً .

وأخيرا .. غلبنى النعاس ، فرحت فى سبات عميق

ولما استيقظت كان النهار قد طلع .. وتسرب الضوء إلى الغرفة . . وسمعت تغريد الطيور فوق أفنان الأشجار .

كان قلبي مثقلا بالهموم والأحزان . . وتذكرت ألا بد أن الوثن يدى بالدماء فى منتصف الليل .. دماء كليوباترا التى وثقت بي واتخذتنى صديقا لها

وشعرت بالنفور والاشمئزاز من هذا العمل البغيض . . وتمنيت لو أتنازل عن حقى الموروث لـكى اعفى من ارتكابه . . ولـكن واأسفاه ! . لامفر ، ولا مناص !

وابتهلت إلى الأم ايزيس .. ولـكنى لم أسمع جوابا على توسلاتى . فسقط فى يدى .. وتساءلت : ترى ما الذى فصم الرابطة التى كانت تربطنى بها حتى أنها لم تستجب لنـداء ابنها المختار ؟ ! هل يمكن أن أكون قد شططت ؟ ! قالت شارميون . اننى أحب كليوباترا ؟ فهل هذا صحيح ؟ ! لا . . لا . ان هى إلا ثورة الطبيعة ضد كل عمل ينطوى على الغدر . . لقد أرادت الآلهة أن تجرب قوتى .. ولعلها هى أيضا تأنف من رؤية الدماء .

وجاء العصر .. فذهبت للقاء خالى سيبا فى منزله . . وهناك وجدت قواد المؤامرة مجتمعين سراً . وكانوا سبعة .

واذ دخلت عليهم . اقفلت الأبواب . وأحكم اغلاقها . . ثم ركعوا أمامى وصاحوا : السلام يافرعون !

فامرتهم بالنهوض . وقلت اننى لم أصبح بعد فرعونا

فقال خالى سيبا : هذا صحيح أيها الأمير .. ولـكنك لن تلبث أن تكونه فتشجع ..فلا شىء يعترض الآن سبيل الفوز .

انظر .. هاهى القوائم الأخـيرة .. لقد أقسم واحد وثلاثون الف رجل على التمرد ، على أثر وصول الأنبـاء اليهم . ولعمرى . لن تنصرم خمسة أيام حتى تسقط جميع القلاع والحصون فى أيدينـا . . ولا يبقى أمامنا ماننهابه أو نخشاه.. فروما مغلولة اليدين . . ولها من مشا كلها الداخلية ما يصرفها عن قمع حركة الثورة فى مصر .. ثم اننا سنعقد تحالفا مع أعضاء الحـكومة الثلاثية وإذا أرغمتنا الظروف ، رشوناهم بالمال .

وقد تحدث اضطرابات ومؤامرات أخرى فى الاسكندرية لتتويج ارسنوى شقيقة كليوباترا . ولـكننا لن نمكن المتآمرين من الفوز ببغيتهم . فسنضرب على أيدى أهل المدينة بيد من حديد . وأما أرسنوى فسيغتالها من سيسافرون غداً على أثر مصرع كليوباترا

فقلت : ولكن هناك الغلام قيصرون . فقد تطالب روما بحق الصبي . وفي ذلك من الخطر ما فيه .

— لا تخف . فسيلحق قيصرون غداً بأبيه وأمه في (مطهر الأرواح) لقد أعد كل شيء لاستئصال شأفة البطالسة من مصر إلى الأبد

فسألته بحزن : أما من سبيل آخر للاصول إلى أهدافنا المقدسة ؟ إن قلبي يجزع ويتألم من سفك الدماء

فأجابني خالي بلهجة جدية :

— لا . لا تجعل رقة قلبك تصرفك عن واجبك المقدس . يجب القضاء على كليوباترا وابنها خشية أن يشب الابن أسداً ضاريا فيمزقك . ويقذف بك من فوق عرشك

فتنهدت . وأجبت : على رسلك ياخالي . حدثني الآن بخطتك ؟

وقضينا فترة طويلة نتشاور في الأمر . إلى أن شعرت في النهاية بشيء من حماستي القديمة يتسرب إلى قلبي . واتفقنا على انه إذا لم يتيسر لي قتل كليوباترا الليلة . فان الدسيسة تؤجل إلى الغد . ولكن لا أكثر . لأن هذا العمل هو الاشارة المتفق عليها لايقاد نار الفتنة .

وانصرفت . وكان ذلك آخر عهدي بخالي .. فلم أره بعد ذلك

وانطلقت إلى الميناء لأروح عن نفسي . وهنـاك وقع بصري على سفينة قادمة من النيل . وقد أخذ ركابها يهبطون إلى البر . فوقفت أرقبهم هنيهة . وفجأة . سمعت صوتاً أعرفه . يقول :

— انظرو ! انظروا ! ما أعظم هذه المدينـة . . كيف تجيء عجوز مثلي الى هذه المدينـة الرائعة طلبا للرزق ؟ اذهب أيها الوغـد ودع سـلة عقاقيري وشأنها .

فدرت على عقبي . . فاذا بي وجها لوجه أمام مربيتي (أتو"ا)

واضطربت المرأة . . ولـكنها لم تلبث أن رسمت الاشارة السرية . . وهمست :

— لقد أتيتك رسالة من أبيك امينمحعت أيها الأمير هارما كيس

فسألتها : وهل هو بخير .

— نعم . . ولـكنه يلاقي عذابا أليما في انتظار الساعة الرهيبة

— وما رسالته ؟

— ان تحذر خطرا عظيما يتهددك . . وهذه كلماته : « كن ثابتا تظفر »

فاحنيت رأسي . . وتولاني الفزع .

وسألت المرأة : متى تنفذ المهمة ؟.

فاجبت : هذه الليلة .

— اذن ادع من يذهب بي الى منزل الـكاهن سيبا .

ففعلت . . وانطلقت لشأني وأنا أردد نصيحة أبي

الفصل السابع

فشل هارما كيس

حانت الساعة أخـيراً . . فانفردت في غرفتي . في انتظار شارميون . . ورحت أطيل النظر الى خنجري الذي سأدفنه في صدر كليوباترا . . وكان خنجرا طويلا حادا . . صنعت يده من الذهب الخالص على شكل أبي الهول وفتح الباب بهـدوء . . ودخلت شارميون . . وعلى وجهها عـلامات

الـكآبة والانقباض .

ثم قالت : أيها الملك هارماكيس . . ان كليوباترا تنتظرك

غاص قلبي بين جنبي . وسألتها : وهل أعد كل شيء ياشارميون ؟ .

— نعم ياسـيدي . . ان يوليوس يترنح من كثرة ماتجرع من خمر . . وهو يحرس الأبواب . وقد سحب الخصيان عدا واحـداً . وآوى الجنود إلى ثكناتهم . وأما خالي سيناً فيختبيء مع رجاله خارج الأسوار .

— حسنا . . هلمى بنا .

ونهضت . وأخفيت الخنجر في صدري . وقالت شارميون :

— كلمة أخرى ايها الملك . . فما زال في الوقت متسع للحديث .. أمس . آه ! . أمس ! . (وارتفع صـدرها وهبط) . رأيت أمس حلمـاً ما زال يزعجني . ولعلك رأيت مايماثله ياسيدي . ألم يكن كل ماحدث بيننا حلما ؟ !

— نعم .. نعم . . لماذا تزعجينني بالحديث في هذه الأمور الآن ؟

-- لست أدري . . ولـكن ثق ياهارماكيس ان القدر أعد الليلة عدته لعمل حاسم . ومن المحتمل أن أذهب ضحية هذا العمل . أو تذهب أنت . . أو نذهب معاً . . فاذا قدر أن يحدث ذلك ، فانني أريد أن أسمع منـك الآن ان ماجرى بيننا لم يكن الا حلماً . وان الحلم قابل للنسيان .

فقلت بضجر :

— نعم . فـكل شيء في هذا العالم مجرد حلم . وحتى هذه الليلة المروعة . وهذا الخنجر المرهف النصل ليست إلا أحلاما . ولـكن ماذاترانا نشاهد يوم اليقظة ؟ .

— هاقد شاركتني أفـكاري أيها الملك هارماكيس . فـكما تقول ، اننا نحلم .. ولـكن الرؤى تتغير بتغير الأفـكار والمسببات.. ولـكنى أتساءل . هل كانت تلك الرؤيا التي رأيناها ليـلة أمس . وقد ظهرت أمامك فيها بثوب الذل والعار . فما كان منك إلا أن سخرت من ذلى وعاري . . أقول هـل هذه الرؤيا خيالية ثابتة ؟ وهلا يمكن أن تتغير أو تتبدل ؟

فاجبت : لا ياشارميون . يؤسفني ان آلمتك . ولـكن لم يطرأ على الرؤيا

أي تغيير أو تبديل . وقد افصحت لك عما يكنه قلبى نحوك . . فانت ابنة عمى وصديقى ولا شيء أكثر من ذلك .

— حسنا .. حسنا جداً .. لننس كل شيء .. ولننتقل إلى حلم آخر .

ثم ابتسمت ابتسامة مروعة . . هى ابتسامة الجزع والألم . . ولا عجب فقد ماتت مع هذه الابتسامة سعادة شارميون المصرية . وضاع أملها فى الحب وتكسرت القيود التى تربطها بالواجب المقدس . ونقضت عهودها . وانقلبت امرأة شريرة . نبذت وطنها .. وتنكرت لآلهتها . نعم . كانت هذه الابتسامة نقطة التحول فى مجرى التاريخ . . فلو لم يشأ القدر أن أرى هذه الابتسامة على شفق شارميون .. لما سيطر اكتافيوس على العالم .. ولنالت مصر حريتها ومجدها .

ومع ذلك . فلم تكن الا ابتسامة امرأة !!

سألتها : لم تبدين فى هذه الهيئة الغريبة ايتها الفتاة ؟

— اننا نبتسم فى الاحلام .. ها قد حان الموعد فهلم بنا . وكن ثابتا تظهر ايها الملك هارما كيس

وأخذت يدى ولثمتها . ثم تحولت . وسارت أمامى .

ووصلنا إلى (قاعة المرمر) . فتريثنا . اذ كانت غرفه كليوباترا الخاصة وراء هذه القاعة . وهى الغرفة عينها التى رأيت كليوباترا نائمة فيها لأول مرة وقالت شارميون : انتظر هنا . ريثما انبىء كليوباترا بقدومك .

وما هى الا لحظات حتى عادت الفتاة ، وهي مطرقة الرأس . . تمشي بخطوات ثقيلة . . ثم قالت : ان كليوباترا فى انتظارك . فاذهب اليها .

فسألتها بصوت متهدج :

— وأين أراك بعد أن افرغ من ارتكاب الجريمة المروعة ؟

— هنا .. ومن ثم نذهب معا إلى يوليوس ..

فذهبت . ولم اكد أبلغ الستائر . . حتى أدرت وجهى الى الخلف . . فرأيت منظرا غريبا .

كانت شارميون واقفة فى منتصف القاعة .. وقد دفعت رأسها إلى الوراء

وبسطت ذراعيها كأنما تريد أن تمسك بهما شيئا . . بينا انعكست على صفحة وجهها امارات العذاب النفسانى المروّع .

ولا عجب .. فقد كانت تعتقد اننى ، أنا حبيبها ، سائر إلى حتفى . . وأن هذا وداعنا الأخير !!

ونفذت إلى الغرفة . وكان أول ما وقع عليه بصرى كليوباترا وهي مضطجعة فوق فراشها الوثير . ترتدى ثيابا بيضاء تشف عن مفاتن جسمها البديع . وكانت تحمل فى يدها مروحة من ريش النعام مرصعة باللآلىء . تروح بها على وجهها برفق . فى حين كان إلى جانبها عودها العاجى . ونضد صغير عليه بعض الفواكه . وزجاجة من الخمر المعتقة

تقدمت من (اعجوبة العالم) وأنا ذاهل مضطرب . فما رأيت كليوباترا من قبل فى حلة من الجمال تحاكى الحلة الرائعة التى كانت ترتديها فى تلك الليلة المروعة .

وهذه هى المرأة التى فرض على أن أغتالها بعد قليل !!

ولم تكترث كليوباترا بدخولى . وظلت مضطجعة فوق فراشها . . وهى تروح بمروحتها فى شىء من الملل والسآمة

وأخيراً وقفت قبالتها . . فرفعت عينيها إلىّ . . وضغطت مروحتها فوق صدرها . كأنما أرادت أن تخفى جماله الفتان . ثم قالت بصوت حنون :

— آه ! أهذا أنت أيها الصديق ؟ ! لقد أحسنت بالقدوم . فقد بدأت أمل الوحدة .. اجلس يا هارماكيس

وأشارت بمروحتها إلى مقعد على مقربة من قدميها . فأحنيت رأسى . ثم جلست . وقلت : لقد سجلت ما رأيته من أسرار النجوم عملا برغبة الملكة . فاذا تنازلت جلالتك شرحتها لك

ونهضت لأدور حول فراشها . . وأطعنها من الخلف وهى منهمكة فى المطالعة . بيد انها استوقفتنى برفق . وقالت باسمة :

— مهلا يا هارماكيس . اجلس مكانك . . واعطنى الاوراق . . ان وجهك الليلة مليح تجذبنى إلى التحديق فيه قوة خفية

ولم يكن ثمة مناص من الطاعة . فقدمت لها أوراق البردى . وقد قررت في نفسي أن أهاجمها فجأة وهي تقرأ . ثم أغيب خنجرى في صدرها .

وتظاهرت كليوباترا بالقراءة . ولـكنني رأيتها تحدق إلىّ النظر من فوق حافة الورقة ولم تلبث أن قالت :

— لماذا تضع يدك فوق صدرك ؟ هل تحرك قلبك ؟

كانت يدى على مقبض الخنجر . وأجبت : نعم أيتهـا الملـكة . انه يخفق بشدة .

فلاذت بالصمت . . ثم تظاهرت بالقراءة مرة أخرى . . ولـكنها كانت ترقبنى خلسة .

تسـاءلت : هل القى نفسى فوقها الآن . ؟ ألا يجوز أن ترانى وأنا أهم بالوثوب عليها .. فتصرخ . وتقاوم ؟ لا . لا . من سخف الرأى أن أتعجل واذن فلأنتظر حتى تسنح فرصة أخرى .

قالت كليوباترا وهى تلقى بالاوراق فوق المنضدة :

— لقد سئمت قراءة النجوم . واستكناه أسرارها .

ثم أمسكت قليلا . ورمقتني بنظارة غريبة . ثم أردفت :

— لنـدع القراءة الآن . ولنبحث عما يطربنا . ويشرح صدورنا . . ترى ماذا نفعل ؟ فى وسعى أن أرقص . . فأنا راقصة بارعة . ولـكن ذلك العمل يتعارض مع هيبة الملوك . إذن فلأغن

والتقطت العود . وأخـذت تلعب بأناملها الرقيقة على اوتاره . وسرعان ما ارتفع صوتها بانغام رقيقة مشجية .

وقد نفـذ صوتها الحنون الى أعماق قلبى . فلم أتمالك من التحديق فى وجهها باعجاب وطرب .

وأخيرا كفت عن الغناء . وتلاشى صدى صوتها الشجى . . ولـكنه أخذ يدوى فى قلبى . فما سمعت قبل اليوم صوتا أرق ، وأعذب من صوت كليوباترا الحنون .

وفجـأة ، انبعثت واقفـة . ومدت ذراعيهـا نحوى . . وعيناها

الساحرتان ترمقانني بنظرة قاهرة متسلطة

ولكني تذكرت واجبي . فتمالكت زمام نفسي .. وقالت كليوباترا :

— أليست لديك كلمة شكر تقدمها الىّ على غنائي الحقير ؟

فاجبتها بصوت خافت . متهدج :

— نعم أيتها الملكة . . أقول لك الحق إن غناءك أخذ بمجامع قلبي .

فابتسمت برقة . وقالت :

— لا . . لاتخش شيئا ياهارما كيس . فلست أجهل أفكارك البعيدة عن جمال النساء وسحرهن . وما تتمتع به من منعة لاتتوفر لأبناء جنسك . . ولكن مهما يكن . . فلا ضرر من اللعب بالحديد البارد .

فآثرت الصمت . ووضعت يدى المرتجفة فوق قبضة الخنجر . ورحت أبحث عن وسيلة تمكنني من قتلها قبل أن أفقد شعوري .

واستطردت كليوباترا بذلك الصوت الحنون :

— ادن مني ياهارما كيس . بل تعال واجلس بجانبي . ولنتحدث معا ، فان لدى كلاما كثيرا أريد أن أقوله لك .

وأفسحت لى مكانا بجانبها فوق الأريكة . فنهضت وأنا أظن ان الفرصة قد حانت لاغتيالها . وجلست بجانبها . وكانت مائلة الى الوراء . تنظر إلى بعينيها الناعستين

كان عنقها وصدرها عاريين . فأدركت أن هذه أنسب فرصة لاتمام ذلك العمل البغيض الذى آليته على نفسي . ومن ثم رفعت يدى مرة أخرى لأقبض على خنجري . . بيد أنها أسرعت ، وقبضت على راحتى بلطف . . وأبقتها في يدها .

ثم قالت : أرى على وجهك سيماء التألم يا هارما كيس . فهل تشكو مرضاً ياصديقي ؟

فأجبت لاهثاً : نعم . . أشعر بألم شديد ! !

فقالت ، وهي لاتزال قابضة على راحتى .

— اذن اضطجع فوق الأريكة . واسترح . ستذهب نوبة الألم سريعا .

ولا ريب أنها كانت نتيجة السهر الطويل ومراقبة النجوم . ما أرق نسيم الليل العليل الذى يهب من تلك النافذة حاملا شذى الزهور . اصغ الى همس البحر . وصوت أمواهه وهى ترتطم بالصخور ، استمع الى تغريد البلابل الذى يأخذ بمجامع القلوب ! ! ليت شعرى . . ماأجمل الليل ، وأعذب موسيقى الطبيعة الشادية . اصغ إلى ياهارما كيس . لقد خمنت شيئا عنك . وخرجت من تفكيرى بأنك أيضاً من سلالة الملوك ، وان الدم الذى يتدفق فى عروقك ليس دما وضيعا ، ماذا ! اتنظر الى الرمز المنقوش على صدرى ؟ لقد رسم اجلالا لاوزوريس الذى أعبده كما تعبده أنت ياهارما كيس ! . انتظر ! .

فحاولت النهوض . ! ولكنى فشلت . . فقد خارت قواى . . واستولى على الضعف .

وتأوهت . . وقلت : دعينى انصرف .

— لا . . لم يحن الوقت بعد . . انك لا ترضى أن تتركنى الآن وحيدة ! اخبرنى ياهارما كيس .. الم يغز الحب قلبك من قبل ؟

— لا . . لا . . ايتها الملكة . . مالى والحب . . لا شأن لى به . دعينى اذهب . . فقد خارت قواى . . وأخذ منى الضعف كل مأخذ .

— ألم تذق طعم الحب ؟ هذا أمر غريب ولا ريب ! اذن مامعنى الحياة بالنسبة اليك ياهارما كيس ؟ .

وأخذت تقترب منى شيئا فشيئا . . الى أن طوقت عنقى بذراعها البضة ، وتنهدت ، ثم صوبت الى نظرة متسلطة من عينيها الزرقاوين العميقى الغور وابتسمت . تلك الابتسامة العذبة الرقيقة .

جعلت تدنو منى . . وقوامها البديع ينثنى . . الى أن لفحت انفاسها العاطرة وجهى . . ثم التقت شفاهنا

ويل لى أنا الشقى !

نسيت بهذه القبلة التى كنت أرجو ان تكون سهم الموت ، ازيس . ورجائى فى السماء . . واعانى وشرفى . . وبلادى . . واصدقائى . . بل نسيت كل شىء فى الدنيا .

نعم . . نسيت كل شيء . . ولم أحس غير أن صدر كليوباترا الفاتن يعلو ويهبط فوق صدرى . . وهى تدعونى بسيدها . وحبيبها .

وتنهدت كليوباترا .. وقالت :

— عاهدنى الآن على الحب . . واشرب هذه الكأس عربونا له

فتناولت الكأس . . وجرعت محتوياته حتى الثمالة . . وسرعان ما أدركت — ولكن بعد فوات الأوان — ان السائل الذى شربته مخدر .

وسقطت فوق الاريكة . . وبرغم أننى كنت أعى كل شيء . . فاننى لم أتمكن من الكلام . أو التحرك .

وانحنت كليوباترا فوقى . وأخرجت الخنجر من صدرى . ثم دفعت شعرها إلى الوراء . وهتفت :

— لقد انتصرت ! ! نعم . انتصرت . انتصرت من أجل مصر . لقد أردت إذن أيها الملك المنافس أن تفتك بى بهذا الخنجر . ها . ها . اعلم ان جيشك يحتشد الآن خارج أبواب قصرى ! أما زلت مستيقظا ؟ ! لا شيء يمنعنى الآن من أن أدفن هذا الخنجر فى صدرك

تألمت فأشرت إلى صدرى كى تنفذ وعيدها . فما كنت أتمنى غير الموت . ولكنها استوت واقفة . ورفعت يدها بالخنجر ثم هوت به إلى أن وخز سنه لحمى . ولكنها قذفت به فى عرض الغرفة . وهتفت :

— لا . انى أحبك . ومن القسوة أن أقتلك ! لقد رددت عليك حياتك فعش يا فرعون الضائع الساقط الذى انتصر عليك دهاء المرأة ! ! عش يا هارماكيس لتحتفل بفوزى وظفرى ! !

وضحكت ثم فقدت شعورى على الأثر

الفصل الثامن

يقظة هارماكيس

عند ما أفقت من نومى ، الفيتنى ممداً فى غرفتى . فانبعثت واقفاً فى حركة سريعة . ولم تساورنى الريبة فى اننى كنت أحلم . نعم ، لا يمكن أن يكون

ما رأيته غير حلم! لعمرى كم هو عزيز على نفسى أن أصحو من نومى،لأعرف انى خنت بلادى . وأضعت الفرصة الذهبية . وغدرت برفاقى . ومساعدى

أواه ! ما أروع الحلم الذى رأيته !! لا ريب أن حلماً آخر يماثله يقضى على أشجع الرجال . ولـكن بفرض أن ما رأيته كان أوهاما صورها لى عقلى المضطرب ، فأين أنا الآن ؟! أين أنا ؟! كان يجب أن أكون فى قاعة المرمر فى انتظار عودة شارميون

أين أنا ؟ ؟ وأنت أيتها الآلهة ! ! ما هـذا الشىء المخيف الذى له شـكل انسان ؟ هذا الشىء الملفوف فى ثوب أبيض ملطخ بالدماء ، وقد وضع بحالة مروعة عند طرف الفراش الذى كنت نائما عليه ؟ !

وثبت كالليث . وصرخت صرخة داوية ثم لطمت ذلك الشىء بكل قوتى فتدحرج (الشىء) .

وتملـكنى الذعر . فانقضضت على الغطاء الأبيض ، ومزقته . فاذا بى أرى جثة رجل ربطت ركبتاه الى فكه المدلى .

ولم يكن هذا الرجل غير الضابط يوليوس الرومانى .

ومن جرح فى صـدره كان الدم ينزف بغزارة . وخنجرى مدفون فى صدره . بينما تدلت من عنقه ورقة كتب عليها بالرومانية :

(تحيتى يا هارما كيس !أنا يوليوس الرومانى الذى أغريته . فانظر عاقبة الخونة المارقين)

ترنحت الى الوراء . وقد خارت قواى من هول ما رأيت . . وأدركت فى هذه اللحظة أنى لم أكن حالما . وانى فشلت ! وهلـكت !

وتذكرت أبى أمينمحعت . وتمثلت أمامى هيئته ، وقد جاءوا ينبئونه بما لحق ابنه من العار وضياع الآمال . وتذكرت خالى سيبا ، وتمثلته واقفاً مع رجاله خارج الاسوار طول الليـل فى انتظار الاشـارة التى لم تأت . . ترى ماذا حل بهم ؟

وحاولت أن أقنع نفسى بأنى لم أكن خائنـاً وحدى . فقد خدعت أنا أيضا . . ولـكن ترى من خدعنى ؟ ربمـا كان يوليوس . .

وتحسست القوائم السرية التى كانت فى جيبى .. ولـكنى لم أجد لها أثرا .
أواه ؟ لقد هلك رفاقى أيضا ! !

أصابنى الدوار لهذه الفكرة المؤلمة .. فسقطت فاقد الشعور . . وعندما تنبهت من اغمائى ، أدركت من ظل الشمس الطويل أن الوقت بعد الظهر .
فقمت وأنا اترنح . . وكانت جثة الضابط يوليوس لا تزال ملقاة عند طرف الفراش .

واندفعت صوب الباب،واليأس يمزق قلبى . ولـكنى الفيته موصداً باحكام وسمعت صوت الحراس فى الخـارج . . وأيقنت انهم يصوبون أسنة رماحهم نحو الباب ..

ومضت فتره ليست بالقصيرة . وفتح باب الغرفة . . ودخلت كليوباترا المنتصرة بثيابها الملـكية الفاخرة .

ثم أغلق الباب وراءها .

جمدت فى مكانى .. ولم أدر ماذا أفعل . . وتقدمت كليوباترا منى . . الى أن وقفت قبالتى .. ثم قالت وهى تبتسم برفق :

— السلام لك يا هارما كيس . أرى رسولى قد عثر عليك (وأشارت إلى جثة يوليوس) ما أروع شكله !. أيها الحراس !

ففتح الباب فى التو . ودخل حارسان مدججان بالسلاح .

فقالت كليوباترا : احملا هذه الجثة . والقيا بها إلى الطيور . لـكن مهلا اخرجا هذا الخنجر من صدر الخائن أولا

فامتثل الرجلان ووضعا الخنجر فوق المنضدة . وهو يقطر دما . ثم حملا الجثة . وخرجا بها وهما يترنحان . ثم شرعا يهبطان الدرج .

وإذ تلاشى وقع أقدامهما . قالت كليوباترا :

— أظن أنك فى حالة سيئة يا هارما كيس . !ما أعجب تصرفات القدر لقد كاد يصيبنى ما أصاب ذلك الخائن يوليوس . وكادت هـذه الدماء التى تقطر من الخنجر أن تـكون دمى .

فتبلجت الحقيقة أمام عيني . وأدركت أن يوليوس هو الذى وشى بى
واستطردت كليوباترا : نعم . كنت أعلم أنك قادم لاغتيالى أمس . ولم يخف عنى أنك تقبض على مقبض خنجرك كلما رفعت يدك إلى صدرك . وأنك تستجمع قواك لترتكب تلك الجريمة المروعة التى لم تكن شديد الميل لارتكابها . آه ! كم كانت ساعة رهيبة ! ولست أكتمك أننى طالما تساءلت لمن تكون الغلبة . أنت ام أنا . فكلانا كان يحارب صاحبه بسلاح المكر . والخداع . والقوة .

نعم . إن رجال الحرس خارج غرفتك . ولكن لاتوجس شراً . فلولا علمى بأننى اقيدك بقيود أقوى من السلاسل والاصفاد . وأننى أحتمى من شرك بسياج من الشرف يصعب عليك اجتيازه أكثر من تخطى رماح جميع جيوشى وحراسى . أقول لولا اننى واثقة من ذلك كله . لكنت الآن فى عداد الاموات .

انظر . هوذا خنجرك .

ثم دفعت الخنجر إلىّ . وكشفت عن صدرها . وعنقها . . واستطردت :

— اقتلنى إذا استطعت .

وراحت ترمقنى بعينين ملؤهما الطمأنينة والهدوء . واستتلت :

— انك لا تستطيع قتلى .. فثمة أشياء لا يستطيع انسان مثلك أن يعملها ويعيش .. ومن أهم هذه الأشياء أن يقتل الرجل المرأة التى هى له . . لا .. لاتحول سن الخنجر الى صدرك . لأنك ان لم ترد قتلى . . فاحرى بك الا تقتل نفسك ياكاهن ايزيس . ونا كث عهدها ! هل تتوق الى مواجهة ذاك الجلال الذى انتهكت حرمته فى (امنتى) ؟ بأية عين تظن أن (الأم) تنظر إلى ابنها الذى جاء ليرفع اليها فروض الولاء وهو يرتدى ثوب الخزى والعار . بعد أن حنث باقدس الايمان . ثم تخاذل فى النهاية وقتل نفسه ! ! أين تجد المغفرة ياصديقى إذا رغبت فى التوبة ؟ !

كاد قلبى يتمزق من فرط الاسى والألم . فقد نطقت كليوباترا بالصدق ..

ولم أجد فى نفسى الشجاعة على الانتحار ! ! نعم .. وجدت نفسى فى مأزق لا اجرؤ فيه حتى على الموت .

فتهالكت فوق الفراش .. وبكيت .

بكيت بدموع الألم . والحسرة . بيد أن كليوباترا دنت منى . . وجلست بجانبى . وحاولت أن تعزينى ، وتسرى عنى . فطوقت عنق بذراعيها . . وقالت : لا ياعزيزى . انظر إلىّ ! ! انك لم تفقد كل شىء . فأنا لست ناقمة عليك فكلانا قام بدوره خير قيام ، ولكنى قاومت سحرك بسحرى النسائى فانتصرت فى النهاية .

لست ألومك فى الواقع على الجهود التى بذلتها لاستعادة العرش الذى استولى عليه آبائى . ولو كنت مكانك لفعلت ما فعلت . ولما ترددت فى الاقدام على العمل الرهيب الذى أقسمت أن تتمه .

نعم يا هارما كيس . انى أعطف عليك من هذه الناحية ، عطفى على كل عمل عظيم يدل على الجرأة والبسالة . ولست ألومك على حزنك لما أصابك من فشل . ومن هنا كان عطفى عليك كامرأة ، امرأة والهة

قليلون من يعرفون حقيقة عواطفى وميولى . ليس فى مصر كلها من يخفق قلبه بحب مصر مثلما يخفق قلبى . . حتى ولا قلبك ياهارما كيس . . ولكنى مغلولة اليدين بسبب الحسد والغيرة والبغضاء . حتى صرفتنى عن العمل لرفاهيتها .

ولكنك ستدلنى كيف أعمل لسعادة مصر . . لأنك ستكون مستشارى وحبيبى . هل تظن أنه من الهين أن تأسر قلب كليوباترا .. ذلك القلب الذى أردت أن تسكته إلى الأبد بطعنة من خنجرك ؟ . نعم ستكون أنت حلقة الاتصال بينى وبين شعبى ياهارما كيس .. وسنحكم معا . . ونربط بين المملكتين الحديثة والقديمة . . ونعمل على تحسين حال الفلاح . . وتصعد أنت الى عرش فرعون من سبيل سهل . شريف .

اصغ الى يا هارما كيس . . سأعمل على ستر خيانتك بقدر المستطاع . . صحيح انى اطلعت على وثائقك السرية وأمرت بتشتيت المتآمرين . ولكنى

سأحاول جهد طاقتى أن أعفو عنهم من أجلك

• فرفعت رأسى .. وسألتها : وماذا أصاب الذين معى .. أولئك الذين وضعوا ثقتهم فىّ ؟

فنهضت . ووضعت يدها فوق ذراعى . ثم قالت :

ـــ قلت لك إننى سأعفو عنهم من أجلك .. واقسم بعرشى . وبجميع آلهة مصر الا أمسس شعرة واحدة من رأس أبيك امينمحعت .. وإذا لم تكن الفرصة قد ضاعت فسأعفو أيضا عن خالك سيبا ومن كانوا معه .. فهل أنا امرأة قاسية كما يدعون ياهارما كيس ؟ ! ان فى قوائمك أسماء قوم يستحقون الموت ،ولكنى لن أنكل بهم .

وضحكت ثم استطردت : ولكنى لن أمنحك ذلك كله بدون مقابل .. عليك أن تشترى ذلك منى .. وأما الثمن فباهظ جداً .. انه قبلة ياهارما كيس

فاجفلت وأشحت بوجهى عنها . وأنا أقول :

ـــ لا . هذا ثمن باهظ .. لن أقبل أحدا بعد الآن

فعبست . وقالت : فكر فى الأمر . واختر لنفسك ما يحلو . قارن أيها الكاهن الموقر بين عبء حبى الثقيل . وموت أبيك الشيخ .. والذين تآمروا معه .

كانت غضبى . وعيناها متوقدتين . وصدرها يعلو ويهبط . فأدركت انها قد بتت فى الأمر . وألا شىء يثنيها عن عزمها ..

وتنهدت . ثم قبلتها . وبذلك سجلت عارى . واستعبادى .

وابتسمت كليوباترا ابتسامة الفوز والظفر .. ثم مضت عنى وقد احتفظت معها بالخنجر .

وحرت فى تفسير تصرفها هذا . ولم يدر بخلدى انى خدعت .. وانها خشيت أن تقتلنى ليقينها ان المؤامرة ما زالت قوية . وانها اذا قضت على هبت ريح الثورة وقذفت بها من فوق عرشها ..

لم أدرك انها انما عفت عن شركائى بدافع من خوفها .. ولاعتبارات سياسية .. ومهما يكن فقد برت كليوبترا بوعدها .. واطلقت سراح الجميع

الفصل التاسع

سخرية شارميون

قضيت احد عشر يوما وأنا سجين في غرفتي . ولم أر خلال هذه المدة أحدا غير الحراس والعبيد الذين كانوا يحملون الى الطعام والشراب .

وكانت كليوبترا تكثر من زيارتي . ولا تدخر وسعا فى احاطتي بكل ضروب الحب والعطف . . بيد انها تجنبت كل اشارة الى ما يدور خارج القصر . .

وكثيرا ما حولت مجرى الحديث الى نظام الحكم فى مصر . . ثم تسألنى عما عساى اقترحه لاسعاد الشعب وصد مطامع الرومان . وارهابهم . فكنت أجيبها بادىء الأمر بتحفظ وألم . . ولكن سرعان ما آنست اليها . فرحت أحدثها بمقترحاتى . . وكانت تصغى الىّ بفرح لا يوصف . .

وهكذا أخذت كليوبترا تتغلغل فى أعماق قلبي . الى أن تعلمت كيف أحبها . . بل لقد طغى حبها على كل شيء آخر . . فلم أعد أفكر إلا فيها ، مع انها أصل ذلي وبلائي . .

واتفق أن جاءت كليوباترا لزيارتى ذات يوم . وقالت انها جاءت على عجل من مجلس عظيم عقد للنظر فى حروب انطونى فى سوريا . ثم جلست قبالتى ضاحكة . . وقالت انها سئمت حديثهم . . فاعتذرت لهم بورود رسالة من روما . . ثم استأذنت فى الانصراف . . على أن تعود اليهم بعد قليل

وفجأة . انبعثت واقفة . ثم خلعت التاج الملكى . وثبتته فوق رأسى . كما وضعت العباءة الملكية على منكبي

وقدمت الىّ صولجانها .

وجثت أمامى . . وضحكت مرة أخرى . . ثم أحاطت عنق بذراعيها . وقبلتنى .. وقالت اننى ملكها .. وانها اطوع لى من بنانى .

وتذكرت حفلة تتويجى فى معبد ابوثيس . . وا كليل الزهور الذى توجتنى به كليوباترا (ملكا للحب) . فثارت ثائرتى . وعصف الغضب بين جنبى . فقذفت بالتاج ، والعباءة ، والصولجان ، فوق الأرض .

وزأرت فى وجهها :

— كيف تجرؤين على السخرية منى . أنا طائرك الحبيس ؟

وراعتها هيئتى . . فتراجعت إلى الوراء . وقالت : أنا أسخر منك ..

وغضت من بصرها . واستطردت فى لهجة عذبة :

— اصغ إلى يا هاركيس . لقد اعتزمت الاقتران بك . فكف عن الاضراب عن تناول الطعام . فقد أبلغنى العبيد ذلك . ثم ان اصفرار وجهك خير شاهد على مايقولون . اننى لم استبقك فى الأسر إلا لأنك عزيز على نفسى . ومحافظة على شرفك وحياتك بعد ماذاع من خيانتك لقضية مصر . ومهما يكن فسأطلق سراحك غداً . وستظهر فى البلاط مرة أخرى بوصفك منجمى .

ثم استأذنت ، وانصرفت ، بعد أن وعدتنى خيراً .

لم يبق لدى ثمة شك فى أن كليوباترا تنوى الزواج بى رسمياً . وما زال هذا اعتقادى حتى الآن . فقد كانت جميع تصرفاتها معى تعزز هذا الاعتقاد

وجاءت شارميون لزيارتى فى اليوم التالى . ولم أكن قد رأيتها منذ تلك الليلة التى اكتسيت فيها ثوب العار .

واجهتنى الفتاة بوجه مصفر . وأرخت عينيها الى الارض . ثم قالت بصوت رقيق : أرجو المعذرة لتجرؤى على القدوم اليك بدلا من كليوباترا ولكن لاتحزن لأنها ستأتى فى التو .

فانتفضت لهذه الكلمات اللاذعة . وأدركت الفتاة سوء حالى . . فاستطردت :

— لقد جئت اليك يا هارما كيس ، يامن لم تعد ملكا ، لأقول لك انك مطلق السراح وأنك حر فى مواجهة عارك ، ورؤيته مجسما فى كل عين وضع صاحبها فيك ثقته . جئت لأقول لك إن المؤامرة التى قضى المصريون الأبطال عشرين عاما فى تدبيرها قد قضى عليها قضاء تاما . وتشتت شمل مدبريها . فخمدت الزوبعة قبل أن تثور . وكل ذلك بسبب خيانتك

فتأوهت . وقلت : لم يكن الذنب ذنبي . فقد خاننا يوليوس

— لم يخنك أحد . بل أنت الذى خنت العهد . لماذا لم تقتل كليوباترا وأنت منفرد بها . ؟ تكلم يا خائن !

— لأنها وضعت لى مخدرا فى كأس الشراب

— واحسرتاه يا هارما كيس . إنك بعت وطنك . وقضيتك لقاء قبلة بغى . ولكن مهلا . فليس ببعيد ذلك اليوم الذى تراه هى ملائما لتطأك بقدميها كشيء قذر

فانتفضت مرة أخرى . وآلمتنى كلماتها التى تقطر سخرية . ومقتا . ولكنى تجلدت وسألتها بصوت حزين : ولكن كيف لم تعرف كليوباترا بأنك كنت أحد المتآمرين ؟

— لم يكن اسمى مدونا فى القوائم .

وأمسكت هنيهة ثم استطردت : إن الفرصة سانحة للوشاية بي . فلماذا لا تنتهزها وتغدر بى لأنى أحببتك فى أحد الأيام . نعم . هل تذكر حبي ؟ إننى أكثر الناس شعوراً بفداحة سقوطك . فان العار الذى يلحق بمن نحب لا بد أن يلحقنا كذلك . مهما كانت نذالة ذلك الشخص .

وقلبت شفتها احتقاراً . وأردفت : من سوء الحظ أن وقتى لا يتسع لتبادل الحديث . . إننى جئت لأقول لك إنك مطلق السراح . وأن كليوباترا تنتظرك في قاعة المرمر

وهكذا اعيدت إلى حريتى . ولكنها كانت حرية لفظا . فان الرقابة كانت شديدة جداً . حتى لم أكن أستطيع أن أتجاوز فناء القصر .

وذات يوم وصل كونيتوس دليوس الرومانى المخاتل . وكان يحمل

رسالة لكليوباترا من مارك انطونى أحد أعضاء الحكومة الثلاثية ، الذي كان يقاتل فى آسيا فى تلك الاثناء .

واستقبلت كليوباترا الرسول استقبالا رسميا رائعا فى القاعة الكبرى . وجلست فوق عرشها الذهبي يحف بها شخصى وضباط البلاط . والوصيفات .

وأمرت الملكة رجال التشريفات أن يأتوا بسفير انطونى . ففتحت الابواب الكبرى . ودخل الرسول الرومانى . بين قرع الطبول ، وتحية الحراس . وكان يلبس درعا ذهبيا لامعا . وعباءة قرمزية من الحرير . يتبعه ضباطه عن كثب .

وبينا كان رجال التشريفات يعلنون اسم دليوس . والقابه . ومناصبه . كان هذا يحدق فى وجه كليوباترا وهو يكاد يلتهمها بعينيه

وفرغ رجال التشريفات من مهمتهم . . ولكن الرسول ظل على جموده لاينطق بكلمة . . فقالت كليوباترا باللاتينية :

— السلام لك أيها النبيل دليوس . . رسول انطونى البطل العظيم . . تكرم أيها الرسول وابسط لنا الغرض من قدومك .

ولكن الرسول الماكر ظل على صمته . . فهتفت كليوباترا :

— لماذا لاتتكلم ايها النبيل . ؟ هل من شيء يعقل لسانك ؟

فخرج الرسول من صمته أخيراً . . وأجاب :

— أرجو المعذرة ياملكة مصر الحسناء . . فان الجمال المفرط كالموت يعقل الألسنة . ولاعجب ان انا وقفت مشدوها ، مأخوذاً أمام فتنتك وملاحتك

ثم ابتسم وأردف : ان معى رسائل لك ايتها الملكة بخط انطونى النبيل ، وختمه . . فهل تسمحين أن أقرأها على رؤوس الاشهاد

فأومات كليوباترا . . وفض الرسول الاختام . . وقرأ مايلى :

« باسم الحكومة الرومانية الثلاثية ارسل ، أنا مارك انطونى احد اعضاء هذه الحكومة ، تحياتي إلى كليوباترا ملكة مصر العليا والسفلى التى تحكم بفضل الشعب الرومانى . .

لقد بلغنا انك قد ساعدت الثائر كازيوس ، عن طريق النيوس وسرا بيون حاكم قبرص ، ضد جيوش الحكومة الثلاثية النبيلة مما يتعارض مع وعودك . وواجباتك . .

وحيث اننا علمنا انك تعدين أسطولا عظيما لهذا الغرض .

فبناء عليه . ندعوك للقدوم الى قليقيه فى الحال . ومقابلة النبيل أنطونى لكى تجيبى بنفسك على هذه الاتهامات . . وتتذكر انك ان عصيت أمرنا هذا عرضت نفسك للخطر . والسلام »

تألقت عينا كليوباترا وهى تصغى الى الرسالة . . وقد رأيتها تشدد الضغط على جانبى عرشها المصنوعين على هيئة أسدين ذهبيين . . ثم قالت :

— قد سمعنا كلمات التملق والمداهنة . . وها نحن نسمع كلمات التهديد والوعيد . . اصغ إلى يادليوس . . إن التهم التى تكيلونها إلى فى رسالتكم ليس لها نصيب من الصحة بتاتا . . فعد الى سيدك وقل له ان البحر أمامه . . فان شاء محاسبتنا ! فليأت الينا . . وسنستقبله استقبال الملوك .

فابتسم الرسول ليخفى غضبه . . وقال :

— انك لا تعلمين شيئا عن أنطونى النبيل . . فهو عنيف فى كتابته ، ولكنه أرق حاشية عند اتصالك به . . ففكرى فى الأمر . . ولا تردينى اليه بهذا الرد الجاف . فيعمل على الثأر منك وينقض على بلادك كما تنقض الصاعقة . أتوسل اليك أن تلبى هذه الدعوة . . تعالى الى قليقية . تعالى ومعك هداياك ولاتأتى على رأس جيوشك . . بل تعالى بجمالك وزينتك ولا تخشى شرا من انطونى النبيل .

وأمسك وهو يرمق كليوباترا بنظرة ذات مغزى ، فغلى الدم فى عروقى . ولم يخف معنى كلماته على كليوباترا ، فاعتمدت ذقنها بين راحتيها ، وبدت على وجهها أمارات التفكير العميق .

وأخيرا قالت :

— هذا أمر يحتاج الى كثير من التروى وانعام النظر ، فامهلنا عشرة أيام كى نتدبر جوابنا على رسالة النبيل أنطونى .

فاطرق الرسول هنيهة ، ولم يلبث أن أجاب باسما :

— ليكن ما تشائين ايتها الملكة . . سانتظر عشرة أيام ريثما تفكرين في الجواب .

وأومأت كليوباترا . فقرعت الطبول مرة أخرى . . وانسحب دليوس وضباطه وهم يحيون الملكة باحناء رؤوسهم

الفصل العاشر

متاعب كليوباترا

استدعتني كليوباترا لمقابلتها في غرفتها الخاصة . . ولما ذهبت ، الفيتها قلقة مضطربة . تروح وتغدو في غرفتها كالطير الحبيس . .

وإذ دخلت عليها . جلست فوق أحد المقاعد . ثم مدت إلى يدها . وقالت :

— أهذا أنت ياهارما كيس . لقد استدعيتك لأسألك النصح والهداية . هل تعلم ان حياتي أصبحت جحيما لايطاق . فانني لم أكد أنجو من سن خنجرك باعجوبة حتى دهمتني هذه المشكلة العويصة . كعاصفة تجمعت وراء الأفق . ثم ثارت فجأة . أرأيت إلى هذا النمر المتأنق ؟ ! وهل سمعت ماجاء في رسالة انطوني من قوارص الكلام ؟ ! إنني أعرف انطوني حق المعرفة ، فقد رأيته قبل بلوغي سن الرشد : وهو رجل يجمع بين الحذق والحماقة . سهل الانقياد إذا ماتغلبت عليه شهواته . ولكنه اذا غضب انقلب إلى عدو شديد المراس . وفوق ذلك فهو كريم الخلق ، باسل ، محب للنساء . والخمر .

هذا هو انطوني . . فكيف ترى إلى هذا الرجل الذي رفعه القدر الى قمة المجد رغم إرادته ؟ وبم تنصح لمجابهته . والوقوف في وجهه ؟

فاجبت : إن انطوني ليس الا بشراً . له نقطة ضعف . ويمكن التغلب عليه بمهاجمته من هذه الناحية .

— هذا صحيح . ولكنه واحد من أعضاء الحكومة الثلاثية . فهناك ليبدوس وذلك الشاب اكتافيوس . فلو أني ذهبت إلى قليقية ، ولم أتفق مع انطوني . لسارع بعقد الصلح مع رفيقيه . وانقض على مصر كالعقاب الكاسر

فما العمل ياهارما كيس ؟ .

— ما العمل . . نصده عنها . ونرغمه على العودة إلى روما .

— ربما كان ذلك مستطاعا لو انك نجحت فى مؤامرتك ، وارتقيت عرش مصر . . لأن الشعب كان يقف من خلفك يشد ازرك . . ولكن المصريين يبغضوننى . ويحقدون على . . ثم اننى لا أملك المال اللازم لاستئجار الرجال الذين يلقون بأنفسهم إلى ساحات الحروب .

وأمسكت هنيهة . واقتربت منى . وسلطت على سحر عينيها القاهرتين ، وقالت :

ـ اصغ إلى يا هارما كيس .. هل تستطيع أن تنبئنى ـ بوصفك كاهن الاهرامات الأكبر ـ بما إذا كانت هناك كنوز مخبأة فى جوفها .

اننى بحاجة إلى المال لانقاذ وطنك .. وانقاذ نفسى ، أنا حبيبتك ، من ايدى مارك انطونى . . فهل صحيح ما يقال عن كنوز مدفونة داخل الاهرامات ؟

فأطرقت هنيهة . ثم أجبت :

— بفرض صحة هذه الأشاعات كيف يمكننى أن أثق بانك ستستخدمين هذه الثروة لهذه الغاية النبيلة .؟

فسألت بلهجة تشف عن القلق :

— اذن فهناك كنز ! كلا . . لا تبعث السآمة والضجر إلى نفسى يا هارما كيس. لأن الذهب بالنسبة إلى فى مثل هذا الوقت العصيب اشبه بالماء يقع عليه الظمآن وسط الصحراء .

— نعم . . هناك كنز ، ولو أننى لم أره . ولكننى أعلم أن صاحبه قد سجل فوقه ما معناه أنه يلعن إلى الأبد كل من يستولى عليه لأغراضه الخاصة ولذا لم يجرؤ أحد من الفراعنة الذين رأوه على أخذ شىء منه . برغم حاجتهم الماسة اليه ..

— هل لك أن ترينى هذا الكنز يا هارما كيس ؟

فأجبت بصرامة : لن أفعل ذلك الا إذا اقسمت انك ستنفقينه فى الدفاع

عن مصر ضد انطونى . وفى كل ما يعود بالخير على البلاد وأهلها .

فقالت بلهجة جدية :

— انى اقسم . بل أقسم بحق كل اله فى مصر انك إذا أريتنى هـذا الـكنز العظيم ، فانى اتحدى انطونى . وأعيد دلبوس إلى قليقيه برسالة أشد قسوة من الرسـالة التى حملهـا إلى . نعم .. وسـأفعل اكثر من ذلك يا هارما كيس . سأتخذك زوجا شرعيـا .. واكل اليك انفـاذ خططك ومشروعاتك فى صد نسور الرومان عن مصر .

نطقت كليوباترا بهذه الـكلمات . وهى تنظر إلى بعينين ملؤهما الصـدق والاخلاص . فصدقتها . ولم تخالجنى الريبة فى نواياها . بل وشعرت لأول مرة منذ فشلى وسقوطى بشىء من السعادة وراحة الضمير . فقد خيل إلىّ انى لم أفقد كل شىء بعد ، وأنى سأنال مع معبودتى كليوباترا ما فقدت من سلطة وجاه ! . .

قلت : أعيدى القسم يا كليوباترا

فاعادته . . وختمته بقبلة حارة .

وبدأنا نتحدث عما سنفعله بعد الزواج . وكيف نتغلب على جنود انطونى وهكذا خدعت مرة أخرى . ولو أننى أعتقد أنه لولا غـيرة شارميون ، لتزوجت بى كليوباترا . وانقطعت صلتها بانطونى .

واتفقنا على الرحيل فى الغد . على أن نبـدأ فى البحث عن الـكنز بعـد ليلتين . .

وفى فجر الغد ، أعد المسئولون زورقا . ذهبت اليه كليوباترا متنكرة فى ثياب سيدة مصرية تريد الحج الى هيكل (هورم ـ خو) . ورافقتهـا وأنا متنكر فى ثياب الحجاج . وبرفقتنا عشرة من خدمها المخلصين فى ثياب النوتية

وصلنا الى (صا الحجر) عند منتصف الليل ، واسترحنا حتى الفجر . ثم استأنفنا السفر . وعند ما انحدرت الشمس نحو الأفق ، كنا قد وصـلنا إلى حصن بابليون . وهناك رسا بنا الزورق على الضفة الثانية من النهر . . ونزلنا الى البر

وانطلقت وكليوباترا . وخصى واحد ، قاصدين الاهرامات . وكانت منا على بعد فرسخين . وبينا كنا نخترق حقلا ، رأيت حمارا يرعى . فامسكته . والقيت فوقه عباءتي . ثم عاونت كليوباترا على امتطائه . وقدته في الطريق الموصل الى منطقة الاهرام .

وبعد ساعة . لاحت لنا الاهرامات على البعد .

واجتزنا مدينة الأموات . وتسلقنا التل الصخرى . ثم انطلقنا بين صفين من القبور . حتى وصلنا الى الهرم الثالث .

وتوقفنا .. وراحت كليوباترا تنظر الى الهرم بدهشة . وتعجب .

ثم سألت : هل هذا هو المكان الذى خبىء الكنز في جوفه ؟

فأجبتها بالايجاب .. ومن ثم درنا حول الهرم ، إلى أن وصلنا إلى جانبه الشمالى . حيث نقش فى منتصفه اسم (منقرع) فرعون مصر الذى شيده ليكون مقبرة تضم رفاته . . ووضع به ذلك الكنز السرى ليسد حاجات مصر وقت الشدة . .

قلت لكليوباترا : ان الكنز مخبأ فى بطن الهرم . . فهل أنت على استعداد للتعرض للمخاطر فى سبيل الحصول عليه ؟ .

فقالت وقد أخذت قواها تخور :

— ألا تستطيع الدخول مع الخصى .. وتأتيان بالكنز ياهارما كيس ؟

— لا .. لا أستطيع اتيان هذا العمل . ولوكان ذلك لأجلك ، أولأجل خير مصر . لأنه أعظم جرم يقترف . . بيد أن منصبى الكهنوتى يبيح لى أن أرى ملك مصر المكان الذى دفن فيه الكنز ، اذا طلب إلىّ ذلك . . وأن أريه كذلك الانذار المكتوب . . ولفرعون بعدئذ أن يقدر مبلغ حاجته إلى المال وهل تكفى هذه الحاجة لتحدى لعنة الميت ؟

لقد جاء فى السجلات التى قرأتها أن ثلاثة ملوك أقدموا على استخراجه وقت الحاجة . . وهم : الملكة المقدسة حتشبسوت . وأخوها تحتمس . . ثم المقدس رمسيس — ميامون .. ولكنهم لم يجرؤوا على مس الكنز . بعد أن اطلعوا على نص اللعنة . وأدركوا أن حاجتهم إلى المال لاتوازى التعرض لها ..

فأطرقت كليوباترا هنيهة . . وأخيراً هتفت :

— مهما يكن . . لابد ان أرى كل شيء على الأقل . .

— على رسلك .

وبدأت ارفع الصخور ، بمساعدة الخصى ، وأضعها بعضها فوق بعض في بقعـة معينة عند قاعدة الهرم . إلى أن بلغ ارتفاعها نحو متر ونصف متر . فاعتليتها . وبحثت عن العلامة السرية . . ثم دفعت الصخرة المرسـومة فوقها العـلامة بكل قوتي . وبطريقة معينـة . فدارت الصخرة . . وكشفت عن مدخل ضيق لا يكاد يتسع لمرور شخص واحد . .

ولم تكد الصخرة تدور حول نفسـها . . حتى خرج من بطن الهرم خفاش غريب الخلقة . أبيض اللون . . شبيه الدهر . . لم يقع بصرى من قبل على خفاش في مثل حجمه إذ كان في حجم عقاب كبير . .

وحلق الخفاش هنيهة فوق كليوباترا . ثم ارتفع في الجو . وسرعان ما اختفى عن أعيننا .

وصرخت كليوباترا صرخـة مروعة . وسقط الخصى على وجهه . وأما أنا فدب الذعر في قلبي . . ولـكنني لم أنبس ببنت شفة . . ولو أنني لا أزال أعتقد أن روح منقرع قد اتخذت هيئة خفاش . وطارت من منزله المقدس منذرة إيانا بمغبة عملنا .

تريثنا قليلا . ريثما نفـذ شيء من الهواء النقى إلى داخـل الهرم . ثم أخرجت ثلاثة مصابيح وأوقدتها . ثم أعطيت لـكل من رفيقى مصباحا . . واحتفظت لنفسى بالثالث .

وتسلقت الى الفتحة حاملا معى حبلا طويلا ، لففته حول خصرى . ثم أشرت لكليوباترا لتلحق بى . فلفت رداءها حول جسمها . ثم جـذبتها الى أعلى حتى وقفت ورائي في الدهليز .

ولحق بنا الخصى . وأخرجت دليل الممر الذى جئت به معى . وقرأت ما يحتويه

ثم سرت في الطليعة . فعـبرنا المنحدر على ضوء المصابيح الضئيل ، وكنا

نلهث من تأثير الهواء الحار الكثيف .

واذ اجتزنا المنحدر . أخذنا نهبط في دهليز نحت في قلب الصخر ، وكان شديد الانحدار إلى مسافة عشرين خطوة تقريبا .

وبعد قليل ألفينا أنفسنا في غرفة مطلية باللون الأبيض ، وكانت منخفضة السقف ، فجلست كليوباترا لتستريح قليلا ، ولكنني قلت معترضا :

— انهضي ، يجب ألا نتلكأ هنا ، وإلا أغمى علينا

فنهضت ، وواصلنا السير الى أن بلغنا بابا ضخما من الجرانيت ، فأخرجت الدليل مرة أخرى ، ثم ضغطت على حجر معين بقدمي . وتمهلت قليلا . فتحركت الصخرة فجأة إلى أعلا من تلقاء نفسها ، فسرنا من تحتها . إلى أن وجدنا أنفسنا أمام باب ثان من الجرانيت ، فضغطت مرة أخرى على حجر معين . فانفتح الباب ، واجتزناه . ولم نلبث أن وجدنا أنفسنا أمام باب ثالث أشد ضخامة من البابين السابقين .

ضربت هذا الباب ، كما جاء بالدليل ، في بقعة معينة ، فهبط ببطء وهدوء ، الى أن صارت حافته العليا في مستوى الأرض التي نقف عليها . . فعبرناه وانطلقنا في دهليز قليل الانحدار الى أن وصلنا الى غرفة كبيرة متسعة ، في أرضها تابوت كبير من الجرانيت ، نقش على غطائه اسم زوجة الملك منقرع والقابها .

ولم نتوقف في هذه الغرفة . بل استأنفنا سيرنا الى رواق في نهايته بئر عمقها سبعة أذرع . فربطت طرف الحبل الذي جئت به معي حول وسطي وربطت طرفه الآخر الى نتوء من الصخر ، ثم هبطت والمصباح في يدي . إلى أن وقفت في المكان الذي اختاره منقرع ليكون قبره الأبدي .

وبعد هنيهة لحقت بي كليوباترا ، واما الخصي فقد أمرته بان ينتظرنا عند فوهة البئر . فاطاع كارها .



الفصل الحادى عشر

استخراج الكنز

وقفنا داخل غرفة صغيرة مقوسة السقف مرصوفة بكتل ضخمة من الجرانيت كانت تضم بين جدرانها تابوت منقرع المقدس منحوتا فى صخرة واحدة من البازلت على شكل منزل خشبي يرتكز على وجه أبى الهول ذى وجه من ذهب

وقفنا نتطلع اليه فى رهبة يحف بنا سكون المكان وجلاله . وفوقنا يربض الهرم الاكبر يكاد يناطح السحاب . بينا نحن فى الاعماق تحتضننا الصخور الموجودة أسفل القاعدة .

كنا وحيدين مع ساكن القبر الذى جئنا لاقلاق راحته . ولا شيء حولنا من علائم الحياة وسط ذلك السكون الموحش .

تطلعت إلى التابوت وكان غطاؤه مرفوعا وملقى على احد جانبيه . وبجواره تجمعت الأتربه طبقات فوق طبقات

أشرت الى نقش على الجدار بالرموز المقدسة القديمة وقلت هامسا :

— انظرى فاجابت كليوباترا بصوت خافت :

— اقراها ياهارماكيس لأنى لا أستطيع

فقرأت ما يلى :

« أنا رمسيس ميامن — قد زردت هذا الضريح وقت العسرة . بيد اننى على رغم شدة حاجتى لم أجرؤ على مواجهة لعنة منقرع .. فلتكن لك ، يامن ستأتى بعدى ، من ذلك عبرة .. فان كنت طاهر النفس نقيا . وكانت مصر فى أقصى حالات الفوز . . فخذ ما خلفته »

فهمست كليوباترا :

— أين ذلك الكنز إذن ؟ . أهو ذاك الوجه الذهبي لأبى الهول ؟

فأجبتها مشيراً إلى التابوت : إنه هناك . . اقتربي وانظرى

فاقتربنا متكاتفين . . وأزلت الأتربة العالقة بالرفاة الموضوعة بأسفل

التابوت فاذا تعويذة من « نوت » كتبت لتحميه وتدفع عنه شر أعدائه وتهجمهم

فأعادت كليوباترا سؤالها : أين ذلك الكنز إذن ؟

فطلبت اليها أن تقف عند رأس التابوت بينا وقفت عند مؤخرته وتطلعت إلى جثة فرعون المحنطة المربوطة بعصائب اصفر لونهـا بتأثير الزمن ووضعت تحتها سيقان زهر اللوتس وكان على صدره لوحة كبيرة من الذهب سطرت بكتابة مقدسة . وكانت كما يلى :

« أنا منقرع ــ الراقد فى احضان أوزوريس . أنادى من قبرى من سيجلسون على العرش من بعدى . . لقد حذرتني الآلهة فى إحدى الرؤى أن سيأتى يوم تخشى فيه مصر السقوط بين أيدى الأجانب . وسيكون حاكمها فى حاجة ملحة إلى المال لتجهيز الجيوش لطرد المتبربرة من بلاده . فأوحت إلىّ الحكمة أن أصنع ما أنا صانع .. لقد وهبتنى الآلهة الخير الكثير والمال الوفير . . أنفقت منها ما أنفقت واستعضت بالباقى أحجاراً كريمة من الزمرد واختزنتها ليوم مصر العصيب . . ولكنى أخشى ضعاف النفوس الذين يستهويهم الثراء ولذا أرسل صوتى عالياً اليك يامن لم تولد بعد . إن الكنز مخبأ داخل عظامى . فاذا كنت حقاً فى حاجة الى المال لتنقذ مصر من أعدائها فلا تخش ولا تتردد . قطعنى وفك الأربطة واستخرج الكنز من صدرى ثم ضع عظامى فى التابوت الأجوف ، ولكن ، إذا لم تكن الحاجة إلى الاموال ماسة . أو استهواك الجشع ، فلتحل عليك لعنة منقرع ولتعش طيلة حياتك تحصد شر ما اقترفت ، ولتعش أيامك فى البأساء والضراء إلى أن تموت »

وما أن انتهيت من القراءة حتى التفت إلى كليوباترا وقلت برزانة :

ــ لقد سمعت يا كليوباترا . فحكمى العقل . وأجيبي

فاطرقت برأسها مليا ولم تلبث أن قالت :

ــ ليس بوسعى أن أقدم على هذا العمل . هلم بنا

فشاع السرور فى قلبي ولـكنها ما لبثت أن قالت :

— ولـكن ماذا تقول الـكتابة ؟ . زمرد . اليس كذلك ؟ وان الزمرد الآن لأندر من العنقاء . ولطالما أحببت أحجار الزمرد

— ليست المسألة يا كليوباترا ما تحبينه . ولـكن ما تحتاجه مصر . وما يطويه صدرك من نوايا

— بالتأكيد يا هارما كيس . أو ليست مصر فى مسيس الحاجـة إلى المال ؟ . لقد نضب معين الذهب من الخـزانة . و كيف يسعنى ان أصمد فى وجوه الرومان خاوية الوفاض ؟ . هاهى المحنة التى ظهرت لمنقرع المقـدس فى الرؤيا . لأننى ان لم أصد هجمات الرومان فلا مندوحة من استيلائهم على مصر . وبدخولهم ينقرض منها الفراعنة . ولن يكون ثمت فرعون بعد ليتسلم الأسرار . إذن لنطرح الخوف ظهريا ولنبـدأ فى العمل . وما دامت قلوبنا قوية فليس هناك ما نخشاه يا هارما كيس

فقلت : عليك وحدك أن تحكمى . وإذا لم يكن حكمك صادقاً . فستحل عليك اللعنة بلا ريب

— حسنا يا هارما كيس . خـذ رأس فرعون وسآخذ انا . ! يا لله ! ما أشد وحشة المـكان ! لقد خيل إلى انى رأيت شبحاً فى الظلام يتقدم نحوى ولم يلبث أن اختفى ! ! ألم تر شـيئا ؟!

— كلا يا كليوباترا . .ولـكنى أرجح انه روح منقرع المقدس التى تحوم دائما حول هيـكلها . هلمى بنا اذن . فشـد مايسرنى أن أغادر هـذا المـكان

فوقفت كأنما تتأهب للخروج ثم استدارت وأردفت :

— انه لم يك شـيئا . . ولـكنه العقـل الذى يجسم الخيـالات فى بيت « الفزع » كلا . يجب أن ألقى نظرة على الزمردات . حتى ولو كان فى ذلك حتفى

***

صعدنا كلانا فوق أبى الهول . وأخرجنا جثمان فرعون المقدس ووضعناه

على الارض وأخذت من كليوباترا الخنجر وقطعت به الأربطة وزهور اللوتس فسقط صولجان فرعون وكان مصنوعا من خالص الذهب وبطرفه رمانة من الزمرد

حملقت كليوباترا فى الصولجان مشدوهة . . ثم عاودنا مهمتنا المقيتة . .

كادت تخنقنا حرارة المكان ورائحة العقاقير . . ثم حللنا آخر لفة من القماش حول الجسم

رفعت الجثة فألفيتها ثقيلة فهمست :

— ان الجواهر بداخل الجثمان . والآن اذا كان قلبك يطاوعك فشق طريقا الى داخل ذلك الهيكل الذى كان من قبل فرعون مصر

فتناولت الخنجر من يدى . ورفعت وجهها الجميل . وعيناها الزرقاوان يشع منهما الوجل .. ثم ضغطت على ناجذيها بشدة كأنما تلتمس العزم . وغاص خنجر الملكة الحالية فى قلب من كان ملكا منذ ثلاثة آلاف سنة .

ولم تكد تفعل ذلك حتى سمعت تأوها صادراً من المكان الذى تركنا الخصى فيه . فوثبنا واقفين ، وأرهفنا السمع . ولكننا لم نسمع شيئا . ورأينا المصباح ما زال يرسل ضوءه من خلال الفتحة من أعلى . . فقلت :

— لا شىء . دعينا ننته من مهمتنا

* * *

جاست يد كليوباترا خلال صدر فرعون . . واستخرجت منه زمردات نادرة لم تقع على مثلها العين . وكلما وضعت يدها كلما جاد لها صدر فرعون بما يبهر النظر حتى بلغت الزمردات ١٤٨ عدا وفى النهاية وجدت جوهرتين نفيستين سيأتى ذكرها .

تكدست الجواهر أمامنا . وعقل الخوف لسانينا مرة أخرى فلم نستطع أن نتبس ببنت شفة . . فأومأت الى كليوباترا وتعاونا على حمل هيكل فرعون وتسلقنا أبا الهول ، ووضعنا الجثمان فى التابوت . ومن فوقه الاكفان . . ثم الغطاء .

حملت ما استطعت حمله من ذلك الكنز بين طيات ثيابى . . والباقى دسته

كليوباترا فى صدرها . . ثم ألقينا نظرة أخيرة على المكان . . وغادرنا المدفن

توقفنا عند البئر . . وناديت الخصى الموجود فى أعلا . . وخيل الى أن جواب ندائى كان ضحكة ساخرة . . فتملكنى الخوف مرة أخرى وخشيت ان نحن تأخرنا أن يغمى على كليوباترا . . فامسكت بالحبل وتسلقت عليه حتى الممر . . ولكنى لم أر للخصى أثرا . ثم لفت كليوباترا الحبل حول وسطها واجتذبتها الى أعلى بمشقة . . ثم جلسنا نلتقط أنفاسنا اللاهثة .

وبعد لحظات تناولت المصباح . وحاولنا اختراق الظلام بأعيننا بحثا عن الخصى . وفجأة وقع بصرنا على ما كنت أتوقعه . فقد رأيناه مستندا الى الصخرة ويداه مبسوطتان كما لو كان يدفع عنه شرا . وعيناه جاحظتان وفمه مفتوح . . وقد تمثل الفزع على وجهه بأجلى معانيه . . وكانت جميع الدلائل تدل على أنه فارق الحياة

ثم رأينا — ويا لهول مارأينا — ذلك الخفاش الابيض الضخم الذى خرج علينا من جوف المقبرة حين هممنا بالهبوط اليها . . وقد أمسك بذقن الخصى وعيناه تشعان ناراً . . وهو يتأرجح جيئة وذهوبا . .

استبد بنا الرعب . ووقفنا نحملق فى ذلك المنظر البغيض ، وسرعان مافرد الطائر أجنحته وأقبل صوبنا . . وأخذ يروح بهما على وجه كليوباترا . ثم أرسل صرخة كصرخة امرأة غاضبة . وانفلت صوب القبر الذى انتهكت حرمته ثم اختفى فى جوف البئر

استندت على الجدار خشية السقوط . بينا هوت كليوباترا الى الأرض وغطت رأسها بيديها ، وصرخت صرخة تجاوبت أصداؤها بين الصخور . . فصحت بها : انهضى . . انهضى ودعينا نغادر هذا المكان . والا قضى علينا .

فنهضت علي قدميها وهى تترنح . ولن أنسى ماحييت نظرة الرعب الهائلة التى ارتسمت فى عينيها فى تلك اللحظة .

أخذنا نجتاز المكان بغرفه ودهاليزه حتى انتهينا إلى السلم الأخير . وهنا سقط المصباح وكادت تسقط كليوباترا معه . لولا مبادرتى إلى نجدتها . . وفى محاولتى هذه . . سقط مصباحى كذلك . فساد الظلام على الأثر .

صحت بها مشجعا :

— تجلدى والا ضعنا . . وان كانت الجواهر تثقل كاهلك فالقها عنك

فقالت لاهثة : كلا .. لن يكون ذلك . ولن يكون ما قاسيته دون ثمرة سأموت وهى معى

اذذاك لمست شجاعة تلك المرأة . التى تعلقت بى وأخذت ترتقى الدرج رغم الظلام الدامس .. والفزع الذى يخيم على المكان .. الى أن رأينا أخيرا أشعة القمر من خلال الفتحة .. وما أن وصلنا إلى أعلى حتى سقطت كليوباترا على الأرض بلا حراك !

ضغطت على الحجر بيدين مرتجفتين .. فاستدار وسد الثغرة . ثم قفزت وانطلقت إلى كليوباترا فالفيتها صفراء الوجه حتى خلت أنها ماتت . . ولكنى تحسست القلب فوجدته ينبض .

وكان الأعياء قد بلغ منى مبلغه . . فجلست بجوارها على الرمال . لاستجمع قواى

الفصل الثانى عشر

تحية شارميون

أخيرا رفعت نفسى . ووضعت رأس ملكة مصر على ركبتى ورحت أعيد اليها الحياة .. ألا ما أجمل تلك المرأة حتى فى ثيابها المشعثة وشعرها الطويل يتماوج على صدرها .. تلك المرأة التى ستبقى قصة جمالها وخطيئتها الى مابعد زوال الهرم الرابض فوقنا .

تطلعت إلى وجهها الجميل . شاعرا أن قلبى بين يديها .. وأحسست أن حبى قد ازداد بسبب تلك الخيانة التى خضت غمارها فى سبيل الوصول اليها وبسبب المخاوف التى واجهناها سويا

لقد تملكنى الخوف وأعيانى النصب . . فهف قلبى إلى قلبها يلتمس الراحة . . لقد أقسمت أن تتزوج منى . . وستتمكن بفضل الكنز الذى أخرجناه من تطهير البلاد من الأعداء .

أخذت يدها بين يدى . . وأيقظتها بقبلة فى ثغرها . . فافاقت وندت عن صدرها تنهدة الخوف . . وحملقت فىّ بعينين واسعتين وقالت :

— أهذا أنت ؟. لقد انقذتنى من ذلك المكان المفزع !.

ثم القت بذراعيها حول عنقى ، واجتذبتنى اليها . . وطبعت على وجهى قبلة ثم قالت :

— هيا أيها الحبيب . . دعنا نمض . . انى عطشى . . وجد متعبة . . ولو ان اللآلىء تدفىء صدرى . . آه ! لم يسبق لى أن اكتسبت ثروة بمثل تلك المشقة ! ! تعال ايها الحبيب نفر من هذا الفزع ! . تعال ! أين يمكننا أن نجد الماء ؟. انى لا أضن على نفسى بجوهرة لمن يأتينى بقدح من الماء

— سنجد الماء فى الترعة المجاورة للارض المزروعة قرب هيكل (هورمخو) . اسدلى نقابك جيدا . وحاذرى من أن تظهرى تلك الجواهر للأعين .

فاسدلت النقاب على وجهها . . وسرنا حتى وصلنا أخيرا إلى معبد الاله « هورمخو » . . وكانت الشمس قد أرسلت أولى أشعتها الفضية وأنارت جوانب الوادى . . وهنا تجلى « رع » (اله الشمس) بكل بهائه وجلاله ! !

هبطنا المنحدر حتى جاورنا الترعة . . ومنها ارتوينا . . وغسلنا أيدينا وجباهنا ثم واصلنا السير بجوار شاطىء النيل حيث كان القارب فى انتظارنا .

وقضينا أربعة أيام للوصول الى الاسكندرية لأن الريح كانت ضدنا . .

ألا . . ما كان أسعد تلك الأيام !

كانت كليوباترا بادىء ذى بدء واجمة يثقل صدرها ما عانته فى جوف الهرم . . ولكنها ما لبثت أن رجعت الى نفسها . . وكانت أبداً دائمة التقلب فهى تارة مرحة . . وطورا عاملة . . وحينا مدنفة . . وأحيانا باردة !

كانت متقلبة كالريح . . عميقة كالسماء

ما كان أسعد تلك الليالى الأربع . . فيها جلسنا نتكلم عن الحب . . والزواج . . ووضعنا الخطط الحربية للدفاع ضد الرومان . . وكانت كل مقترحاتى تقابل بالموافقة وبابتسامة عذبة فاتنة

واأسفاه . . لقد مر ذلك الوقت مر السحاب !

لقد انقضت تلك الليالى بعذوبتها وأحلامها . . ووجدنا أنفسنا أخيرا نواجه أسوار القصر البغيضة .

* * *

قابلت شارميون مصادفة بعد عودتى فابتدرتنى قائلة :

— أين كنت تتجول مع كليوباترا ياهارما كيس .؟ ألغرض جديد من أغراض الخيانة ؟! . أم كانت سياحة حب وغرام ؟

فاجبتها بحزم :

— لقد ذهبت مع كليوباترا لبعض الشؤون السرية المتعلقة بالدولة

— حقا ! ان الذين يشتغلون فى الظلام فانما لاغراض شريرة ، والطيور الخبيثة لا تطير الا ليلا !. اذا كنت حكيما ياهارما كيس ـ وهذا ما لا أخاله ـ فالأجدر بك أن لا تظهر فى مصر علانية

استبد بى الغضب ولم أستطع احتمال تأنيبها فقلت :

— ألا يمكن أن تخاطبينى بغير تلك اللهجة الممقوتة ! ألا فاعلمى اننى قد ذهبت حيث لا تجرؤين على الذهاب وقد جمعنا الوسائل لحفظ مصر من يد أنطوني

— حقا ! ما أغباك ، كان الاجدر بك أن توفر على نفسك المشقة ! ! لان انطونى سيتولى على مصر وأنفك فى الرغام .

— قد يستولى على مصر رغم أنفي . . ولكن رغم أنف كليوباترا . فلا

فأجابتنى بابتسامة مريرة :

— كلا . ولكنه بمساعدة كليوباترا سيتمكن من ذلك . وعندما تبحر الملكة فى نهر سدنوس فهى لابد مجتذبة قلب انطونيوس اليها . . وستأتى به الى الاسكندرية فاتحا !

— هذا افك ! . لن تذهب الملكة الى طرسوس ! . ولن يأتي انطونى الى الاسكندرية ! .

فضحكت ضحكة قصيرة وأجابت :

— أهذه أفكارك ! . حسنا . فكر كما يحلو لك ! . ولكنك سترى بعيني رأسك في غضون أيام ثلاثة كيف هزأت بك !. الى اللقاء! اذهب وحلق في سماء الحب . فالحب — ولا شك — عذب لذيذ ! !

ثم خلفتني وصدري يكاد ينشق من فرط الغضب

***

لم أر كليوباترا سحابة ذلك اليوم . ولكني رأيتها في اليوم التالي وكانت مهمومة منقبضة الصدر .

تكلمت معها بشأن الدفاع عن مصر فتململت قائلة بغضب :

— لماذا تتعبني ؟ ! . ألا ترى اني غارقة وسط متاعبي ! ؟ ! غدا بعد أن يتلقى دليوس جوابي . نستطيع أن نتكلم في مثل هذه الشئون

— بعد أن يتلقى دليوس جوابك ؟ . ألا تعلمين ان شارميون قد أنبأتني أمس ان جوابك سيكون : « اذهب بسلام . سآتي الى انطوني » ؟ ! !

فوثبت كليوباترا على قدميها وأجابت غاضبة :

— ان شارميون لا تعرف شيئا من أسراري . وإذا أباحت لنفسها الكلام مرة أخرى فسيكون نصيبها الطرد من بلاطي ! . ولو ان رأسها يحتوي من الحكمة والذكاء أكثر مما يحتويه رؤوس جميع مستشاري

ألا تعلم أني بعت أمس جانباً من الجواهر لبعض أغنياء اليهود بالاسكندرية بثمن مرتفع ؟ . نعم . . بعت الحجر الواحد بأربعة آلاف جنيه ؟ . . آه . اني متعبة .. إن ذكرى تلك الليلة المرعبة مازالت تمضني ! !

فتحولت للانصراف . . غير أنني ترددت قليلا وقلت :

— عفوا يا كليوباترا . . وماذا بخصوص زواجنا ؟

— زواجنا ! ؟ ألسنا في الواقع ونفس الأمر . متزوجين ؟

— نعم . . ولكن ليس علنا ! . لقد وعدتني يا كليوباترا

— نعم وعدتك يا هارما كيس . وغداً بعد أن اتخلص من دليوس سأبر بوعدي . . وسأدعوك سيد كليوباترا أمام البلاط . . هل أنت بذلك راض ؟

ثم مدت إلى يدها لأقبلها وهى تنظر إلى نظرات غريبة حرت فى إدراك كنهها ..

((*))

اجتمع البلاط فى اليوم التالى قبـل الظهر بساعة . . وقد ذهبت بقلب واجف لأستمع إلى جواب كليوباترا الى دليوس . . . ولـكى أسمع كذلك اعلان تنصيبى ملـكا على مصر . .

وعندما دخلت شارميون لتأخذ مكانها فى البلاط ألقت علىّ نظرة سريعة . يشع منها بريق الفوز والظفر ..

ثم نفخ فى البوق وظهرت كليوباترا بجلالها وعظمتها . . والتاج المرصع يتألق فوق رأسها ، والزمردة التى استولت عليها من قلب فرعون تزين صدرها ويشع منها بريق يخطف البصر

بيـد أن وجهها كان مكفهراً دا كنـاً . . ثم جلست ببطء وخاطبت رئيس التشريفات باليونانية قائلة :

— ادع السفير ليسمع جوابنا

فتح الباب على مصراعيه ودخل دليوس يتبعه رتل من الفرسان يلبسون الدروع الذهبية ، وكان يمشى مشية الهر المنتفخ الأوداج ، ثم وقف أخيرا أمام العرش وقال بصوت رقيق :

ـ أيتها الملـكة العظيمة الحسناء ، لقد جئت لاتلقى جوابك على رسالة النبيل انطونى ، لأنى سأبحر غدا للقائه فى قيليقية وانى استميح مولاتى العذر على جرأتى حين أقول فـكرى جيدا فى الكلمات التى ستقولينها قبل أن تخرج من شفتيك الجميلتين ، ففيها إسعادك وإسعاد شعبك ، كما فيها تحطيمك ، وتحطيم عرشك ، وملـكك

ثم أحنى رأسه وعقد ذراعيه فوق صدره ووقف فى انتظار الجواب

لبثت كليوباترا هنيهة لاتحير جوابا ، صامتة كأبى الهول ، متطلعة بنظرات شاردة عبر القاعة

ثم أجابت بصوت موسيقى عذب . بينما وقفت صامتا واجف القلب

لسماع الرد :

— أيها النبيل دليوس ، لقد قلبنا الأمر على وجوهه ،فرأينا ان الـكلمات التي حملتها الينا عبر البحر لهى كلمات جافة نابية ما كانت تليق أن تلقى على مسامع ملكة مصر !! ولقد أحصينا الجيش والأساطيل والأموال وخرجنا منها بنتيجة وهى انه اذا كان انطونى قويا فليس لمصر أن تخشى قوته ! ؟

ثم أعقبت ذلك فترة سكون وسرت فى القاعة همهمة الاستحسان واستطردت : أيها النبيل دليوس ، اننا أقوياء بحصوننا ، أقوياء بقلوب رجالنا البواسل ، ولـكننا ابرياء من التهم التى وصلت الى مسامع انطونى والتى أرسل يرددها بغلظة وخشونة علي مسامعنا ، ولذا فليس فى نيتنا قط السفر الى قيليقية للاجابة عنها .

ارتفعت همهمة الاستحسان مرة أخرى . بينا كان قلبي ينبض بشدة زهوا ونخاراً . ثم قطع دليوس حبل الصمت قائلا :

— أيتها الملـكة المبجلة . إذن ستـكون كلمتى إلى انطونى هى « الحرب »

فاجابت كليوباترا :

— كلا .. ستـكون السلام . اصغ إلى . لقد قلت إنى لن أبحر لمقابلتـه للرد على التهم . ولـكن (وهنا ابتسمت لأول مرة) سنذهب طوعا . ورضا وفى الحال ــ لنعلن صداقتنا وحبنا للسلام على شواطىء نهر سدنوس

شدهت . وأخذت منى الدهشة كل مأخذ . أيمكن أن يـكون ما اسمعه حقيقيا ؟ !

طار صوابى . فرفعت صوتى قائلا : أيتها الملـكة . تذكرى !

فاستدارت إلى كلبؤة مهتاجة وقالت :

— صه . أيها العبد ! من أمرك بأن تعـكر صفو مجلسنا . اهتم أنت بشؤونك الفلـكية . واترك امور العالم الحـكامه

رجعت إلى الوراء خجلا . بينا ارتسمت على شفتى شارميون ابتسامة الظفر والتشفى . عليها ظل من الشفقة على سقوطى .

والتفتت كليوباترا إلى دليوس واستطردت :

— إذهب إلى سيدك وقل له إننا سنكون فى أثرك وسنكون عنده قبل أن يجد متسعا من الوقت لتنظيم استقبالنا . إلى اللقاء . ستجد فى سفينتك شيئا يدل على جودنا

فانحنى دليوس ثلاثا . وانسحب . بينما ظل المجلس ينتظر كلمة الملكة ووقفت أنا كذلك فى الانتظار متسائلا عما إذا كانت ستوفى بقسمها وتعلن زواجنا الملكى . ولكنها لم تنبس ببنت شفة بل وقفت مقطبة الجبين . ثم لم تلبث أن زايلت العرش وعبرت القاعة يتبعها الحرس

نظر إلى رجال البلاط بعيون هازئة . فرحة لسقوطى . ولكنى لم أعر . نظراتهم التفاتا بل وقفت يتنازعنى اليأس القاتل وأنا أرى الآمال التى بنيتها تنهار

الفصل الثالث عشر

ضربة رينوس

لم يبق فى القاعة سواى . . فتحولت ابغى الخروج . . ولكن أحد الخصيان ربت بخشونة على منكبي ودعانى لمقابلة الملكة . .

يالقسوة ألقدر . . هذا العبد الذى لم يك يتمنى منذ ساعة فقط إلا أن يجثو راكعاً تحت قدمى ، يتنمرلى الآن ويعاملنى بلغظة واحتقار !!

ويل للعظيم حين يسقط ! !

استدرت على عقبي بوحشية لمجابهة العبد الذى مالبث أن جبن وتبعنى كالكلب

دلفت الى حجرة المرمر . . وسمح لى الحراس بالدخول . . فوجدت كليوباترا جالسة وسط القاعة قرب النافورة وبرفقتها شارميون والوصيفات فلما دخلت امرتهن كليوباترا بالانصراف

وبعد لحظة كنا وحيدين فى الغرفة .. فوقفت أمامها وجهاً لوجه رفعت انظارها الىّ للمرة الأولى وهتفت :

— ابق حيث أنت .. لاتقترب منى ياهارما كيس ، انى لا أثق بك . .

اذ ما يدريني انك لاتخبيء لي خنجراً آخر . . والآن ماذا تريد أن تقول . . وبأي حق تجاسرت على قطع حديثي مع الروماني ؟ !

أحسست بالدم يغلي حاراً في عروقي . . وبعاصفة هوجاء تجتاح هدوئي وتملكني غضب شديد . . فصحت :

— اجيبيني يا كليوباترا . . اين قسمك الذي اقسمته على قلب منقرع الحي الابدي ؟ ! ان تحديك للروماني . . واين قسمك حين منيتني ان تعلني زواجك بي على رؤوس الاشهاد ؟

وهنا اختنق صوتي فلم استطع اتمام الحديث

اجابتني بسخرية لاذعة :

— حسنا ! ! هل يلائم هرماكيس الآن ان يتكلم عن العهود . وهو . . ألم يحنث في عهوده قط ! ؟ انت يا كاهن ازيس الطاهر ! ! أيها الصديق الوفي ! الذي لم يخن اصدقاءه قط ! ! أيها الرجل الحازم الشريف المستقيم الذي لم يبع مبدأه وأمته . .وقضيته في سبيل حب امرأة زائل ؟.

— لن أجيب على تأنيبك ياكليوباترا فاني حقيق به ، ولو أنني لا أستحقه منك . أنت ستذهبين الآن في أبهى حللك لمقابلة أنطوني . . ستقيمون الولائم . . وتنغمسون في الفجور . انك على وشك أن تبددي الكنز الذي انتزعته من جسم منقرع . ذلك الكنز الذي كان ذخرا لسد حاجات مصر . ولكنك تتبعت أهواءك وستجلبين على مصر العار . . كيف لم تبري أنت باقسامك ! انت يامن أحببتك . . ووثقت فيك ؟! لقد خدعتني بنذالة ! . ألم تقسمي لي الليلة الماضية أن تتخذي مني زوجا !. والآن تعيرينني وتجلبين على العار . . حتى أمام ذلك الروماني !

— أتزوجك ! أأتزل عن حريتي طائعة مختارة واقبل الذل والاستعباد كلا . هذا لن يكون . انني أحب ياهارماكيس ولكني لا أتزوج .

فلم أتمالك أن صحت محتدما :

— كليوباترا . لقد أقسمت أن تحمي مصر . . وها أنت على وشك تسليمها الى الرومان — لقد أقسمت أن تتخذي من الكنوز التي أفشيت

لك سرها عونا على رفعة مصر وها أنت على وشك أن تتخذيها كوسائل لجلب العار عليها ! .

لقد أقسمت على الزواج منى .. وها أنت تسخرين منى وترفضيننى .

اذن فلتسقط على رأسك لعنة منقرع .. دعينى أذهب اذن أيتها « العار » أيتها « الكذبة » التى تدب على قدمين . ! دعينى أختف ولا أرى وجهك مرة أخرى .

فنهضت غاضبة وصاحت :

— أدعك تذهب لتثير ضدى المتاعب وتنسج حولى وحول عرشى الشباك ؟ ! . كلا ياهارما كيس . ستذهب معى لزيارة انطونى فى قيليقيه .. وهناك قد أنظر فى أمر اطلاق سراحك

وقبل أن أحير جوابا ضربت الناقوس الفضى الموجود بجوارها فدخلت شارميون مع الوصيفات من أحد الأبواب ومن الباب الآخر دخلت فرقة من الجنود وأربعة من حرس الملكة الأشداء . فصاحت قائلة :

— اقبضوا على هذا الخائن ! !

فادى رئيس الحرس برينوس التحية . وتقدم نحوى شاهراً سيفه

ولكنى كنت قد بلغت أقصى حالات اليأس ولم أعد أبالى بشىء . فانقضضت عليه وعالجته بضربة شديدة جعلته يسقط على الأرض فاقد الوعى . واستللت سيفه وواجهت رفيقه وهويت به على درعه بجمع قوتى فاخطأه وفصل الرأس عن الجسد . فسقط صريعا .. وعندما انقض على الثالث عاجلته بذباب حسامى فاخترق جسده ولحق برفيقه . فانقض على الأخير وهو يصيح بملء حنجرته : « تارانس ! » فلم أمهله وأقبلت عليه بدورى ودمى يلتهب فى عروقى . فصرخت الوصيفات من هول الموقف . ولكن كليوباترا وقفت صامتة تراقب تلك المعركة غير المتكافئة

ضربته بكل قوتى . فاصابت الضربة الدرع وحطمت سيفى .. وتركتنى أعزل . فصاح الحارس صيحة النصر وهوى بالسيف على أم رأسى . ولكنى اتقيته بدرعى .. فأعقبها باخرى واتقيتها كذلك . فرفع يده للمرة الثالثة ..

فوجدت انها حال غير مجدية . فقذفت بالترس فى وجهه . فارتد الى الوراء وهو يترنح . فامسكت به قبل أن يسترد توازنه

التحمنا جسما لجسم . فى معركة عنيفة رهيبة . كان سلاحها القوة الجثمانية وأخيرا تمكنت بفضل قوتى أن أرفعه بين يدى والقى به على الأرض فدكت أضلاعه ولم يستطع أن ينطق بكلمة .

ولكنى لم استطع التماسك فسقطت فوقه .. وهنا كان الكابتن برينوس قد أفاق فاقبل من خلفى . . وضربنى بسيف أحد القتلى على رأسى ومنكبى ولكن الضربة فقدت شدتها لأننى كنت ممدداً على الأرض .. ولأن قلنسوتى وشعرى الكثيف قد خففا من حدتها كذلك . . فلم أمت . . ولكنى . . جرحت جرحا بليغا ..

حينئذ تقدم الخصيان الجبناء كقطيع من الماشية شاهرين المدى ابتغاء تمزيقى .. ولكن برينوس كان قد كف عن الضرب حين رآنى ملقى على الارض .

حينئذ تقدمت شارميون .. وحالت بينى وبينهم كما تقدم برينوس ودفعهم بيده بعيداً ثم التفت الى الملكة وقال بلهجته اللاتينية الخشنة :

— ابقى على حياته ايتها الملكة .. بحق جوبيتر انه رجل شجاع . . لقد هويت كالثور . وثلاثة من رجالى سقطوا بتأثير ضرباته . . ابقى عليه ايتها الملكة الطيبة .. وهبيه لى . .

فصاحت شارميون وهى تهتز .. ووجهها شاحب : ابقى عليه . . ابقى عليه

فاقتربت كليوباترا .. وتطلعت إلى الموتى.. ثم الىّ. انا عشيقها من يومين فقط . فالتقت نظراتنا وصحت :

— كلا .. لا تبقى على . والويل للمغلوب

فاصطبغت وجنتاها بحمرة .. اظنها حمرة الخجل

فضحكت ضحكة قصيرة وهتفت :

— أنت تحبين هذا الرجل يا شارميون ؟. حتى القيت بجسمك الرقيق بينه وبين الخصيان .. تلك الكلاب التي لا وطن لها

فاجابت الفتاة بحدة : كلا . ولكنى لم استطع أن ارى مثل هذا الرجل الشجاع يذهب غنيمة باردة لتلك الكلاب القذرة ! !

فقالت كليوباترا :

— نعم . . إنه لشجاع حقاً . . ولم أر حربا بمثل تلك الشدة حتى بين العاب الرومان ، حسناً . سأبقى على حياته ولو أنه يعد منى ضعفاً . . ضعفاً نسائياً . . خذوه إلى حجرته . . واحرسوه إلى أن يشفى أو يموت

وهنا أصبت باغماء . . وغبت عن الوجود.

* * *

أحلام . . أحلام لا نهاية لها . . وهى أبداً متغيرة . . وكنت أسمع فى آخر تلك الأحلام : « امح اسم هارما كيس ابن الارض من سجل الحياة » فيجيبه صوت آخر : « لم يحن الحين بعد . . مازال فى الوقت متسع للتكفير . لا تمح اسم هارما كيس ابن الارض من سجل الحياة . »

أفقت فوجدت نفسى فى غرفتى فى برج القصر . . ضعيفاً خائر القوى

وفجأة سمعت حفيف ثوب ثم خطوات خفيفة سريعة . . عرفتها جيداً . . اذ كانت خطوات كليوباترا . .

دلفت الملكة الى الغرفة واقتربت منى . . فانتابنى شعور متباين من الحب والكراهية . . وقامت فى نفسى ثورة هائلة

ومالت كليوباترا فوقى الى أن مست شفتاها جبينى وهمست :

— أيها الرجل المسكين .

أيها الرجل الضعيف الذي يجود بأنفاسه الأخيرة . . لقد عاملك القدر بقسوة . . انك أعظم من أن تكون

ألعوبة فى يد امرأة مثلى .. كان يجب أن يكون لك الفوز فى النهاية . ولكن الكهنة الذين لقنوك علم الآلهة وحكمتها . . لم يعلموك معرفة الجنس البشرى ولم يحصنوك ضد انون الطبيعة . . انك تحبنى من كل قلبك ومن كل نفسك . . ليتنى استطيع أن أحبك كما تحبنى . . ولكن قلبى كالمدينة الحصينة من الصعب التغلب عليه .. آه ! ! من لى بشهر . . بل بيوم . . بل بساعة . . انسى فيها الملك وأعباء السياسة وأستطيع أن أكون فيها امرأة مغرمة . . استودعك الله يا هارما كيس . . . اذهب والحق بقيصر الذى خدعته كما خدعتك . . ولكن من يدرى . . ربما شاء القدر أن يخدعنى فى النهاية . . الى اللقاء يا هارما كيس .

وعندما هممت بالذهاب . سمعت حفيف ثوب امرأة أخرى فقالت :

— أهذه أنت يا شارميون . ان الرجل يموت رغم سهرك عليه

فأجابت الفتاة وفى صوتها رنة حزن :

— نعم أيتها الملكة . هكذا يقول الاطباء . لقد قضى أربعين ساعة فى غيبوبة . والآن لا تكاد أذناى تسمعان دقات قلبه . وقد ذبلت عيناى من السهر واضمحل جسمى من الاعياء . . أتكون هذه نهاية عملى ! ! لقد أصابت ضربة برينوس اللعين الهدف . فان هارما كيس يموت

— ان الحب لا يعرف للمتاعب معنى يا شارميون . . ولا يحسب للآلام حسابا

— انى لا أحبه أيتها الملكة . كما برهنت لك من قبل . . أو يمكن أن أحب رجلا أراد اغتيالك . انى أتولى تمريضه شفقة به فحسب

فضحكت كليوبترا وأجابت :

— ان الحب توأم الشفقة يا شارميون . مسكينة أنت أيتها الفتاة . ان الحب يكاد يصهرك . . وهو يتقاذفك كيف يشاء . فأنت أرق من نسيم الصباح عند ما يبتسم .وكالبحر الصاخب عند ما تنشب الغيرة أظفارها فى قلبك ولكن لا عجب . فهكذا خلقنا . ولن يبق لنا بعد المتاعب غير الدموع وتأنيب الضمير . والذكرى

الفصل الرابع عشر

لبثت هنيهة بعد انصراف كليوباترا استجمع قواى للكلام . . ولكنى شعرت بشارميون تقف الى جوارى وأحسست بدمعة حارة تسقط على وجهى وهمست :

— انك ذاهب يا هارما كيس .. ذاهب الى حيث لا استطيع اللحاق بك آه ! ! انى لأتنازل عن حياتى بكل رضى فداء لحياتك .

ففتحت عينى ببطء وغمغمت بخفوت شديد :

— ا كبتى أحزانك أيتها الصديقة العزيزة . إنى ما زلت حيا بعد . . . والواقع اننى أشعر كأنما حياة جديدة تتجمع فى صدرى .

فصرخت صرخة الفرح . ولم أر أجمل من ذلك التغيير الذى طرأ على وجهها الحزين . فالتمعت عيناها السوداوان وارتسمت على ثغرها ابتسامة عذبة . ثم تهالكت بجانب الفراش وصاحت :

— إنك حى . إنك حى . وأنا التى ظننت أنك ستفارق الحياة وشيكا آه . ماذا أقول ؟ ! ما أحمق قلب المرأة ! كلا . نم واسترح يا هارما كيس لا تنبس ببنت شفة .. أين الجرعة التى تركها الطبيب الاحمق ؟ . كلا . لا تتجرع شيئا . ولكن نم يا هارما كيس . نم . .

وعندما استيقظت وجدتها ما زالت حيث هى . ولكن أنوار الفجر كانت تطل من الكوة . وظلت جاثية بجانبى ويدها الباردة على جبينى وقد أسندت رأسها بذراعها . فهمست قائلا :

— هل نمت يا شارميون ؟

فاستيقظت فى التو وحملقت فى بعينين مسبلتين حنانا وقالت :

— نعم .. لقد نمت يا هارما كيس

— كم ساعة ؟ . — تسع ساعات

— وأنت قد أخذت مكانك بجانبي طوال هذه المدة ؟

— نعم . ولكن ليس هذا شيئا . فقد نمت أنا أيضا . إذ خشيت أن أوقظك إن أنا تحركت

— اذهبي وخذي قسطك من الراحة . إنه من دواعي خجلي أن افكر في هذا . اذهبي واستريحي يا شارميون

— لا تقلق نفسك . سأدعو أحد الارقاء ليسهر على خدمتك . وإذا كنت بحاجة إلى شيء فاوقظني . سأنام في الغرفة الخارجية

وقد حاولت القيام .. ولكنها كانت منهوكة القوى . فلم تلبث أن سقطت ممددة على الارض

لشد ما شعرت بالخجل من نفسي حين رأيتها تسقط . وأنا لا أستطيع أن أمد لها يد المساعدة

وقالت الفتاة : إياك أن تتحرك . .

ثم حاولت القيام مرة أخرى ولكنها سقطت أيضا ، فقالت :

— تباً لي . . لابد ان أكون نائمة ، سأرسل اليك الخادم الآن

ثم تحاملت على قدميها ونهضت . . وسارت في طريقها تترنح ترنح الثمال استغرقت في النوم على الأثر لانني كنت متعبا .. ولما استيقظت بعد الظهر التهمت الطعام الذي احضرته لي شارميون ، ثم هتفت قائلا :

— لقد أكلت .. إذن لم أمت بعد

— كلا .. انك ستعيش .. لقد حبوتك بعطفي وحناني

— ان عطفك هو الذي رد الي الحياة

فأجابت بغير اكتراث : لاشيء . . وفوق كل ذلك فأنت ابن عمي . . وأنا أحب التمريض .. انه تجارة المرأة .. ولو كان مكانك خادم لما أوليته من عنايتي أقل مما أوليتك

— لقد كان الأجدر بك أن تدعيني أموت ياشارميون .. لأن حياتي لن تكون إلا عاراً متصلا .. خبريني متى ستبحر كليوباترا الى قيليقية ؟.

— بعد عشرين يوما .. وقد أعدت عدتها للرحيل فانفقت على زينتها مالم تسمع به اذن . . وفي الحقيقة لست أدري من أين أتت بهذا المال كله . .

فأرسلت انينا مراً ولم أجب .. ثم سألتها :

— وهل ستذهبين كذلك ياشارميون ؟ .

— نعم .. وجميع البلاط كذلك .. وأنت أيضا ستذهب

— أنا ؟ ! كلا . . ولم ؟

— لأنك عبد لكليوباترا .. ويجب أن تسير مكبلا بسلاسل ذهبية خلف المركبة . ولأنها تخشى أن تتركك فى مصر

— شارميون . ! ألا من سبيل الى الفرار ؟

— الفرار . انك رجل ضعيف . مريض، فكيف تفر ؟ ! وعلاوة على ذلك فانه مفروض عليك رقابة شديدة . وإذا هربت فالى أين تذهب ؟ لن تجد فى مصر إلا من يكن لك كل احتقار .

فتأوهت مرة أخرى من أعماقى . . وشعرت بدمعى يجرى على وجنتى فقالت شارميون بسرعة . وقد أشاحت بوجهها :

— لا تبك . . كن رجلا وتغلب على متاعبك . . لقد زرعت ويجب أن تحصد . . ولكن بعد الحصاد سترتفع المياه وتكتسح الجذور الفاسدة ثم تظهر البذور الجديدة .. وربما واتتك الفرصة فى قيليقيه حينما تكون قد استرددت قوتك . . هذا اذا كنت تحتمل العيش بعيدا عن ابتسامة كليوباترا . . وحينئذ يجب أن تعيش فى أرض سحيقة الى أن ينسى كل شيء والآن الى الملتقى . . سأحضر بين الحين والحين لزيارتك ولقضاء ماعسى أن تكون بحاجة اليه

ولما انصرفت شارميون .. تولى تمريضى طبيب وخادمتان . . وعندما برؤ الجرح استرددت قواى . . ولم تمض أربعة أيام حتى غادرت الفراش وبعد ثلاثة أخر تمكنت من السير فى الحديقة . . وبعد أسبوع استطعت أن أقرأ وأفكر .

وأخيرا جاءتنى شارميون بعد ظهر أحد الأيام وطلبت منى أن أعد العدة للابحار بعد يومين الى قيليقية

فكتبت الى كليوباترا أرجوها أن تسمح بتركى محتجا بضعف صحتى

ولـكنها أبت . . وصممت على ذهابي معها

وفي اليوم المعين حملت على محفة الى القارب وكان يصحبني برينوس وبعض جنوده . . ولم يأتوا الا لحراستي.

أبحر الأسطول على اثر تلقي الاشارة فمررنا في اليوم التـالي على سوريا ولبنان إلى أن وصلنا أخيراً إلى مصب نهر سدنوس

عادت إلى قواي بفضل نسيم البحر العليل .. وقد أصبحت كما كنت أولا لولا ذلك الخط الأبيض في رأسي وهو أثر التحام الجرح

وبينا كنا جالسين منفردين أنا وبرينوس ذات أمسية .. وقعت عينه على ذلك الخط الابيض فاقسم بآلهته ايمانا مغلظة قائلا :

— لوأنك مت ياهارما كيس ، لما كان في مكنتي أن أرفع رأسي بعد ذلك ! يالها من ضربة جبان ! ! انى اخجل من نفسي كلما تذكرت انى انا الذى طعنتك من الخلف وأنت ممدد على الأرض ! ! ألا تعلم أنى كت آتى يوميا للاستفسار عنك ؟ قلت :

— لاتزعج نفسك يابرينوس . . لقد اديت واجبك

— قد يكون واجبا .. ولـكن هناك من الواجبـات ما لايليق بالرجـل الشريف ان يؤديه حتى ولو كان بأمر ملـكة مصر . . ماهذا . . ايها الصبي ؟ ألست على وفاق مع ملـكتنا ؟لم يسجنونك هكذا في مثل تلك الرحلة السارة؟ ألاتعلم اننا مكلفون بمراقبتك بشدة وان هربك قد ندفع حياتنا له ثمناً ؟ !

فاجبت :

— أجل . . انني على غير وفاق مع الملـكة ياصديقي . . ولـكن لاتسألني المزيد.

— اذن . . فلابد أن في المسـألة امرأة ؟ فماذا تقول ايهـا الصبي . ؟ اصغ إلي . .

لقد سئمت خدمة كليوباترا . . ومللت العمل في تلك الأراضي الحارة ذات الصحاري . . واللهو . دعنا اذن نستقل احدى السفن ونذهب إلى الشمال . . . سأقودك إلى بلاد أفضل من مصر حيث البحيرات

والجبـال والغابات . والصنوبر ذو الرائحة الزكية . .وحيث تجد هناك فتاة تصلح لك زوجة — وهى ابنة أخى — فتاة قوية .. مديدة القامة .. ذات عينين زرقاوين وشعر طويل . . وذراعـين قد تسحقان أضلاعك اذا ما فكرت فى عناقك . فما تقول فى ذلك ؟. هيا . ودع الماضى جانبا . دعنا نذهب الى أرض الشمال الطيبة . وكن لى ولدا .

فكرت فى الأمر لحظة ولـكنى هززت رأسى فى أسف . لانه ولو أننى كنت جـد راغب فى الذهاب . إلا أننى كنت أعلم أن مصيرى مرتبط بمصر فقلت :

— لن يكون ذلك يابرينوس . لأن القدر قد ربط مصيرى بارض مصر برباط لا أستطيع منه فكاكا . ففى أرض مصر سأحيا . وسأموت .

فقال المحارب الشيخ :

— لك ماتريد يابنى . لقد كنت أرجو أن آزوجك واتخذك لى ولدا ولـكن تذكر دائما أن لك فى برينوس خير صـديق . وثمت شىء آخر . الزم دائما جانب الحذر من ملـكتك الجميـلة . لانه قد يأتى الوقت الذى تظن فيه انك قد علمت من أمرها أكثر مما يجب . وعند ذلك .. — ثم مر بيده على عنقه اشارة الى الذبح — والآن .طاب مساؤك . عليك بقدح من النبيذ واذهب الى فراشك . . لان الجهالة . .

(هنا بعض صفحات من أوراق البردى أصابها العطب فاصبح من المتعذر فك رموزها . والظاهر انها كانت وصف رحلة كليوباترا الى طرسوس)

ثم يأتى بعد ذلك مايلى :

لقد كان المظهر جميلا يأخـذ بالألباب . فمقدمة السفينة موشاة بالذهب ومجاذيفها من الفضة . وكانت كليوباترا مضطجعة تحت مظلة تتوهج بالخيوط الذهبية . . وعليها ثوب من الحرير الناصع البياض ومتمنطقة بحزام من ذهب ذى نقوش بديعة .

سرنا تحف بنا المهابة والعظمة . . وكلمـا وصلنا الى بلدة تجمع أهلها لتحيتنا قائلين « لقد أشرقت (الزهرة) من البحر واتت لزيارة باخوس »

اقتربنا من المدينة فازدحم الأهالى لتحيتنا واستقبالنا

وأقبل انطونيوس بطلعته الملكية يحيط به قواده وما آن وقعت عيناه على كليوباترا حتى وقف مشدوها . وعندما نظرت اليه تورد وجهها فنهشت الغيرة قلبي . . ورأت شارميون ذلك فأرخت عينيها . وابتسمت

ولم تنطق كليوباترا بكلمة بل مدت اليه يدها البضة لتقبيلها ثم قالت بصوتها الموسيقي العذب :

— انظر أيها النبيل انطونى . . . لقد دعوتنى . وهأنذا قد لبيت . .

فاجابها بصوت عميق . . وعيناه لاتزالان شاخصتين الى وجهها :

— ان ڤينيس «إله الحب» قد حضرت . لقد دعوت امرأه . ولكن جاءتنى آلهة .

فضحكت وقالت ببديهتها الحاضرة :

— لتجد إلها يحبها على الأرض . . لندع المجاملات لحظة . . لأن فينيس جائعة ؟ . . أيها النبيل انطونى . . اعطنى يدك

ونفخ فى البوق . . وسارت كليوباترا ويدها فى يد انطونى بين صفين من الجموع الغفيرة . . الى المأدبة

(هنا بعض أوراق من البردى غير مقروءة)

الفصل الخامس عشر

عهد كليوباترا

وفى الليلة الثالثة أقامت كليوباترا مأدبة فاخرة فى صالة القصر الكبير الذى خصص لاقامتها . . وكانت حفلة رائعة فاقت كل ماعداها .

وقد أمرت أن أقف خلف الوسادة التى اتكأت عليها كليوباترا ، مع شارميون وباقى الوصيفات كعبد رقيق . . ولكنى أقسمت لتكون هذه آخر مرة احتمل فيها هذا العار . . فقد طفح الكيل . . ففضلا عن علمى من شارميون بان كليوباترا ستصير عشيقة لانطونى . . فانها لم تكن تعاملنى إلا كرق . . وكانت تجد لذة فى تعذيبى على هذه الصورة .

وعند انتهاء المأدبة تطلع انطونى الى ماحوله من أبهة وجلال وهتف متسائلا :

— ألا خبرينى أيتها الحبيبة . هل تتحول رمال النيل فى يديك الى ذهب حتى صار فى استطاعتك أن تنفق على مأدبة ليلة مايوازى فدية ملك ؟ ! من أين لك تلك الثروة ؟ .

وحينئذ تذكرت قبر منقرع المقدس وكنوزه التى بعثرت هباء . وتطلعت الى كليوباترا فرأيتها ترمقنى وكأنما قرأت خواطرى . . فعبست . ثم قالت :

— ماذا أيها النبيل أنطونى . . ان هذا لايعد شيئا مذكورا

ألا خبرنى كم تظن قيمة تلك الآنيـة الذهبية . . وما قدم فى المأدبة من لحوم وخمر ؟

— اظن انها تساوى حوالى الثمانية آلاف جنيه . !

— هذا تقدير يوازى النصف أيها النبيل انطونى . . ولـكنى سـأريك ماهو أعجب وأغرب . سأشرب فى جرعة واحدة . ما يوازى عشرة أمثال هذا المبلغ !

— هل يمكن هذا أيتها الملـكة الجميلة ؟ !

فضحكت . ثم أمرت أحد الخدم باحضار قليل من الخل الأبيض فى قدح ثم نزعت من أذنها إحدى تلك اللآلىء التى انتزعتهامن قلب فرعون . وبدون أن يخمن احد ما هى صانعة . ألقت بالجوهرة فى الخل . فساد صمت العجب وسرعان ماذابت اللؤلؤة فى الحامض القوى . . فتناولت كليوباترا الـكأس وشربتها حتى الثمالة

اذذاك صحت مـدفوعا بشىء لا أدرى كنهه :

— لقد حلت الساعة أيتها الملـكة ولعنة منقرع لابد آتية

فعلا وجه كليوباترا الشحوب . .

والتفتت الى مهتاجة . بينا تطلع الجميع الىّ فى عجب ! . ثم صاحت قائلة :

— أيها العبد المنجم . إذا عدت لمثل هذا الكلام مرة أخرى فسأعاقبك ضربا بالسياط

فسأل انطونى :

— ماذا تعنى بقولها أيها العبد المنجم ؟ أفصح .. وزدنا ايضاحا .

فاجبت بخضوع :

— انى خادم الآلهة ايها النبيل انطونى . . وما تريدنى الآلهة أن أقوله فانى أقوله ولكنى لست بمستطيع له تفسيراً

فقالت كليوباترا وقد نفد صبرها :

— دع العبد وشأنه ياسيدى . غدا نتخلص منه . اذهب ايها العبد

انحنيت وانصرفت . وانتظرت لحظة خارج الباب لا أدرى ماذا اصنع وبينا كنت واقفا . اذ شعرت بيد تلمسنى . واذا بها شارميون وقد انسلت من المأدبة إبان الهرج الذى حدث

لقد كانت شارميون دائما بجانبى فى وقت الشدة !

همست قائلة :

— اتبعنى . ان الخطر يحلق فوق رأسك

— إلى أين ؟

— إلى حجرتى . . ولا تخش لومة لائم . . فذلك هو الحال فى بلاط كليوباترا ! !

فتبعتها وصعدنا الدرج ودلفت إلى غرفة مظلمة على اليسار وجلسنا

هتفت شارميون :

— هل تعلم ماذا قالت كليوباترا بشأنك فى غرفة المائدة ؟

— كلا .. ماذا قالت ..؟

— لقد أقسمت بحق سيرابيس أن تتخلص منك فى الغد . . وثق انها لن تنتظر اكثر من ذلك

— لا أ كاد أصدق انها تقدم على قتلى !!

— لم لا تصدق ايها الأحمق ؟! هل منعت هي عنك الموت في غرفة المرمر عندما كان الخصيان على وشك الفتك بك !.. سأريك مبلغ حمقك . صبرا . وسأجعلك ترى بعيني رأسك ..!!

وسرعان ما أطفأت المصباح . . وقادتني إلى ركن الحجرة . . وفتحت بابا دلفنا منه إلى قاعة أخرى صغيرة .. ثم امرتني بالتزام الصمت التام .

وفي هذه اللحظة سمعت أصواتا لا أدرى من أين هي صادرة !!. ثم دفعتني إلى أحد جدران الغرفة رأيت فيه فتحات تطل على قاعة أخرى . ووقع بصرى منها على كليوباترا مضطجعة على وسادتها الموشاة بالذهب . . وبجانبها انطونى ! وقد انهمكا في الحديث .. كانت تقول له :

— خبرنى أيها النبيل انطونى . هل سرك ما رأيت في مأدبتنا المتواضعة ؟

— نعم يا سيدتى . . انى وايم الحق لم أر في حياتى مأدبة لها مثل هـذه الفخامة والأبهة .. ولقد كنت ريحانة الحفلة . . فحمرة الخمر لم تك على شيء من حمرة خديك . . ورائحـة الورد لم يكن لها عبير شعرك . . ولم يك سحر يعادل سحر عينيك الجميلتين ..

— ماذا ؟! أأسمع مثل هذا الاطراء من انطونى ؟. وهو الذى وجه الينا بالأمس قوارص الـكلم ؟!

— لقد كانت وأيم الصدق حفلة بلغت غاية الروعة . . ولـكن لم تكن خالصة من شوائب الـكدر . . فقد أمضتني كلمات ذلك المنجم النحس !

— لا تلق بالا إلى ما قال . . فقد أصيب بضربة على رأسه أخيرا سببت له خبلا

— ولـكنني لم أر عليه سيماء الخبل .. لقد أحسست كأن صوته هو صوت القدر ! . . ورأيتـه ينظر اليك بعينين نفاذتين كعيني مدنف صب هجرته حبيبته . . أنى وحق باخوس بدأت أشعر بغيرة من هذا العبد ! .

— لن تأخذك منه غيرة بعد الآن . . فغداً . . في الصباح . . يكون قد قضى ؟

والآن أيها النبيل أنطونى . . كن جليسى لفـترة وجيزة واخلع عن

رأسك هذا التاج لأنه يسبب لى بعض الألم فى جبينى . . ولـكن كن رقيقا . ولا تؤذنى . !

نزع انطونى التاج . . وهزت كليوبترا رأسها فانسدل شعرها ولفت غدائره جسمها الفاتن البض

ثم هتف أنطونى :

— أيتها الأميرة الملـكية . . خذى تاجك ثانية من يدى . . لن أسلبه منك ، ولـكنى سأثبته على جبينك الوضاء .

— ماذا تعنى أيها الأمير ؟

— ماذا أعنى ؟! . انك تعلمين قبل غيرك ما فى الاتهامات السياسية التى وجهت اليـك من صحة . . تلك الاتهامات التى كانت كفيلة بنزع التاج عن رأس أى ملك بالغة ما بلغت قوته . . ولـكن الأمر يختلف بالنسبة اليك . . فالطبيعة قد وهبتك جمالا .. وجادت عليك بملاحة لم تجد بها على امرأة قبلك ولاجل هذا الجمال الساحر وتلك الملاحة الفاتنة قد عفوت عن كل شىء .

— ما أنبل ما نطقت به شفتاك .. أى فاتح العالم ! اذا كنت قد اخطأت فى الماضى فلم يك ذلك إلا لأنى لم أكن قد عرفت انطونى بعد .. اذ من يعرف أنطونى ويخطىء حياله ؟ ! أنطونى معبود النساء وفاتح مغاليق قلوبهن كما تتفتح الزهور تحت حرارة الشمس . !

اى انطونى .. ثبت التاج على جبينى . . وسأقبله كهدية منك . . وسأعتز به وأحافظ عليه .. لهذا السبب

سأكون به ملـكة مصر . . وأنت امبراطور روما وأمير مصر المقدس !.! .

وضع انطونى التاج على جدائلها الذهبية . . ووقف يلتهمها بعينيه الراغبتين النهمتين . . ثم احتواها بين ذراعيه . . وقبلها ثلاثا

تخلصت من قبضته برفق وهى تبتسم . ابتسامة رقيقة . . وبينا هى تنسحب اذ سقط الثعبان الذهبى المقدس عن جبينها . . دون أن يشعرا به فى غمرة غرامهما

رأيت هذا النذير . . وأدركت ماسوف تكون نتائجه
ثم هتف انطونى :
— ألا تستطيعين أن تحبينى يا كليوباترا وتكونى لى الوفية المخلصة ؟
— انى لم أشعر بان حياتى شيئاً حتى هذه الليلة السعيدة التى تذوقت فيها الحب الحقيق . . خذنى بين ذراعيك ودعنا نقسم كلانا قسم الحب العظيم . . أى انطونى . . من الآن . . وإلى الأبد . . سأكون لك الوفاء بعينه . . ولن أكون إلا لك . . ولك وحدك . .

لم يعد يعوزنى الدليل للتأكد من غدر كليوباترا بعد ذلك . . فتناولت شارميون يدى واجتذبتنى إلى الناحية الأخرى وقالت :
— هل رأيت اليها ؟
— نعم . . لقد تفتحت عيناى . .

الفصل السادس عشر

اعتراف شارميون

جلست لحظة مطرق الرأس . . وقد شعرت فى اعماق قلبى بمرارة الذل والعار . . تلك اذن هى النهاية . ! الأجل هذا حنثت بايمانى . . وافشيت لها سر الأهرام . . وفقدت تاجى . . وشرفى . . وربما أملى فى السماء . !

هل يوجد فى هذا العالم رجل قد أغرقته لجة الأحزان كما أغرقتنى . . . لكن ماذا كان يسعنى أن أفعل

وفى غمرة ذلك الحزن المبرح .. شعرت بأن قلبى يوشك على الانفجار . ثم انثالت الدموع من عينى غزاراً . . وبكيت أحر بكاء ! !

اقتربت مى شارميون . . وكانت هى الأخرى تنتحب . . وقالت :
— لا تبك يا هارما كيس . . اننى لا أحتمل أن أراك منتحبا . . . أكنت تفضل ألا أحذرك ؟ . لقد سمعت مافاهت به تلك المرأة المتنمرة الفاجرة .. ستسلمك غداً إلى أيدى القتلة . !!
— هذا حسن

— كلا . . ليس حسناً يا هارما كيس . . لاتمكنها من جنى ثمرة النصر الأخيرة . . لقد فقدت كل شىء إلا الحياة . . ومع الحياة يعيش الأمل وبالأمل قد تسنح الفرصة للانتقام . ؟ !

فقفزت من فوق المقعد وهتفت :

— الانتقام . . نعم . . لم أفكر فيه من قبل ؟ ! نعم ما ألذ أن ينتقم الانسان لنفسه

— نعم . . حلو هو الانتقام . . يا هارما كيس ! ! ولو أنه كالسهم الذى يصيب راميه حين اطلاقه . ! ! يجب أن تهرب قبل انبثاق الفجر . . . وهذه خطتى . أصغ الى :

غداً قبل الفجر ستبحر سفينه تجارية راجعة إلى الاسكندرية . . . وسأحضر لك ملابس تاجر سورى وأزودك بخطاب توصية إلى الربان . . وسيكون برينوس فى الحراسة هذه الليلة . . وبرينوس صديقى ، وصديقك أيضا . فما قولك ؟

فأجبت بضجر :

— حسناً . .

وجلست منتظراً . . مكدود الذهن . والواقع أنه لولا تلك الرغبة الملحة فى الانتقام . لطاش صوابى .

أخيراً سمعت صوت وقع أقدامها فى الخارج ودخلت بخطوات متثاقلة وقالت :

— هاهو الرداء . . وقد حصلت لك على كلمة السر من برينوس وهى « أنطونى » وهوذا الخطاب إلى الربان . . والآن سأنتظر بالخارج ريثما تستبدل ثيابك

مزقت الثياب التى كنت أرتديها . . وبصقت عليها ثم ألقيتها فوق الأرض ووطئتها بقدمى . . وارتديت الثوب السورى . وعاونتنى شارميون على تغيير ملامحى . حتى غدت هى نفسها لا تكاد تعرفنى بهيئتى الجديدة

ثم ناولتنى كيسا من النقود وقالت :

— خذ هذا . لأنك ستحتاج فى رحلتك الى النقود

— لا أستطيع أن آخذ من مالك يا شارميون . !

— كلا . خذه . لقد أعطانية « سيبا » للانفاق منه على قضيتنا . . وإذا احتجت أنا الى شيء من النقود فسآخذ من سيدى العتيد انطونى

ثم عاونتنى على اعدد المعدات اللازمة للسفر . قلت :

— لقد حان وقت الرحيل . على ما أعتقد

— كلا . صبرا يا هارما كيس . احتمل وجودى معك ساعة أخرى . فقد لا نلتقى بعد ذلك أبدا . انى أرجو عفوك ياهارما كيس اذ قد ألقى على مسامعك كلمات شديدة الوطأة قبل رحيلك

— قولى ما تريدين . فلن يكون للكلمات علىّ بعد ذلك من تأثير . بالغة ما بلغت مرارتها !

فوقفت أمامى ويداها على صدرها . . ونور المصباح يضيء محياها المشرق ثم تكلمت أخيرا بما يشبه الهمس :

— عسير علىّ أن أدعك تذهب يا هارما كيس دون أن تعرف الحقيقة لقد كنت أنا يا هارما كيس التى أفشيت سرك

فقفزت واقفا . . وشرر الغضب يتطاير من عينى . وأوشكت أن أصب لعناتى على رأسها . ولكنها أمسكتنى من يدى . وهتفت :

— اجلس . ريثما تستمع الى بقية القصة وعندها لك أن تفعل بى ما ما تريد . اصغ الى . منذ أن وقع بصرى عليك . وقد نفذ حبك الى قلبى وملك على تفكيرى ومشاعرى . ولكنك لم تكترث بى . وأبديت نحوى بروداً واعراضا . بل ما هو أشد من ذلك وانكى . فانك لم تعتبرنى الا كآلة فى يدك تستخدمها لبلوغ مآربك . بينما كان كل اهتمامك . واعزازك موجها الى كليوباترا . طاش صوابى واستبد بى الغضت وتملكتنى روح شريرة لا أدرى كنهها . وشعرت بتلك الروح تدفعنى الى الجريمة . . فذهبت — يالخجلى وعارى — الى كليوباترا . وأفشيت لها سرك . وخنت قضيتنا المقدسة وقلت لها انى قد عثرت على ورقة مكتوبة سقطت منك . وقرأت ما بها .

أخذت الهث . ولـكنى ظللت واجمـا . متطلعا الى الفتاة بعينين ملؤهما الحزن والاسى . فاستطردت :

— دعنى أقص عليك جريمتى كلها يا هارما كيس . وليأخذ العدل بعد ذلك مجراه . !

كانت كليوباترا قد بدأت تحبك . . وفكرت جديا فى أمر اتخاذك زوجا لها . . وا كراما لهذا الحب صفحت عمن اشتر كوا معك فى المؤامرة . ولقد كان فى نيتها ان تبر بوعدها وان تجعلك زوجا لها .. ولـكن حدث عندماجاء دليوس لتلقى الجواب . ان طلبت منى المشورة فى الأمر . هل تعلن العـداء لانطونى . وتتزوج منك . أم تطرح هذه المسألة ظهريا . وتذهب الى انطونى ؟ وهنا — لا بد ان تدرك مبلغ شناعة جرمى — نصحتها ان تذهب الى انطوني لانى تكهنت انه لا بد واقع فى شرك غرامها . . لقد دفعتنى غيرتى العمياء الى ارتكاب هـذا الجرم على شناعته . و آثرته على ان اراك بين احضان امرأة اخرى

والآن ليس لدى ما اقوله ياهارما كيس . سوى ان حبي القـاهر لك قد دفعنى الى تحطيمك . فحطمتك . وحطمت مصر . وحطمت نفسى كذلك والموت هو الجزاء الوفاق لى على جريمتى . فاقتلنى ياهارما كيس . انى اتقبل الموت بسرور من حد سيفك . وساقبل نصل الحسام وانت تذبحنى به

ثم خرت على الارض را كعة و كشفت عن صـدرها حيث استطيع أغماد خنجرى . ولـكنى صحت فيها قائلا :

— ايتها الفـاجرة . انهضى . لن اقتلك . من انا حتى احاسبك على جريمتك . بيننا جريمتى لا يشفع فيها تـكفير

— كلا . . اقتلنى يا هارما كيس . . . فوزرى فوق الاحتمال . . . اقتلنى والا قتلت نفسى .

— لن أقتلك ياشارميون .. ولن أسمح لك بقتل نفسك . لقد زرعت . ويجب أن تحصدى . . . عيشى . . والتقطى من عام الى عام ثمرة جرمك المرّة . لتقلق الأحلام نومك . وليتنظرك غضب الآلهة فى أمتى !

— لاتتكلم هكذا ياهارماكيس . فكلماتك أقطع من السيف . . . ولكن اصغ الى . لقد كنت فى أوج قوتك . والسلطة كلها فى يدك ، فرفضتنى ونبذتنى ، والآن هاأنت طريد منبوذ . لاحول لك ولا قوة . . ولكنى ما زلت جميلة . وما زلت أعبدك . فدعنى أهرب معك . . اتخذني شقيقة . أو خادمة . أو حتى أمة لك . امنحني الفرصة لكى أتطلع الى وجهك وأقاسمك همك وشجنك .. سأحتمل كل شىء حتى الموت مادمت الى جانبك .

— كلا . . أيتها المرأة ، لا أستطيع أن أروض نفسى على رؤيتك ورؤية فمك الذى باح بسرى وخاننى . . كلا . . ابقى فى بلاط كليوباترا . . فربما احتجت يوما الى خدماتك . ولكن اقسمى لى الا تخوننينى مرة أخرى ! !

— أقسم ياهارماكيس . . ولتحل على لعنة أشد وقرا من التى أحتملها الآن ان أنا فكرت فى خيانتك .

— هذا حسن .. والآن ياشارميون التى أحبتنى وسحقنى حبها . الى الملتقى . .

حدقت الفتاة فى وجهى . . ومدت ذراعيها كأنما لتمسك بى . . ثم غلبها الهم والشجن . . فسقطت فى مكانها على أرض الغرفة .

أخذت معداتي واجتزت الغرفة صوب الباب . ثم القيت عليها نظرة أخيرة وقد تعفر جبينها بالتراب .

القسم الثالث

انتقام هارماكيس

الفصل الاول

الفرار

غادرت القصر قبل الفجر بساعة . . وقد خيمت السكينة على المدينة . . فاقتربت من البوابة متجها صوب الحارس .. وكان ملتفا بعباءة ثقيلة . . وقال

صوت عرفت فيه صوت برينوس : من القادم ؟

— تاجر يا سيدى . . قد جاء ببعض الهـدايا من الاسكندريه لاحدى وصيفات الملكة والآن يريد الرحيل

— وهل تستقبل وصيفات الملكة ضيوفهن إلى مثـل تلك الساعة المتأخرة . ولـكن كان القوم فى حفلة . . كلمة السر يا سيدى التاجر ؟.

— « انطونى » يا سيدى

وكان الحـارس يمشى جيئة وذهـابا طول الوقت الذى احتجزنى فيـه ثم انحرف إلى اليمين ليفسح لى سبيل المرور من البوابة . . ثم همس بسرعـة وهو ينحنى :

— إلى الملتقى يا هـارما كيس . . تذكر برينوس الذى خاطر برأسه ليخلصك . إلى الملتقى أيهـا الصبى . . اشد ما كنت أرجو أن نبحر سويا الى الشمال

— إلى الملتقى يا برينوس .. ايها الرجل الأمين

وقد تناهي إلى علمى بعـد ذلك . . انه فى اليوم الذى تلا رحيلى تصـايح القوم لانهم لم يجدونى برغم تفتيشهم الدقيق فى كل مكان . . وقـد ادى لى برينوس خدمة عظيمة لأنه أقسم انه فى أثناء حراسته .. فى الساعة الواحـدة بعد منتصف الليـل . . رآنى واقفـا فوق السطح . . وأنشر ردائى الذى سرعان ما تحول الى أجنحة وطرت به إلى السماء . . تاركا اياه مشدوها

وقد قابل رجال البـلاط هـــذ القصة بآذان مفتوحة . . . مصدقين ماقيل نظراً لمـا كنت أتمتع به من فنون السحر . . وقد وصلت هذه القصة إلى مصر كذلك ، وكان لها الفضل فى تنقية اسمى إلى حد ما لاعتقاد العامة بانى أعمل بارادة الآلهة . . وأن الآلهة هى التى رفعتنى الى السماء . . . لذلك مافتئوا يرددون : « عند ما يعود هارما كيس ستحرر مصر » .

صدق الجميع تلك القصة اذن ، ماعدا كليوباترا التى ساورتها الشـكوك وأرسلت مركباً خاصاً للبحث عن التاجر السورى .

* * *

عند ماوصلت الى السفينة وجدتها على وشك الاقلاع . . فأعطيت الكتاب للربان الذى نظر إلى نظرات غريبة ولم يقل شيئا .

عبرنا النهر حتى مصبه . . ودخلنا الى البحر تساعدنا ريح مواتية . . ولكن قبل المساء هبت عاصفة شديدة , . خاف البحارة سوء مغبتها . . واستمرت الليل بأكمله . . ومكثت أنا ساكناً . . ملتفاً فى عباءتى . . غير مكترث لشيء . . ولأنه لم تظهر على علامات الخوف . . اعتقد النوتية اننى ساحر . وفكروا فى القائي الى البحر . ولكن الربان منعهم من ذلك

هدأت الريح عند الفجر . . ولكنها عادت الى شدتها عند الظهيرة ودفعت السفينة صوب صخور جزيرة قبرص . فاستولى على البحارة الذعر . . واستبد بهم الفزع . . وأقسم أحدهم ليرمينى قربانا لآلهة البحار . وفى غمرة الخوف المستولية على الربان . لم يقل شيئا

هم البحارة بالقائى . . فتحديتهم قائلا : « القونى اذا أردتم . . ولكنكم ستهلكون جميعاً »

لم آبه بذلك البتة . . بعد أن لم تعد لى فى الحياة رغبة . . وبرغم خوفى من الموت ومقابلة أمى المقدسة « ايزيس » . الا أننى كنت قد عانيت مشقة ومرارة فوق كل احتمال

أمسك بى البحارة كالوحوش وألقونى وسط الأمواج الغاضبة ..فصليت لايزيس . وتهيأت للموت .

ولكن الموت لم يكن مقدراً لى بعد . لأنى صعدت الى سطح الماء وألفيت لوحا من الخشب عائما . فتعلقت به . . وتطلعت الى الوراء فرأيت النوتية قد تجمعوافوق السطح لرؤيتى وأنا اغرق. وحينما رأوا وجهى الطبيعى لأن الماء كان قد أزال المساحيق . . صرخوا من الذعر . .وارتدوا على اعقابهم وجلين

وهبت العاصفة فجأة . واستبدت بالسفينة . ولم تزل بها حتى أغرقتها بمن فيها . كما أغرقت السفينة التى أرسلتها كليوباترا للبحث عن التاجر السورى.

وبذلك .. فقد القوم آثارى .. واعتقدوا أنى من الهالكين !

قدت نفسى صوب الشاطىء . وكانت العاصفة ما تزال على أشدها . . ولكن الخوف لم يعرف إلى قلبي سبيلا . ثم طغى على حب العيش مرة أخرى وظلت الأمواج تتقاذفنى .. حتى حطمت لوح الخشب . وغصت الى الأعماق !

***

وعندما فتحت عينى بعد ذلك رأيتنى فى غرفة فى منزل ما . فسألت بصوت خافت :

— كيف أتيت الى هنا ؟

فاجابنى صوت خشن بالاغريقية :

— أتى بك « بوسيدون » أيها الغريب . لقد لفظتك الأمواج والتقطك أحد الصيادين . . يجب أن تستريح قليلا . لأن ساقك اليسرى قد كسرت

فجاهدت لتحريك قدمى . ولكنى لم أستطع

ثم هتف الرجل :

— من أنت وما اسمك ؟.

— اننى تاجر مصرى . وقد تحطمت سفينتى بفعل العاصفة . واسمى أليموس .

وقد اخترت هذا الإسم صدفة . وعرفت به فيما بعد

مكثت بين ظهرانى القوم حولا كاملا . حتى جبر كسرى . ولكنى وجدت نفسي فى نهايتها قد صرت أعرج .

واشتغلت معهم فى صيد السمك والفلاحة . . وكان القوم يحترموننى . . ويرهبوننى . لاعتقادهم أننى ساحر قذف به البحر

وذات ليلة عالجت النوم بلا جدوى . واستولى علىّ ارق لاأدرى له كنها . وإذا بى أشعر برغبة ملحة تملأ قلبى .. للرحيل

***

وفى اليوم الثالث من رحيلى .. وصلت الى « الى سلاميس » .. ومكثت بها أياما ثلاثة حتى وجدت سفينـة ذاهبة الى الاسـكندرية . . وفى اليوم الخامس وصلنا الى تلك المدينة البغيضة . !

سرت بعد ذلك فى النيل . . وقد سمعت من حديث القوم أن كليوباترا عادت الى مصر مع أنطونى وانهما يعيشان عيشة الترف . . وكان النوتية كلما أعملوا المجاذيف يرددون أغنية شائعة عن كليوباترا وأنطونى . . وغرامهما مكثت واجما . . لا أشارك القوم حديثهم . . ولا نشيدهم . . حتى باتوا أيضا يخشوننى ويرهبون جانبى . . فادركت أن اللعنـة قد حلت علىّ لاننى صرت مبغوضا من الجميع

وفى اليوم السادس بلغنا « أبوثيس » . . وقد سر البحارة لمغادرتى اياهم فى تلك البلدة .

أخـــذت طريقى بين الحقول بقلب كسير . . وقد قابلت وجوها ليست غريبة عنى .. ولـكن أحداً لم يعرفنى .. لتنكرى .. وللعرج الذى أصبت به

وعنـد غروب الشمس وصلت الى باب المعبـد . . ثم بدأت الافكار تساورنى . . لو كان أبى أمينمحعت حيا . . لاشاح بوجهـه عنى . . لعمرى لن أجرؤ على الذهاب إلى حضرته .

جلست هنيهة مستطلعا . . فلم أجد أحدا يخرج من المـكان أو يدخـل اليـه ! ثم رأيت العشب ناميا على الحجر !. ماذا ؟ هل المـكان مهجور ؟ أو هل مات أبى ؟ .

لم أستطع احتمال الشك أكثر من ذلك . . فـدلفت الى بهو الأعمـدة وتطلعت حولى .. ولـكن لا حس ولا حركة . . ولا شيء يدل على الحيـاة

نفذت إلى الحجرة ذات الستة والثلاثين عمودا والتى توجت فيها أميرا على البـلاد . . ولم تـكن بافضل من بهو الأعمدة : سكون فى سكون . وصمت أشبه بصمت القبور

انطلقت أخيرا الى غرفة أبى . . فرأيته جالساً فى ثيابه السكهنوتيـة . . وقد خلت بادىء الأمر أنه ميت . . لأنى لم أر فى عينيه ما يدل على أنه مبصر

كان وجهه قد نحل . . وسرت التجاعيد والغضون اليه . . وزادها الشجن والحزن عمقا وغورا

وقفت بلا حراك وأنا أشعر بالعينين الكفيفتين تحومان حولى فلم أنبس ببنت شفة . . بل فكرت فى الانزواء . .

ولم أكد أتحول قاصداً الخروج .. حتى هتف أبى فى صوت عميق

— تعال هنا . . يامن كنت ولدى . . أنت الآن خائن . . تعال هنا أى هارما كيس . . بل من كانت مصر تبنى عليك آمالها . . ألأجل هذا أخرجتك من جوف « نوت » لكى تكون على مصر لعنة وعاراً ؟ ! .

فتنهدت متوجعاً وأجبت :

— لا تكلمنى هكذا يا أبى . . ألا ترى أنى أعانى أشد الآلام . . ألم أقع أنا أيضا فى شرك الخيانة . . ونبذت نبذ النواة ! كن رحيما بى . . يا أبى !!.

— أيها الخائن . . لتمت فى أحزانك . . ليكن العار نصيبك . . . وجهنم مصيرك

ثم نهض عن مقعده وهو يترنح . . وأخذ يضرب الهواء بعصاه . . ثم أرسل صرخة حادة وسقط على الارض . . والدم يتدفق من فمه . .

فهرعت اليه وحملته . . وكان يحتضر . .

راح يغمغم :

— لقد كان ابنى . . وكان قلبى مفعما بالآمال . . والآن .. لكم وددت لو أنه مات ! !

ثم غص صوته . . وأخيرا همس :

— أى هارما كيس .. هل أنت هنا ؟

— نعم يا أبتى

— استغفر يا هارما كيس.. . استغفر . . مازال وقت التكفير متسعا . هناك بعض الذهب . . قد خبأته . . ستحدثك « أتوا » عنه . . آه .. ماهذه الآلام . . استودعك الآلهة . .

ثم اختلج جسمه بين ذراعى . . وفارق الحياة

الفصل الثانى

مجىء « أتوّا »

جثوت على أرض الغرفة . . أحملق فى جثمان أبى المسجى . . الذى عاش ليلعننى . . بينا زحفت الظلمة وتجمعت حولى . . وساد على المكان سكون موحش . . .

ما أشد ما أشعر به من بؤس وكرب !. ومرة أخرى فكرت فى الموت . وكنت أحمل مدية بين ثنايا ثيابى . . فاردت اغمادها فى صدرى . . لأرسل روحى حرة طليقة !.!

حرة .! نعم حرة لتواجه غضب الآلهة وانتقامها الشديد ! . ولكن . .

و أسفاه .. لست اجرؤ على الموت ! . انه لاهون على نفسي ان أحتمل المتاعب على الأرض . . من أن أواجه الفزع الابدى . الذى هو مصير كل خاطئ . فى أمنتى المظلمة

تمددت على الأرض . . وبكيت بدموع حرى .. حتى نضب معين الدموع ومرة أخرى أمسيت فى الظلام الموحش .. لا أسمع الا صدى احزانى .. وشجنى ! !

فكرت فى الهرب من هذا المكان الشديد الوحشة . . ولكن إلى أين الفرار ؟ ؟ أنا الذى ليس له أن يسند رأسه ! .

جثوت مرت أخرى . . وتصبب العرق بارداً على جبينى . . وعندما استبد بى اليأس . . ركعت وصليت بحرارة إلى الآلهة « ايزيس » . . تلك التى لم إجرؤ على الصلاة اليها مدة طويلة . !

وبعد أن فرغت من صلاتى . . نهضت واقفا . . ومددت ذراعى . . وتجرأت على القاء « كلمة الخوف » وسرعان ماحصلت على الجواب .. اذ سمعت رنين الصولجان يبدد السكون . . ويعلن مجىء « ذات العظمة »

ثم رأيت فى زاوية الغرفة منظر القمر . . بقرنين ذهبيين . . وبينهما سحابة قاتمة . . يلتف حولها ثعبان نارى . .

مادت الأرض تحت قدمى . . وخررت على الأرض ساجداً . .

وأخيراً .. سمعت صوتاً حلو النغم صادراً من السحاب :

— أى هارما كيس . . يامن كنت خادمى . . وولدى . . لقد سمت صلاتك . . وسمعت دعوتك لى التى اجتذبتنى من « اللا نهاية » . . لن يربط بيننا الحب المقدس بعد الآن ياهارما كيس . . لأنك أخرجتنى من حسابك ولكنى أتيت أحمل اليك الخوف . . والفزع . . والانتقام ! !

— اضربى ضربتك ايتها الآلهة المبجلة اذن .. انتقمى منى .. فلست عستطيع بعد على تحمل وقر الذنوب . !

— وإذا كنت لا تستطيع حمل متاعبك على الأرض . . فكيف تقدر على حمل العذاب الابدى على كتفيك . عندما تأتى الى مملكة الموت ملوثا

بالادران . والخطيئة ؟ ! كلا لن أضربك ياهارماكيس . . وأيضا لن أريد متاعبك ، ولو أنك دنست اسمى وذكراى فى مصر . . لقد أخطأت .. وستلقى العقاب الشديد

ولكن طريق الندم والاستغفار مازال مفتوحا أمامك . . وقد خطوت فيه أولى خطواتك .. فسر فيه . وكل من الخبز المرير . . الى ان ينتهى أجلك .

— اليس هناك قبس من أمل . أيتها الآلهة المقدسة !

— كلا .. لا شىء ينسخ ما حدث .. ولن تستعيد مصر حريتها بعد الآن الا ان هدمت معابدها واختلطت برمال الصحراء . وحلت بها ديانات جديدة

— واأسفاه .. لقد قضى علىّ

— نعم قضى عليك .. ولكن شاءت عدالتى أن أعطيك فرصة لهدم من هدمتك . فعندما تعطى لك العلامة . اذهب الى كليوباترا . ونفذ فيها عدل السماء .

والآن.. كلمة أخيرة لك ياهارماكيس .. لقد كان يربط بيننا رباط الحب المقدس .. فتب واستغفر فربما أمكن فى النهاية أن تأتى الى .. وعندها لن يحول بينى وبين رفقتك حائل . سواء كنت فى « النجوم » أو فى « أمنتى » فى الحياة أو فى الموت !.

لاتدعنى مرة أخرى الا إذا كمل استغفارك . . والآن . الى الملتقى !

وما أن انطقت آخر كلمة من كلماتها العذبة . حتى دخل الثعبان الذهبى قلب السحابة . التى ابتدأت تتلاشى شيئا فشيئا . ثم سمعت رنين الصولجان ضعيفا خافتا . ثم ساد السكون

أخفيت وجهى بين طيات ثيابى . . وكانت ذراعى لا تزال مبسوطة تلمس جثة أبى الذى لعنق . ولكنى أحسست بالأمل يدب الى صدرى . . فتنفست الصعداء .. اذن فلم أفقد كل شىء بعد !

وانهكت قواى تلك الحوادث .. فاستغرقت فى سبات عميق

وعندما استيقظت من نومى . رأيت خيوطا من النور تنفذ من كوة فى

السقف وترسل أشعتها على وجه ابى الميت .

قفزت واقفا و تذكرت كل ما حدث . . ثم تناهى الى سمعى صوت « اتوّا » الزوجة العجوز . . وهي تغمغم :

— ما هذا الظلام الذى يخيم على المكان ؟ ! . لقد ذهب بناة هذا المعبد المقدسون .. واأسفاه !

ثم دلفت الى الغرفة وباحدى يديها عصا . . وبالأخرى سلة . . ورمقت المكان بعينيها السوداوين الحادتين ولكنها لم تميز شيئا . . بسبب الظلال التى امتدت الى الغرفة

لم يتغير وجهها كثيرا عن ذى قبل . . سوى بعض التجعدات التى سرت الى جبينها .. وبعض الشعيرات البيضاء التى وخطت غدائرها القصيرة

غمغمت قائلة :

— أى أوزوريس . . المجد والعظمة لاسمك .. ما هذا ؟ ! لم هو ممدد على الأرض ؟ هل مات ؟ ! . أيها الأمير . . أيها الأب المقدس . يا امينمحعت استيقظ وانهض . يالنحس الطالع . . لقد قضى . ؟ ؟

ثم أرسلت صرخة مدوية تجاوبت اصداؤها فى المكان .

فانسللت من الغرفة المجاورة وهتفت :

— صه أيتها المرأة . !

فصاحت قائلة :

— من أنت ؟ . أيها الرجل الشرير .. هل قتلت هذا الرجل المقدس ؟! فلتحل عليك لعنة الآلهة .!

— انظرى الى يا « اتوّا » .

— أنظر اليك أيها الأفاق الخائن . انك ارتكبت أشنع جرم . لقد مات امنيمحعت .. وهارماكيس الخائن لا يعلم له مقر . ولقد أمسيت ولا أهل لى و لا ولد ! اقتلنى أنا أيضا . . أيها الشرير

— اصمتى أيتها الحمقاء . . ألا تعرفيننى ؟ ؟

— وهل لي أن أعرف كل نوتي أفاق ؟ ! . ولكن . ما هذه الملامح ؟

انك أنت . . أى ولدى العزيز . هل أتيت لتشيع البهجة والسرور فى نفسى وأنا التى ظننتك ميتا . ؟ ! ولكن لا . . لقد نسيت . . انك خائن . . وقاتل . ها هو ذا امنيمحعت المقدس يرقد على الأرض . وقد قتله هارما كيس الخائن اذهب . . اليك عنى . !

— هدئى من روعك أيتها المرأة . إننى لم اقتله . ولكنه مات . وا أسفاه . بين ذراعى

— نعم . مات وهو يلعنك يا هارما كيس ! ! . . أيتها الآلهة المقدسة . لقد عشت طويلا . وناء عاتقى بوقر المتاعب . ولكن ما أراه الآن اثقلها واشدها وقراً

— أيتها العجوز . لا تزجرينى . ألا ترين الى شقائى . ؟ !

— نعم . نعم . لقد نسيت . وما هو جرمك ؟ . امرأة دائماً المرأة . قديماً . والى النهاية ! لقد رباك الكهنة تربية دينية فقط . فتغلبت عليك المرأة . تلك سنة الطبيعة . تعال يا هارما كيس . دعنى اقبلك . لا تقسو امرأة على رجل لانه احب واحدة من بنات جنسها ! .

ولكن هناك نقطة سيئة . الا تعلم ان هذه المرأة استولت على المعابد . . وطردت منها الكهنة . وابطلت عبادة الآلهة . انها لم تبق على غير امنيمحعت ولكنه قضى . أجدر به ان يمضى الى احضان اوزوريس من ان يحمل فوق منكبيه متاعب وآلام ينوء بها اولو القوة .

والآن . اصغ الى . انه لم يخلفك خاوى الوفاض ياهارما كيس . بل ادخر لك مبلغا كبيرا من الذهب عندما علم بفشل المؤامرة . ساخبرك عن مكانه . انه حقك بالوراثة .

ـ لا تتكلمى عن الثروة يا « اتوّا » . خبرينى أين يمكننى ان اذهب واخفى عارى وخجلى ؟ ! .

ـ هذا حق وصدق ! لم يعد بوسعك ان تقيم هنا . لانهم اذا عثروا بك لم يبقوا عليك . . ساخفيك فى مكان ما . وعندما تنتهى مراسيم الجنازة . . سنفر معا وسنختفى الى ان تنسى خطيئاتك . . تعال يا هارما كيس . تعال .

الفصل الثالث

مقابر طيبة

اقمت بمخبأ «اتوا» العجوز ثمانين يوما الى ان انهى المحنطون من عملهم. وصارت الجثة معدة للدفن

زحفت من مخبئى لأقدم قربانا على روح ابى الميت . واضع زهر اللوتس على صدره .. ثم رجعت والأسى يملا جوانحى

وفى اليوم التالى . . رأيت من مخبئى كهنة معبد أوزوريس يتقدمون ليضعوا التابوت فى قارب فى البحيرة المقدسة . . وشهدت المحاكمة . واعلانهم كيف كان ابى أعدل الناس .. ثم وضعوه بجوار أمى فى مكان الراحة بجوار أوزوريس المقدس

وبعد أن تمت كل هذه الاجراءات . . أخرجت كنوز أبى من مخبئها ووضعتها فى مكان أمين .. ثم فررت متنكراً . مع « اتوا » . إلى طيبة حيث التجأت إلى مقابر آبائى .. بين التلال المتناثرة .

وفى احدى الليالى خرجت أجوس خلال المقابر .. الى أن عثرت فى النهاية على قبر محتجب بين الصخور .. دفن فيه رمسيس المقدس

وفى الليلة التالية .. رجعت مع « اتوا » . ورحنا نتفقد القبر .. فاتينا إلى الغرفة العظيمة حيث يوجد تابوت الجرانيت .. ورأيت النقوش على الجدران ثم طفت بالحجرات الأخرى . . وقرأت ما فيها من نقوش بديعة . . تتحدث عن عظمة أصحابها ومجدهم الأثيل

وهنا .. بين هذه الجدران .. اتخذت لى مخبأ .. مدة ثمانى سنوات .

قضيت تلك الفترة متعبداً . نادما مستغفرا . وكنت أخرج عند الغسق اتجول . حتى تأخذ عينى الظلمة الدائمة .

وأخيراً شعرت انى اقترب من الآلهة .. لان الصلاة .. والندم .. وتلك العزلة اليائسة .. قد طهرتنى من أدران الخطيئة

وسرعان ما سرت اشاعة فى المدينة . . عن أن شخصاً حكيما يدعى

أوليمبوس قد اتخذ له مقاما بين القبور فى طيبة .. وله قدرة على شفاء المرضى ومخاطبة أرواح الآلهة . . وسرعان ما هرع إلى النـاس زرافات ووحدانا يبغون البرء من أسقامهم . وكنت قد تعلمت شيئا من خواص العقاقير فشفيتهم وانهالت على النقود والأعطية . حتى لم يعد « باتوّا» حاجة للخروج للبحث عن طعام لنا .

طبقت شهرتى الآفاق حتى إتى الناس لزيارتى من منف الى الاسكندرية وقد علمت منهم ان انطونى قد هجر كليوباترا . وتزوج من ا كتافيا

وفى السنة التالية . . أرسلت اتوّا متنكرة الى الاسكندرية للبحث عن شارميون . . وإذ وجدتهـا ما زالت محافظة على العهد . . أخبرتها بمكان وجودى . .

ولما عادت اتوّا أنبأتنى أنها قد تمكنت من مقابلة شارميون . . وفى معرض الحديث معها . . ذكرت اسمى بلبـاقة . . فلم تتمالك شارميون من البكاء بصوت مرتفع . . فأدركت ولاءها لى . . وأخبرتها أنى مازلت على قيد الحياة . . فأرسلت الىّ تحيتها وبعض الهدايا . . وبعد أن كانت تبكى أسى وكمداً . . بكت فرحا ، وجذلا

وفى السنـة التى تلت . . أتانى الرسل من لدن كليوباترا حاملين الهدايا ومعها ملف مختوم ، ففضضته وتلوت فيه ما يلى :

« من كليوباترا الى العالم المصرى أوليمبوس السا كن بوادى الموت فى طيبة . . لقد وصلت الىّ شهرتك . أيها العالم أوليمبوس . خبرنى إذن — . وإذا كنت ما تتصف به حقا ، أغدقت عليك من الشرف والثروة ما لم يتمتع به أحـد قبلك فى مصر — كيف أتمكن من إستعادة حب النبيـل أنطونى الذى سحرته ا كتافيا الما كرة وحولته عنا ؟ »

رأيت فى هذه الرسالة أصبع شارميون ! !

استوحيت الحكمة فى تلك الليلة .. وكتبت ردى . . لهلاك كليوباترا وأنطونى معا . . كما يلى :

« من أوليمبوس المصرى الى الملكة كليوباترا

« اذهبى الى سوريا . . وسيرسل اليك من يقودك . . هناك ستكتسبين أنطونى . . وسيغمرك من الهدايا بما لم تحلمى به »

ثم صرفت الرسل ورددت معهم هدايا كليوباترا فآبوا والدهشة ملء أفئدتهم .

وقد جدت كليوباترا من غرامها دافعا للعمل بما جاء فى الرسالة .. وهناك تحققت نبوءتى إذ خلع عليها أنطونى كثيرا من الأراضى والأملاك

وبعد ان عادت من رحلتها أرسلت الى الهدايا والعطايا . . فلم أقبل منها شيئا . . وحينئذ أرسلت تدعونى اليها . . ولكنى لم ألب الدعوة . . وكثيراً مابعثت تستشيرنى هى وأنطونى . . فكنت اشير عليهما بما فيه هلاكهما . .

((*))

كرت السنون . وتتابعت الأعوام . وأنا أزداد حكمة ومعرفة . . وطارت شهرتى فى مصر . عظيمة . . داوية

انصرمت ثماني سنوات .. وقد تمكنت كليوباترا من حمل انطونى على طرد زوجته اكتافيه من قصره .. كما لو كانت إحدى الجوارى . .

لقد بلغ الحمق بانطونى مبلغــه . واخطأته الحكمة . فانتهز اكتافيوس الفرصة وأعلن الحرب عليه

وذات يوم بينما كنت جالسا فى غرفة « عازف القيثارة » فى قبر فرعون بطيبة تراءى لى شبح والدى .. متكئا على عكازه .. وهتف :

— انظر إلى الأمام ياولدى

نظرت إلى الأمام فرأيت بعين البصيرة البحر واسطولين متشابكين فى معركة أحدهما لاكتافيوس .. والثانى لكليوباترا وانطونى .. ورأيت أسطول قيصر يحمل على أسطول انطونى حملة صادقة . وينتصر عليه .!

تطلعت ثانيــة فرأيت كليوباترا جالسة فى سـفينة ذهبية تراقب المعركة بعينين قلقتين . فارسلت عليها روحى . . وجعلتها تتخيل كأنما تسمع صوتى يدوى فى أذنها :

— الفرار ياكليوباترا .. الفرار وإلا هلكت

فتطلعت بانظارها فى ذهول .. واستولى عليها خوف شديد . . وأمرت النوتية أن ينشروا القـلاع . . ثم ولت مدبرة :

وارتفعت الاصوات من الأصدقاء والأعداء صائحة : « لقـد هربت كليوباترا » . ثم رأيت الدمار والهزيمة يحلان باسطول انطونى . . وافقت من سباتى .

وتراءى لى خيال أبى مرة أخرى بعد بضعة أيام . وهتف :

— لقـد حانت ساعة الانتقام ياولدى . . لقد تحطم اسطول انطونى فى البحر .. اذهب .. واعمل ما يوحى به اليك

وفى الصباح .. ذهبت الى مدخل البحر .. فرأيت رسل كليوباترا آتين عبر الوادى ومعهم الحرس الرومانى

فسألتهم بحدة :

— ماذا تريدون منى الآن ؟!

فاحنى الضابط رأسه وأجاب :

— هذه رسالة من الملـكة كليوباترا . . وانطونى العظيم .. إن الملـكة تأمرك بالحضور إلى الاسكندرية .. لقد أرسلت فى طلبك مراراً .. ولـكنك لم تلب . والآن هاهى تستدعيك وتطلب اليك الحضور على جناح السرعة . لأنها بحاجة شديدة إلى مشورتك

— واذا رفضت . ؟ — سنأخذك عنوة .. أى اوليمبوس المقدس

فانفجرت ضاحكا وأجبته :

— عنوة ! أيها الأحمق . لا تتحدث إلى بتلك اللهجة الحادة والا قضيت عليك حيث أنت . ! الاتعلم أن عندى القوة على البطش . . كما عندى القوة على الشفاء فارتعدت فرائص الرجل وأجاب :

— اتوسل اليك أن تعفو عنى . . انى لم أقل الا ما أمرت به

— حسناً أيها الضابط . . لاتخف . . سأرافقك

ورحلت فى نفس اليوم مع اتوّا العجوز .. ولم تطأ قدماى قبر رمسيس المقدس بعد ذلك اليوم . . وقد حملت معى كنوز أبى امينمحعت لأنى أردت

أن اظهر بالمظهر اللائق بمكانتى . ومنزلتى . وانا فى طريق الى الاسكندرية

وعندما وصلت . . انتهى الى ان انطونى قد تبع كليوباترا .. وفر من موقعة اكتيوم .. وان نهايته قد باتت قريبة

***

ووصلت أخيرا إلى الاسكندرية .. ونزلت بالقصر المعد لى .

وفى ذات الليلة جاءتنى شارميون .. شارميون التى لم أرها طوال التسع سنوات الماضية .

الفصل الرابع

أوليمبوس فى حضرة كليوباترا

جلست فى غرفة الانتظار . . بثوبى الأسود . . وأخذت اتطلع الى الطنافس الغالية . . ومظاهر الترف . . بينا جلست اتوّا بجوار الباب وقد تقدمت بها السن .

ها قد أتيت الى الاسكندرية مرة أخرى . . ولكنى لن أفشل هذه المرة ! !

لكم تغيرت الظروف . لم يعد لى دور فى القصة الجديدة . سوى دور الحسام فى يد العدالة . لقد فقدت الأمل فى احياء مصر أو تحريرها .. وفى جلوسى على عرشى الشرعى . . كلا . لقد ضعت . . وضاعت مصر . !

طلبت من اتوّا المرآة لأنظر فيها الى وجهى . لكم تغيرت ! ! وجه مجعد فارقه الابتسام . وعينان غارتا فى محجريهما . . وجسم هدته الأشجان . والصلاة والاستغفار .

لم أكد أعرف نفسى أنا هارماكيس الذى كنت مليئا بالقوة والصحة والجمال . !

« * »

سمعت طرقا على الباب . فنهضت « اتوّا » وفتحته ودلفت الى الغرفة فتاة فى ثياب اغريقية .

كانت شارميون . . وكانت جميلة كعهدى بها . . ولكن محياها ينطق بالألم الدفين .

وجهت الى الكلام قائلة :

— أيها العجوز . أرجو أن ترشدنى الى العالم اوليمبوس

فوقفت . ورفعت رأسى . وتطلعت اليها

فحملقت فى وجهى . . ثم أرسلت صرخة خافتة . وهتفت :

— أظنك لست أنت . !

— اننى هو . هارما كيس . الذى وقع قلبك الأحمق فى حبه يا شارميون ولكنى لست هارما كيس الذى أحببته . ولكنى اوليمبوس . العالم المصرى الذى يضع نفسه تحت تصرفك

— كلمة واحدة ياهارما كيس . لن أعود بعدها الى ذكر الماضى . اننى لاعجب كيف لا تعرف قلب المرأة . مع ما أوتيت من الحكمة . اذا كان الحب يتغير مع تغير الشكل الخارجى للحبيب . فكيف يتبع المحب حبيبه الى آخر مرحلة من مراحل التغير — وهى القبر ! ؟ ألا فلتعلم أيها الطبيب العالم اننى من ذلك الفريق الذى اذا ما أحب دام غرامه ولم يتغير . وإذا لم استطع نيل قلب الحبيب . ذهبت الى مرقدى الأخير . وأنا عذراء .

لم احر جوابا .ولكنى احنيت رأسى .

ولاقرر الحقيقة اقول انه ولو ان هذه المرأة كانت سببا فى تحطيمى . . الا اننى كنت اشعر نحوها . من اعماق قلبي . بعاطفة عرفان الجميل . اذ اى رجل لا يقدر تلك الهبة النادرة . ذلك الشيء الكامل الذى لا يمكن ان يشترى بالذهب . وهو حب المرأة الثابت . الوطيد ؟ !

واستطردت شارميون :

— اشكرك لأنك لم تجب على قولى . لأن الكلمات القاسية التى كنت قد صببتها فى اذنى ما زالت تلذعنى فى قلبى حتى لم يبق فيه متسع لسهام جديدة من سهام احتقارك .

ثم وقفت ونظرت الى اعلا ومدت يديها كأنما لتدفع عنها شيئا غير منظور

وقالت :

— لن اكون مصدرا لاقلاق راحتك بحبي بعد الآن . اذ ساطرحه جانبا ولو انى لا استطيع ان انساه . يكفينى ان جاد على الدهر مرة أخرى برؤيتك قبل ان يضرب الموت غشاوته الابدية على عينى . هل تتذكر ، عند ما طلبت منك ان تقتلنى ، انك ابيت ثم صببت على لعناتك . وطلبت لى الحياة لكى اقتطف ثمرة الجريمة عاما بعد عام ؟

— نعم . اذكر ذلك جيدا يا شارميون .

— لقد طفح كأس العقاب .. ألا تستطيع أن تقرأ ما سطر فى قلبي من آلام احتملتها باسمة ، صابرة ؟

— ولكنى ياشارميون إذا كان مابلغنى صحيحا فأنت الأولى بين نساء البلاط القوية المحبوبة . ألم يقل اكتافيوس انه لم يعلن الحرب على انطوني أو كليوباترا ولكن على شارميون وايراس ؟

— نعم ياهارماكيس . . ولكن فكر فى القسم الذى أقسمته لك . . وفى ارغامى على أن أخدم تلك المرأة التى أبغضها من أعماق قلبي . تلك المرأة التى سلبتك منى ، والتى بتأثيرها استبدت بى الغيرة فارتكبت ما ارتكبت وجررت العار عليك وعلى مصر . . هل تستطيع الجواهر والكنوز . . وتحبب الأمراء والنبلاء أن تجلب السعادة لامرأة مثلى أنا البائسة . . والتى لايقاس بؤس أكثر الساقطات ضعة ببؤسى . آه . هارماكيس ! . لكم بكيت . . ولكن عند ما كانت تدعونى الملكة الى خدمتها . كنت أنهض على قدمى وأمزق ثوب الحزن . وأتظاهر بالابتسام . . لقد كان نصيبك شاقا يا هارماكيس ، ولكنك كنت على الأقل حراً وكثيراً ما نفست عليك مكانك الهادىء فى ذلك الكهف السحيق .

— أرى ياشارميون انك مازلت محافظة على قسمك . وهذا حسن لأن ساعة الانتقام قد دنت .

— نعم . . انى عند قولى . . وفى كل تصرفاتى كنت أعمل لأجلك فى

الخفاء . لقد ذكيت الرغبة والغيرة فى صدرها . وزرعت فى قلبهـا الشر وفى قلبه الحماقة . وقد بلغ من سوء تدبيره ان هجر الجيش فى موقعة اكتيوم .. وكانت النتيجة أن سلم الضباط أنفسهم الى قيصر .

— وأين انطونى الآن . . اذن ؟

— لقد بنى لنفسه مسكنا فى جزيرة صغيرة عند « الثغر العظيم » . وهو يشكو قلة وفاء الناس الذين هجروه فى وقت شدته . . لقد أصابتـه حمى . . وتريدك الملكة على أن تذهب اليه لتشفيه وتعيـده اليها . . ولـكنها تريدك أولا أن تذهب الى حضرتها . لاستشارتك .

فنهضت واقفا وقلت :

— اذن خذينى اليها

اخترقنا أبواب القصر . وعبرنا حجرة المرمر . . ووجـدت نفسى مرة أخرى أمام باب غرفه كليوباترا . . ودخلت شارميون تعلن قدومى .

ثم قادتنى اليها وهى تهمس فى اذنى ان أتشجع . . والا خدعت نفسى فان بصر كليوباترا مازال حديدا . . فاجبتها :

— مهما كانت حدة بصرها . . فلن تعرف فى العالم أوليمبوس . . الأمير هارما كيس . وأنت نفسك ياشارميون . ما كنت لتعرفينى لو لم أعلن لك نفسى . .

دخلت الى تلك الغرفة التى لم أنسها . . وأصـــغيت الى صوت مياه الناقورة . وتغريد البلبل . وهمهمة البحر

انحنيت أمام كليوباترا ثم وقفت أمامها منتصب القامــة . فالفيتها لاتزال تستمتع بجمالها وفتوتها . لم تعد يد الزمن عليها .. ولـكن الزمن الذى لم يستطع أن يؤثر فى ملاحتها . قد وسم محياها بميسم الحزن . والضجر .

انحنيت أمام تلك المرأة الملـكيــة . . التى كانت يوما . . غرامى . . ثم دمارى . . ولـكنها لم تعرفنى

تطلعت الى أعلا بملل ثم قالت بصوت متزن النبرات :

— ها قد أتيت أخيرا أيها الطبيب .. ماذا تدعى ! .. آه .. اولمبوس .. انه اسم يبعث على الرجاء . . لأن آلهة مصر قد هجرتنا . . فلنلتمس العون من اولمبوس .. ان هذا لعجب ؟ ! ان شيئا فيك يذكرنى بما لست أدرى ماهو .. خبرنى يا اولمبوس .. ألم نتقابل قبل الآن ؟ !

فأجبت بصوت مصطنع :

— لم تتلاق عيوننا قبلا أيتها الملكة .. حتى هذه اللحظة التى لبيت فيها طلبك . . وأتيت لشفائك من أسقامك

— هذا أعجب العجب ! ! حتى صوتك .. انها ذكريات . . لا أستطيع استكناه حقيقتها .. قل لى .. اننا لم نتقابل وجها لوجه كما قررت . . ألا يمكن أن نكون قد تعارفنا فى حلم ؟ !

— نعم أيتها الملكة .. لقد تقابلنا فى الاحلام

— انك رجل غريب . . واذا كان ماسمعته حقا . . فان علمك غزير . . لقد اتبعت مشورتك عندما اشرت على باللحاق بانطونى فى سوريا . . وقد حدث كل شيء كما تنبأت . . فى الواقع انك فى فنون التنبؤ ضليع . . لايضارعك أحد من جهلاء الاسكندرية . .

ثم تنهدت .. واستطردت :

— لقد كنت أعرف يوما رجلا مثلك .. يدعى هارماكيس .. ولكنه مات منذ زمن طويل . ولقد تمنيت ان ألحق به ، وانى لأشعر بالأسى من أجله أحيانا . .

ثم توقفت عن الكلام .. وملت برأسى على صدرى .. ووقفت ساكنا .. واستطردت :

— فسر لى هذا يااولمبوس . . لقد حدث فى موقعة اكتيوم اللعينة . . عندما كانت المعركة على أشدها . والنصر قد ابتدأ يبسم لنا .. ان استولى على قلبى فزع مفاجيء . . وأظلمت الدنيا أمام ناظرى . . وسمعت صوتا ـ هو صوت هارماكيس الذى قضى منذ أمد طويل ـ يرن فى اذنى « الفرار . . وإلا هلكت » .. ففررت . . وسرعان ماملك الخوف قلب انطونى أيضا . .

فتبعنى . . وهكذا خسرنا المعركة . . خبرنى إذن . . أى إله جلب تلك اللعنة علينا ؟ !

— كلا أيتها الملكة . . لم يك هذا غضبا الهيا . . إذ متى كنت سببا فى اغضاب آلهة مصر ؟ هل سلبت مافى معابدهم ؟ .. هل خنت الأمانة المعلقة فى عنقك ؟ لم يحدث من هذا شىء .. إذن فليس هناك مايحنق الآلهة عليك . . ولكنه بحار من العشق طغى على نفسك الرقيقة . . وأمضك منظر الدماء والتقتيل .. فوليت الأدبار .. أما النبيل انطونى فهو لابد تابعك حيثما ذهبت ..

وبينا كنت أتكلم .. كانت كليوباترا ترتجف . . وقد اصفر وجهها . . وهى تتطلع الى محاولة أن تفهم معنى تفسيرى . . ثم قالت :

— أيها العالم اوليمبوس .. ان انطونى عليل . . وقد ذهب الحزن بعقله وتنكر لجميع الناس . . حتى لى أنا التى احتملت فى سبيله ما احتملت ! ! فأرجوك أن تصحب وصيفتى شارميون غداً .. عند بزوغ النهار . . وتستقلا زورقا إلى الحصن . . وتنبئه أنك آت بأخبار عن الجيش . . وعندما يسمح لكما بالمثول . . خبريه ياشارميون بالأنباء التى حملها كانديوس . . لأن كانديوس لا يجرؤ على الذهاب . . ومتى ذهب عنه الحزن فحاول أى أوليمبوس أن تشفيه من الحمى بعقاقيرك القيمة وتشفى نفسه بكلماتك المعسولة . واجتذبه إلى مرة ثانية . . افعل هذا ياأوليمبوس ، وستعطى من الهدايا . . مايفوق العد . . انى ملكة وقادرة على مجازاة من ينفذ ارادتى أوفى الجزاء

— لا تخشى شيئا أيتها الملكة . . فسأفعل ما طلبت . ولست أبغى منك الجزاء

ثم انحنيت وذهبت . . وطلبت من اتوا أن تجهز لى جرعة خاصة

الفصل الخامس

مأدبة كليوباترا

جاءتنى شارميون قبيل الفجر . . وسرنا حتى مرفأ القصر الخاص . . . واستقللنا قاربا انطلقنا به الى الجزيرة المقام عليها قصر تيمونيم الذى يقطنه

أنطونى . . ثم ذهب كلانا إلى باب القصر . . وقرعناه . . فأطل من كوة بالباب خصى عجوز سألنا بخشونة عما نريد . .

فأجابته شارميون :

— إن عملنا مع الامير أنطونى

— إذا كانت مهمتكما مع سيدى أنطونى فأولى بكما أن تعودا لأنه لن يقابل رجلا أو سيدة ! !

— ولكنه يجب أن يرانا لأننا نحمل له أخباراً . . اذهب وانبئه أن السيدة شارميون تريد أن تفضى اليه بأخبار عن الجيش

فمضى الرجل . . ثم عاد . وقال :

— إن سيدى أنطونى يريد أن يعلم ما إذا كانت . انباؤكما حسنة أو سيئة . . فان كانت سيئة . . فليست له بها حاجة . . وكفى بما عنده سوءاً

— ماذا ؟ ! . إنها حسنة وسيئة معا . . افتح أيها العبد .

ثم أسقطت كيسا من النقود من بين حواجز الكوة *

فالتقط كيس النقود . . وتمتم :

— حسنا . . حسنا . . إن الوقت سيء . . وقد يسير الى أسوأ . . . وإذا مات الاسد فمن يطعم بنات آوى ؟ ! اذهبا وانبئاه بأخباركما . . ويا ليتكما تستطيعان اجتذابه الى خارج « منزل التأوهات »

فاجتزنا الباب الى ممر ضيق . وتقدمنا حتى وصلنا الى ستار معلق كان بابا لغرفة باهتة الضوء . وقد تمدد فى اقصى الركن الايمن على وسادة من القش . شبح رجل .. وقد غطى وجهه بعباءته .

فتقدمت منه شارميون . وقالت :

— أيها النبيل انطونى . اكشف عن وجهك . واصغ الى . لانى احمل اليك انباء .

فرفع رأسه . وكان وجهه قد اذبلته الاحزان . وعيناه قد غارتا . وثوبه مشعثا . وكان أشبه بشحاذ بائس على باب أحد المعابد

وهكذا قضى حب كليوباترا على انطونى العظيم . الذى طبقت شهرته

الآفاق . والذى كان يطلق عليه « سيد نصف العالم »
تطلع الينا . ثم تمتم سائلا :

— ماذا تريدين منى أيتها السيدة ؟ . ومن هذا الرجل الذى اتى ليرقب انطونى الفاشل . المنبوذ

— هذا اوليمبوس أيها النبيل انطونى . الطبيب الحكيم . الضليع فى معرفة الطالع . والذى سمعت عنه كثيرا من قبل . وقد ارسلته كليوباترا التى لا تفكر الا فى خيرك . لكى يتولى علاجك

— وهل يستطيع طبيبك هذا ان يتولى علاج الاشجان . هل تستطيع عقاقيره أن تعيد الى سفنى . وشرفى . وطمأنينتى ؟ ! . كلا . بعداً لك ولطبيبك ! . ما هى اخبارك . اسرعى . هل تمكن كانديوس من هزيمة قيصر ؟ قولى لى هذا . اهبك اقطاعية . واذا انبأتنى أن اكتافيوس مات . ملأت خزائنك بالمال . تكلمى . لشد ما اخشى ما تنطق به شفتاك ! اسرعى فلا طاقة لى على الانتظار .

— أيها النبيل انطونى . تشجع واصمد لما سوف انبئك به . ان كانديوس بالاسكندرية . وقد انتحى مكانا قصياً . لقد انتظر مع جيوشه سبعة ايام يترقب عودة انطونى لكى يقودهم الى النصر . وقد رفض العطايا التى ارسلها اليه قيصر . ولكن انطونى لم يأت ! . ثم سرت الاشاعة بان انطونى قد هرب مع كليوباترا . وحينئذ انسل ضباطك . واحدا بعد واحد . وارتموا فى احضان قيصر . ثم تبعهم الجنود . وحتى حلفاؤك . هجروا الميدان جميعا . وذهبوا يخطبون ود قيصر !

فرفع انطونى يده عن جبينه . . وقال :

ألم تنتهى بعد من نعيبك . . أيتها البومة فى ثوب طاووس ؟ . تكلمى أيضاً . . قولى إن كليوباترا الفاتنة قد قضت نحبها . . اجمعى أخبارك المشؤومة كلها . . وصبها على رأسى ! . .

— كلا ياسيدى . . لقد انتهيت

— نعم . . وأنا أيضاً انتهيت . . وهاأنذا أختم حياتى

ثم استل حساما كان معلقاً فى غمده . . وحاول قتل نفسه لولا أن قفزت إلى الأمام وأمسكت بيده .. لأنه لو مات .. لابرمت كليوباترا صلحاً مع قيصر الذى كان يبغى موت انطونى . . أكثر مما يبغى تحطيم مصر

وصرخت شارميون قائلة :

— هل جننت ياأنطونى ؟ . هل أنت جبان حتى تنهى حياتك على هذه الصورة وتفر من الأحزان تاركا شريكتك تعانى الهم وحيدة ! ؟ .

— ولم لا أيتها المرأة .. انها لن تكون وحيدة . . هناك قيصر : . ان اكتافيوس يحب الجميلات من النساء . . وكليوباترا مازالت محتفظة بجمالها .. تعال الآن أى المجبوس . . لقد أمسكت بيدى . . ومنعتنى من قتل نفسى . . فاسد إلى النصح اذن .. هل أخضع لقيصر .. وأمشى وراءه فى موكب النصر وسط شوارع روما ؟ !

— كلا ياسيدى . . لاتسلم . . لقد قضيت الليلة الماضية فى استقراء حظك فرأيت انه كلما اقترب نجمك من نجم اكتافيوس . . بهت واختفى . . وكلما ابتعد عن مدار فلكه .. التمع وأشرق .. إنك لم تفقد كل شىء بعد .. مازال بيدك جزء . . ومادام فى يدك جزء . . فمن السهل استعادة الكل . . ان قيصر لم يقترب بعد من ابواب الأسكندرية . . ومن الميسور ايقافه . . ان عقلك المحموم قد الهب جسمك .. ومرضك لايمكنك من الحكم الصحيح ولكن انظر . . إن عندى لك جرعة من الدواء . . تعيدك صحيحاً معافى

— تقول جرعة دواء أيها الرجل !. اغلب الظن انها سم زعاف . وانك قاتل استأجرتك ملكة مصر للقضاء على .. لأننى لم اعد ذانفع لها .. أن رأس انطونى لهو عربون السلام بينها وبين قيصر . . سأجرعها وحق باخوس . . حتى ولو كانت أكسير الفناء ! !

— كلا أيها النبيل انطونى . . انها ليست سما . . ولست أنا قاتلا . . وسأتذوقها أمامك اذا اردت

— اعطنيها أيها الطبيب . . إن الرجل اليائس هو دائما الشجاع . . ما هذا . . ان جرعتك سحرية . . ان أحزانى قد تبددت . . وزهرة

الأمل قد أينعت فى قلبى القاحل . . لقد عدت انطونى مرة أخرى . . ومرة اخرى أرى سيوف جنـدى تلمع تحت أشعة الشمس . انى اسمع صيـــاحهم وترحيبهم . . أيها الأمل ! . . ايها الأمل . . .

فصاحت شارميون .

— نعم ما زال هناك امل يا سـيدى . . عد معنـا . . تعال الى ذراعى كليوباترا المحبوبتين . . انها ترقد طول ليلها على وسادتها الذهبية . . وسط الظلمة المدلهمة وتئن وتتأوه وتردد اسمك : « انطونى . . انطونى »

— سآتى . . سآتى . . يا لخجلى .. أنا الذى جرؤت على الشك فى أمرها أيها الخادم . احضر لى ماء . . والثوب الارجوانى . . لأنى سأذهب فى التو واللحظة

وهـكذا اجتذبنا انطونى الى كليوباترا .. حتى يـكون هلاك الاثنين معا أمرا محققا

سرنا معا عبر غرفة المرمر . . ودلفنا الى حجرة كليوباترا . . حيث كانت مضطجعة وغدائرها تغطى وجهها وصدرها . والدمع يسيل مدرارا من عينيها وصاح انطونى :

— أى ملـكة مصر . . هأنذا تحت قدميك . .

نهضت كليوبترا من وسادتها . وقالت :

— أهذا أنت أيها الحبيب .! اذن فسيسير كل شىء فى مجراه الحسن . . اقترب . . فستنسيك ذراعاى همومك : وتبدل اتراحك افراحا . أى أنطونى ما دام الحب لدينا . . فلدينا كل شىء . !

ثم ارتمت على صدره وأخذت تقبله بشغف وجنون . ! !

. . .

جاءتنى شارميون فى نفس اليوم وطلبت منى أن أجهز سما من أقوى أنواع السموم . . فخشيت أن تتعجل به كليوباترا نهاية انطونى .. ولـكن شارميون افهمتنى انه مطلوب لغرض آخر

تعاونت مع أتوا على تجهيز السم . . وبعد الظهر رأيت شارميون مرة

أخرى تحمل باقة من الورود . وطلبت منى أن أغرسها فى السم ! ! .
وفى ذات الليلة أقيم حفل كبير . وأخذت مكانى بجانب انطونى، الذى كان جالسا بجوار كليوباترا . . وعلى رأسه أكليل الورود
جرى الخمر فى المأدبة بغير حساب . . حتى ابتهج المحبان . . . وقد شاع السرور فى قلبيهما . . فبدأت تحدثه عن خططها . . وانهما اذا لم يتمكنا من هزيمة قيصر.فسيهربان بكنوزهما الى الخليج العربى حتى لا يستطيع اكتافيوس ان يتعقبهما بأساطيله . ثم يبحثا عن مأوى لهما فى الهند . . بعيدين عن متناول يد الأعداء . . ! !
ولكن شيئاً من هذا لم يحدث . . لأن العرب أغرقوا السفن . . بتحريض من يهود الاسكندرية الذين كانوا يمقتون كليوباترا . . وكان ذلك بتدبير منى . .
وبعد أن فرغا من بث أحلامهما . . دعته لتناول كأس من الخمر ، نخب نجاح مشروعهما . . وقبل أن يشرب طلبت منه أن يغمس فيه اكليل الورود ، حتى يمتزج عذوبة الزهر برحيق الخمر .. ففعل
وبينا هو على وشك ازدراد محتويات الكأس اذا بها تصرخ فيه فجأة لتمنعه من احتسائها . فوضع الكأس مشدوها متعجبا
ثم صاحت فى الرجل الواقف بجوارها :
— أوديسيوس . . اقترب هنا أيها الخادم الأمين . . هل ترى هذا الرجل أيها النبيل انطونى .. لقد كان لى معوانا فى أيام محنتى . فيجب اذن ان يكافأ حسب اخلاصه . . ومن يدك أنت . . اعطه الكأس الذهبية ودعه يشرب نخب نجاحنا .
فاعطاه انطونى الكأس وهو مازال مشدوها . وتناولها الرجل بيد مرتجفة . . ووجه شاحب . . ولكنه جرع مافيها
حينذاك نهضت كليوباترا عن مقعدها . ونظرت الى الرجل بعينين نارتين وصاحت :
— اشرب أيها العبد !. حسنا . لقد شربت أخيرا . ماذابك ياأوديسيوس

الطيب . . هل أنت مريض ؟ ! . لاريب ان تلك الخمر مثل ماء الغيرة عند اليهود . . التى تقتل الخائن . وتقوى الأمين ! ! . ليأت بعضكم ويفتش غرفة هذا الرجل . . انى موقنة انه خائن .

كان الرجل واقفا ويداه على رأسه . . وقد ابتدأ يرتجف . ثم هوى على الأرض وهو يئن من الألم .

أخذت يداه تتحسسان صدره .. كأنما ليخفف عنه تأثير النيران المتأججة ثم انقلبت سحنته . . وعلا الزبد شدقيه . ثم تطلع الى كليوباترا بابتسامة قاسية .

فقالت له :

— أيها الخائن . . هل الموت لذيذ ؟

— أيتها الفاجرة . لقد سممتنى .. ولكنك ستهلكين بنفس الكأس .

ثم صاح والقى بنفسه عليها .. ولكنها انحرفت عن طريقه بخفة النمر .. فلم يتمكن الا من إمساك معطفها فسقط على الأرض . وأخذ يتدحرج . . إلى أن سكنت حركته .

وبعد أن سحب الحراس جثته الى الخارج . . قال انطونى :

— ماذا تعنين بذلك يا كليوباترا . . إن الرجل قد شرب كأسى . . فما معنى تلك اللعبة ؟

— انها تخدم غرضين أيها النبيل انطونى .. لقد كان فى زعم الرجل ان يهرب الليلة إلى اكتافيوس . . حاملا معه كنوزنا .. فأعرته جناحين ليطير بهما وشيكا . . وأما الغرض الثانى . . فهو أنك كنت تخشانى . . وتخاف أن أدس لك السم .. اجل .. لقد كان هذا ما تعتقده .. وانى به عالمة . . فانظر الآن أيها النبيل انطونى . أما كان من السهل أن تشرب كأسك فتمسى فى عداد الأموات لو كان بي فى ذلك رغبة ؟ ! . إذن أى أنطونى . . يجب أن تثق بى من الآن فصاعداً . . وانه لأهون على نفسى أن أوردها موارد الهلكة .. من أن أمس شعرة من رأسك .. تعالوا أيها الرسل . ماذا وجدتم

— أيتها الملكة المبجلة ... لقد وجدنا كل شيء مجهزاً للفرار . ووجدنا

الـكنز مخبأ فى المتاع

فابتسمت الملـكة ابتسامة حزينة وقالت :

ـ هل سمعت ؟ ! وأنتم أيها الخدم الأمناء . . ليكن لـكم مما حدث عظة وعبرة . . ولتعلموا أن كليوباترا شديدة البطش والعقاب .

فساد على القوم وجوم حتى انطونى . . فانه لم ينبس ببنت شفة

الفصل السادس

سموم كليوباترا

مذ عاد أنطونى من قصر تيمونيم . ساد ذلك السـكون الذى يسبق هبوب العاصفة . . إذ عاد انطونى وكليوباترا سيرتهما الأولى فانغمسا فى الترف والملذات . . حتى فقدا قوتهما المعنوية . . وقد أرسلا الرسل الى قيصر ابتغاء الصلح . . ولـكنهم عادوا مخـذولين . وأخـيرا قر رأيهما على الدفاع عن الاسكندرية . . فجيشت الجيوش وبنيت السفن . . واجتمعت قوة كبيرة لصد قيصر

حينئذ . تـكاتفت مع شارميون لاتمام انتقامى . وقد أوحيت الى كليوباترا أن تبقى على انطونى مرحه وسروره . فاخذا يغترفان من الخمر . . حتى قضت على روحه ونشاطه . . وكنت اتبعها بجرعاتى التى تجعل روحه تسبح فى عالم الاحلام والسعادة والقوة . . ثم يستيقظ على ما يحيط به من ضر وبأساء . .

اصبحت جرعاتى لازمة لأنطونى . . فامسى لا يستطيع النوم بدونهـا . . وهكذا قيدت ارادته الضعيفة بارادتى . واستمررت ملازما له . ولـكليوباترا التى كانت لا تفتأ تسألنى النصح . . وكنت اتنبأ لها النبوءات الـكاذبة

وفضلا عن ذلك . فقد نسجت شبـا كا أخرى . . فان شهرتى طبقت آفاق مصر . . فاستدعانى النـاس لشفائهم من اسقامهم . . ولاسدائهم النصح فيما يختص بالحـــالة السياسية لعلمهم أنى مشير انطونى وكليوباترا . . فاخذت أفرغ فى آذان القوم كلمات الشك . ففقدوا نحو سيدتهم كل اخلاص وولاء .

وكانت كليوباترا كذلك قد ارسلتني إلى منف لاستمالة الكهنة والحكام في مصر العليا إلى جانبها للدفاع عن الاسكندرية .. فخاطبتهم محكمة . وباسرار عميقة .. وحدثتهم بكلمات تحتمل معنيين .. فعجبوا من أمري واستفسروا عني سراً .. فأريتهم علامة الأخوة .. ورجوتهم الا يسألوا اكثر من ذلك ونصحتهم بان يسعوا إلى مسالمة قيصر .. اذ بذلك تعود عبادة الآلهة المقدسة في ارض مصر .. فاستمدوا النصح كذلك من ابيس المقدس .. ثم اتفقوا على أن يعلنوا مساعدة كليوباترا جهراً .. ويرسلوا السفراء إلى قيصر سراً .!

أخذ الوقت يمر .. وكل يوم كانت كليوباترا تجد أن اصدقاءها قد تناقص عددهم عن ذي قبل . ولكنها ما زالت مستمسكة بانطوني .. لشغفها الشديد به .. ولو انه قد وصل إلى علمي أن اكتافيوس قد وعدها بملك مصر لها ولأولادها من بعدها .. على شريطة أن تقتل انطوني .. أو تخون سره .. ولكن قلبها — اذا كانت ذات قلب — لم يطاوعها .. وعلاوة على ذلك فان مشورتي كانت ضد نصيحة اكتافيوس . خيفة أن ترتمي كليوباترا في احضانه بعد موت انطوني فتتغلب على العاصفة .. وتبقى في مكانها

لشد ما امضني ذلك .. لأن انطوني — برغم ضعفه — ما زال شجاعا .. وعظيما .. وكنت أشعر في اعماق نفسي بما يعتمل في قلبه من شجن وبؤس ولا يدري بمدى حزن البائس الا بائس مثله .. ألم تسلبنا نفس المرأة . الملك والاصدقاء .. والشرف !؟.

ولكن الشفقة لا محل لها في السياسة . ولن تتحول قدماي عن طريق الانتقام المرسوم !

لقد اصبحت النهاية وشيكة .. اذ سقطت بلوزيوم في يد قيصر . فذهبت مع شارميون لابلاغ النبأ الى انطوني وكليوباترا . وكانا قد اضطجعا بغية الراحة . والهرب من حر الهجير . فصاحت بهم شارميون :

— افيقا . فليس هذا وقت النوم . لقد سلم سلوكيوس بلوزيوم الى قيصر . وهو الآن في طريقه الى الاسكندرية

فقفز انطوني واقفا . وهو يسب ويلعن . وأمسك بكليوباترا من ذراعها

وصاح :

— اقسم بحق الآلهة انك خنتنى . ولـكنك ستدفعين الثمن .

ثم استل سيفه واقترب منها . فصاحت :

— امسك يدكياانطونى . هـــذا كذب . . انى لا اعـلم شيئا

ثم قفزت نحوه . وتعلقت بعنقه باكية منتحبة .

ابتسمت شارميون . لانها هى التى كانت قـد اشارت على سلو كيوس سراً بالتسليم . زاعمة انه لن تقوم حرب بالاسكندرية

أما كليوباترا فقد جمعت كل كنوزها من الجواهر والزمرد . الذى تبقى لها مما أخذ من قبر منقرع وأخفته فى قبر الجرانيت المقام بجوار معبد ايزيس . ووضعته على فراش من كتان . حتى إذا حان الحين احرقته . حتى لا يقع بين يدى اكتافيوس الشره . المحب للمال

وعند ما اتى قيصر بخيـله و رجله الى الاسكندرية . ذهبت الى القصر حيث استدعتنى كليـوباترا . فوجـدتها فى حجرة المـرمر . مرتدية لباسها الملـكى بعينين متقدتين . وبجـوارها ايراس وشارميون . وامامها حراسها ممددون على الارض . بعضهم يتلوى من الألم . والبعض قد فارق الحياة . وصاحت قائلة :

ـ التحية لاوليمبوس . هوذا منظر محبب إلى قلب الطبيب . هؤلاء رجال بعضهم قد استقبل الموت . والبعض الآخر يعانى سكراته . !

— ماذا فعلت .. أيتها الملـكة ؟!

— انى اجرب العدالة فى هؤلاء المجرمين الخونة . حتى اعـلم طرائق الموت . لقد جربت ست انواع مختلفة من السموم فى هؤلاء العبيد . انظر . البعض يتلوى . والبعض جن . والبعض يستقبل الظلمة . والبعض يتحشرج . ويبكى طالبا الرحمة . !

ثم اقتربت منى وهتفت :

— أى أوليمبوس . . انه برغم كل نبوءاتك . . فان المنتهى وشيك . .

يجب ألا يتغلب علينا قيصر . . وإلا ضعت أنا وسيدى أنطونى . . لذا صحت عزيمتى على أنه مادامت اللعبة قد انتهت . . فلأغادر العالم كما يليق بملكة . . ولهذا السبب جربت هاته السموم فى عبيدى . . لأرى أيها الأصلح . . . ولكنى لم أر واحداً منها يروق لى . . لأن بعضها يسبب آلاما مبرحة . . . والبعض الآخر لايعجل بالمنية فيجب إذن أن تجهز لى جرعة موافقة . . تسلب روحى سريعاً . وبدون الم .

أحسست بشعور النصر يملا شغاف قلبى . . لأننى بيدى ساحطم هذه المرأة . . وأنفذ فيها عدالة الآلهة . . وأخيراً هتفت قائلا :

— صحيح ما فهت به يا كليوباترا . . فالموت يشفيك من أسقامك . . وستغوصين فى بحر من النوم لاتستيقظين منه على هذه الأرض . . لا تخشى الموت يا سيدتى . فالموت أملاك . . وستذهبين ولا ريب نقية طاهرة . . وتمثلين أمام مجلس الآلهة الرهيب بلا عيب ولا دنس

فارتجفت أوصالها وقالت

— ولكنى خبرنى . . أيها الرجل الغامض . . ماذا يحدث إذا لم يكن القلب نقيا . . ولكن لا . انى لا أخشى الآلهة . . لأنه إذا كانت آلهة الجحيم من الرجال . فسأكون بينهم ملكة أيضا ؟ !

وبينا هى تتكلم . . إذ تناهى إلى أسماعنا ضجة عظيمة وصياح الفرح آتية من بوابات القصر

فنهضت واقفة عن وسادتها وقالت :

— ما هذا ؟ !

فارتفعت الصيحات :

— انطونى . . انطونى . . لقد كان النصر حليفه

فاستدارت بسرعة . . وجرت . . وشعرها يتماوج فى الهواء . . وتبعتها عن كثب حتى بوابات القصر الخارجية . . حيث قابلت أنطونى . . وكان مشرق الوجه . . زاهياً فى حلته الرومانية . . وما أن رآها حتى قفز عن الجواد . . واحتواها بين ذراعيه . وضمها إلى صدره . فصاحت :

— ماذا حدث . . هل سقط قيصر ؟

— كلا ياعزيزتى . . لم تك السقطة حاسمة . . ولكننا حملنا على الفرسان . . ورددناهم على أعقابهم . . وكما كانت البداية . . فهكذا ستكون النهاية . . لقد تحديت قيصر . . وإذا قبل التحدى . . فسيرى العالم أينا الفارس المغوار . ؟

وفى وسط تلك الضجة . . صاح الناس قائلين :

— رسول من قيصر

دخل الرسول . وانحنى أمام انطونى ، وأعطاه كتاب قيصر . . ثم أدى التحية وانصرف

فض انطونى الخطاب . وقرأ مايلى بصوت مرتفع :

« من قيصر الى انطونى

تحية . . وبعد . فهاك جوابى على تحديك .. ألم يجد انطونى وسيلة للموت أفضل من حد حسام قيصر ! ! . الى الملتقى »

وهنا كف الناس عن الصياح . . والتحية .

* * *

عم الظلام . . وقبيل منتصف الليل أقام انطونى مأدبة لقواده . حضرها الكثيرون . وكنت بين الحاضرين .

ولما اكتمل الجمع . وقف انطونى حاسر الرأس . وقال :

« أيها الأصدقاء الذين مازلتم على ولائى . . وكثيرا ماقدتكم الى النصر .. اصغوا إلى .. سنخوض غمار الحرب وقد نلقى الفوز . أو تحيق بنا الهزيمة .. وما أريده منكم هو أن تخلصوا لى . . وتحافظوا على شرفكم . . أنتم يافخر الرجال .

سنكتوى بنار المعركة غدا .. وسيكون حظنا معلقا فى الميزان . ولكن كم من معركة خضناها كانت أشد هلا كا وأروع ! وقد خرجنا منها لنحصى خسائر الاعداء ! . هل هناك مانخشاه ؟ اذا تخلى عنا حلفاؤنا فما زالت

جيوشنا فى مثل قوة جيش قيصر .

نعم صيحوا واهتفوا . . فانى أحب تلك الموسيقى العسكرية

اذا أخطأنا الحظ أيها الشجعان . فسيموت انطونى كما يموت الجندى ويخلفكم لتبكوا على جدثه . . ويخلف لكم أيضا كنوزه التى تعرفون مخأها خذوها أيها الأصدقاء الأوفياء لذكرى انطونى . واقتسموها بينكم بالعدل والقسطاس . !

كلا . . لاتبكوا . . لانه لايليق بالرجال البكاء . . وكلنا الى الموت صائر . . ولكنى اذا لاقيت حتفى فانى أعهد اليكم بأولادى . . ارعوهم بعنايتكم الرفيقة وربما كفيتموهم شر العوز . .

كفى الآن . . أيها الجنود . غدا سنأخذ بخناق قيصر . فى البر والبحر اقسموا الآن على الاخلاص لى الى النهاية . »

فصاحوا جميعا فى صوت واحد :

— نقسم . . أيها النبيل انطونى . . نقسم .

— هذا حسن ان نجمى آخذ فى التألق . وغدا سيتلألأ فى كبد السماء وربما أطفأ نجم قيصر . . إلى الملتقى . .

ثم تحول ليخرج . . فتدافع الرجال عليه . . وأخذوا يديه يقبلونهما . . لقد أثرت فيهم كلماته اىما تأثير . . حتى راح بعضهم يبكى كالأطفال . . حتى انطونى . . لم يتمالك أشجانه . . فرأيت الدموع تجرى على وجنتيه وتسيل على صدره . . .

اشتد بى الحرج لما رأيت ذلك . . لأنى ايقنت انه اذا استمسك هؤلاء الرجال بالعروة الوثقى والتفوا حول انطونى . فستكون النهاية فوز كليوباترا ولو اننى لا أحمل ضغنا لانطونى . . الا انه يجب أن يسقط . . لانه بسقوطه يجذب معه تلك المرأة التى التفت حوله كالنبات السام

وقفت فى الظلال . . أرقب وجوه هؤلاء القواد حين يتكلمون .

قال قائد الاسطول :

ــ لقد اتفقنا . ولنقسم جميعا على الاخلاص لانطونى الى النهاية المرسومة له

فصاحوا جميعا :

— نعم . نعم

فهتفت من وراء الظلال :

— نعم . . نعم . . تمسكوا به . . وموتوا

فالتفتوا الى بوحشية . . وأمسكوا بى . وقال أحدهم :

— من هذا ؟ .

وصاح آخر :

— انه اوليمبوس . . الكلب ذو الوجه الداكن . . اوليمبوس الساحر

وصاح آخر :

— اوليمبوس الخائن . . سأضع حدا له ولسحره ! .

ثم استل سيفه .. فقلت بنبرات رزينة بطيئة :

— اصمتوا لحظة . . وحاذروا أن تمسوا خادم الآلهة بسوء . . انى لست خائنا . . ولكنى أقول لكم اهربوا . . اهربوا الى قيصر . . انى أخدم انطونى وكليوباترا . . وأخدمهما بصدق وإخلاص .. ولكنى فوق كل شيء أخدم الآلهة المقدسة . . وقد أنبأتنى الآلهة ان انطونيو وكليوباترا مقضى عليهما بالهلاك . . وان قيصر سينتصر . . اذن . . ولأنى أجلكم أيها السادة النبلاء . . افكر بخوف وخشية فى زوجاتكم . . وقد ترملن . . وأولادكم . . وقد تيتموا . . فاذا تمسكتم بانطونى فستصيرون عبيدا . . لهذا أقول لكم . . اهربوا الى قيصر .. وانقذوا أنفسكم . . انى أتكلم بما أمرتنى به الآلهة

فصاح أحدهم :

— الآلهة . . أية آلهة . . اذبحوا هذا الخائن . . وضعوا حدا لكلامه المنحوس !

وصاح آخر :

— فليرنا علامة من الآلهة .. أو ليمت .. انى لا أثق به

فصحت قائلا :

— ابتعدوا أيها الحمقى . . اتركوا ذراعى . . وسأريكم العلامه

ولا بد أن يكونوا قد رأوا فى وجهى ما يخيفهم . . لأنهم سرعان ماتركوا ذراعى وانتحوا ناحية . .

رفعت يدى إلى أعلى . . واستجمعت قوة روحى فى أعماق الفضاء حتى اتصلت روحى بروح امى إيزيس. ولكنى لم أجرؤ على القاء كلمة القوة . . وسرعان ماساد سكون رهيب . . وأخيرا سمع رنين الصولجان المقدس على مبعدة . . وكان قبل ضعيفا . . ولكنه ازداد قوة حتى شق اجواز الفضاء وملأ السكون رهبة !

ثم رأينا شبحا مقنعا سابحا فى السماء . . ثم تلاشى الرنين . . وابتلعت الظلمة الشبح الرهيب

فصاح أحدهم :

— انه باخوس . . الذى كتب على انطونى الضياع .

ولكنى كنت أعلم أنه لم يكن باخوس الاله الكاذب ولكنها ايزيس المقدسة التى هجرت مصر . . ذاهبة إلى أطراف المعمورة . .

أخفيت وجهى فى راحتى . . وتمتمت بالصلاة . وعندما رفعت رأسى . . وجدت أن الجمع قد مضى . . وخلفونى وحيداً

الفصل السابع

نهاية انطونى

وعند فجر الغد . . أتى أنطونى وأصدر أمره لأسطوله بالتقدم وملاقاة اسطول قيصر . وأمر الفرسان بالاشتباك مع خيالة قيصر . فتقدم الاسطول فى خط مثلث . ورفعت سفن انطونى مجاذيفها بالتحية . . ثم انضمت الى سفن قيصر . . وابحرت معها !.

وذهب فرسانه قدما لملاقاة جيش قيصر . وحين تقابلا أغمدا السيوف ومروا إلى معسكر قيصر . . وخلفوا أنطونى يكاد يجن من فرط الأسى .!

صرخ انطونى فى فيالقه ان اثبتوا . . وانتظروا الهجوم . . ولكنهم لم

يقفوا سوى هنيهة يسيره .. ثم امعنوا فى الهرب .

ولكن انطونى تمكن من القبض على أحدهم — وهو عين الرجل الذى حاول قتله فى الليلة الماضية — ثم طرحه أرضا . . وترجل عن جواده وشهر سيفه محاولا قتل الرجل . !

رفع انطونى سيفه فوق هامته .. بينا غطى الرجل وجهه بيديه .. منتظرا الموت .. ولكن انطونى أسقط الحسام .. وأمر الرجل بالنهوض . وقال :

— اذهب . . اذهب الى قيصر . واسع وراء النجاح .. لقد احببتك من قبل . . فلماذا أوردك موارد الهلكة . . أنت وحدك بين جموع الخونة ؟ ! .

فنهض الرجل ، وتطلع حوله فى يأس . . ثم طغى عليه العار . فمزق الدرع عن صدره . . وبادر نفسه بطعنة .. فغاص الحسام فى قلبه . وخر على الأرض صريعاً .. يتخبط .

حملق انطونى فى الرجل .. ولكنه لم ينطق بكلمة

وكانت جموع قيصر تتقدم فى تلك الأثناء .. بدون أن تجد أدنى مقاومة من جيش انطونى . . وأخيراً صرخ ايروس . . خادم انطونى الوفى . . وهو الوحيد الذى بقى بجانبه :

— اهرب أى سيدى انطونى .. قبل أن يأخذك قيصر أسيراً !

فاستدار انطونى وأركن إلى الفرار . . وهو يئن انين الموجع . . وقد رافقته فى طريقه .. فخاطبنى قائلا :

— اذهب أى اوليموس . اذهب إلى الملكة وقل لها : « انطونى يرسل تحياته إلى كليوباترا التى خانته »

فذهبت الى المقبرة التى اتخذتها كليوباترا مقاما مع كنوزها .. بينما هرع انطونى الى القصر . .

وعندما بلغت المقبرة طرقت بابها . . فاطلت شارميون من النافذة . . ثم فتحت الباب . . وسألتنى هامسة :

— ما وراءك يا هارما كيس؟

— ان النهاية تقترب وشيكا يا شارميون .. ان انطونى قد فر . .

وعندما مثلت بين يدى كليوباترا .. صاحت قائلة :

— تكلم ايها الرجل ؟.

— ان انطونى قد فر . وقد هربت قواته كذلك . وقيصر على الأبواب وانطونى العظيم يرسل تحياته الى كليوباترا .. التى خانته ونكثت عهده .

— هذا افتراء . انى لم أخنه . اذهب اليه يا أوليميوس على جناح السرعة واحمل اليه ردى :

« إلى انطونى .. كليوباترا التى لم تنكث لك عهداً . . ترسل اليك تحياتها الأخيرة وهى على حافة القبر .. »

وذهبت فوجدت انطونى فى حجرة المرمر .. وهو يذرعها جيئة وذهابا رافعا رأسه نحو السماء .. ولم يك معه غير خادمه ايروس .. فقلت :

— ايها السيد انطوني . ان كليوباترا تقرئك التحية . . وقد قتلت نفسها بيديها . .

فغمغم قائلا :

— ماتت . ماتت . ! . هل مات هيكل العظمة والجمال . وأصبح طعاما للدود ؟ ! اية امرأة كانت ؟ ! انى ما زلت أشعر بالحنين اليها . هل ستفوقنى المرأة قوة . فتنطلق الى حيث أخشى الذهاب ! ! . لقد كنت لى محبا يا ايروس منذ الصغر . هل تذكر كيف التقطتك من الصحراء جائعا . فأبدلت بؤسك نعيما وبفقرك ثراء . تعال الآن وسدد دينك . استل سيفك وانه به متاعب انطونى واشجانه

— كلا يا سيدى . لا أستطيع . كيف أجرؤ على الاجهاز على انطونى المقدس ؟ .

— لا تعترض يا ايروس . افعل ما أمرتك به . وإلا فاذهب واتركنى وحيداً ولا تدعنى أرى وجهك مرة أخرى . أيها الخادم الذى يعوزه الاخلاص

فلم يسع ايروس غير أن يشهر سيفه . . وركع انطونى أمامه . . عارى الصدر ، وعيناه تتطلعان الى السماء .

ولكن ايروس لم يلبث ان صاح قائلا :

— لا أجرؤ . هذا أكثر مما استطيع احتماله .

ثم أغمد السيف فى قلبه هو . . فخر على الارض صريعا .

وحينئذ نهض انطونى . . وحملق فيه ثم هتف :

— أى ايروس . . لقد تصرفت بنبل . . انك لأعظم منى . . وقد لقنتنى درساً

ثم انحنى . وقبله . ونهض واقفا . وجذب السيف من قلب ايروس وأغمده فى أحشائه . . فسقط علي الوسادة يتلوى . ويتألم .

ثم صاح :

— أى اوليميوس . ان هذا الألم لمما يفوق الاحتمال . ضع حداً لآلامى المبرحة يا اليميوس .

تحركت فى نفسى عوامل الشفقة . . فاقتربت واستللت السيف من احشائه . . وأوقفت النزيف . . ثم ناديت أحد هؤلاء الذين تجمعوا لرؤية انطونى وهو يموت . وطلبت منه أن يدعو اتوّا

وسرعان ما أتت العجوز . ومعها الجرعات والعقاقير . فأعطيت منها لانطونى . وطلبت من أتوا أن تسرع بأقصى ما تستطيع الى المقبرة . وتنبىء كليوباترا بجلية الخبر

فمضت . وعادت بعد هنيهة تقول ان الملكة لم تمت بعد . . وهى تدعو انطونى لكى يلفظ أنفاسه الأخيرة . بين ذراعيها

عادت الى انطونى بعض القوة . عند سماعه هذا الكلام وتحامل على نفسه ولكنه لم يستطع السير . فحمله بعض الرجال بمشقة الى حيث كانت حبيبته

ولكن كليوباترا التى كانت تخشى الخيانة . لم تفتح الباب لدخولنا ولكنها دلت حبلا من النافذة . وربطناه تحت ابطى انطونى . . ثم جرت كليوباترا الحبل . بمعاونة شارميون واراس . وهى تبكى احر بكاء . !

أخذ جسم انطونى يتأرجح فى الهواء . . وهو يئن أنينا موجعاً . . والدم يقطر من جرحه الكبير . وقد أوشك أن يسقط على الأرض مرتين . . ولكن الحب . . واليأس . . قد أوليا كليوباترا قوة . . حتى استطاعت فى

النهاية أن تدخله من النافذة . . بينا كانت الجموع المحتشدة — ماعداى وشارميون — تبكى بدمع هتون .

ولما أدخل انطونى . . تدلى الحبل مرة أخرى فتسلقت الى المقبرة بمعاونة شارميون . وهناك وجدت انطونى . . ملقى على وسادة كليوباترا الذهبيه وصدره عار . . ووجهه مبلل بالدموع . . بينا ركعت كليوباترا بجانبه وأخذت تقبله . . وتمسح جروحه بردائها . وشعرها .

ولأقرر الحقيقة — ولا أخفى شيئا من عارى — أقول ان عقارب الغيرة قد تحركت فى قلبى . . ناهشة لاذعة . .

تأوهت كليوباترا . . ثم غمغمت :

— أى انطونى . . ياحبيبى وزوجى وإلهى . . أى انطونى القاسى . هل يطاوعك قلبك على أن تموت وتخلفنى وحيدة أعانى ذل العار ؟ ! سألحق بك الى القبر وشيكا . . افق ياحبيبى . . افق .

رفع انطونى رأسه . وطلب قليلا من النبيذ فاعطيته جرعة مزجتها بشىء من عقاقيرى لتخفف من ألمه الشديد

ولما جرع مافى الكأس . . دعا كليوباترا الى الاضطجاع بجانبه واحاطة عنقه بذراعيها .

نسى أنطونى آلامه وأوصابه . . وأظهر رجولته . فأخذ يسدى الى كليوباترا خطة نجاتها وأمنها . . ولكنها لم تشأ أن تستمع اليه . وهتفت :

— ان الوقت قصير ، فلنتكلم عن حبنا . . ألا تذكر تلك الليلة التى طوقتنى فيها بذراعيك ودعوتنى « أيتها الحسنة » ؟ . ألا ماأسعدها من ليلة ! .

— نعم أذكرها جيداً أيتها الجميلة وقد عشت على ذكراها . . وهل تذكرين ليلة تجرعت الجوهرة فى النبيذ ! . وعندها صاح المنجم « لقد حلت لعنة منقرع » ! . لقد أمضتنى الكلمات . وما زالت تطن فى أذنى ! ! .

— لقدمات هذا الرجل منذ أمد طويل أيها الحبيب .

— اذا كان قد مات . . فانا قريب منه ! . ماذا كان يعنى بذلك ! !

— لقد مات هذا الرجل اللعين . . وانقضى . . هيا قبلني . فان وجهك قد شحب . ونهايتك تقترب وشيكا .

فتعانقا . . . وتلاقت شفاههما فى قبلة طويلة كعروسين حديثى عهد بالزواج . .

وهنا ارتسمت على وجهه سطور الموت . فهتف :

— الوداع . ياحبيبتى . الوداع . إنى أموت . .

ثم سقط رأسه إلى الخلف

فرفعت كليوباترا نفسها عن المقعد . وتطلعت اليه مشدوهة . ثم أرسلت صرخة داوية . وسقطت على الأرض . فاقدة الوعى !.

« * »

لم يكن انطونى قد مات بعد . ولكنه فقد القدرة على الكلام . فاقتربت منه وركعت . متظاهرا بمعالجته . وهمست فى أذنه :

— أى أنطونى . ان كليوباترا كانت لى كل شىء ! . قبل أن تتحول اليك . انا هارماكيس . المنجم . الذى كان واقفا خلف الوسادة فى طرسوس وقد كنت أكبر عامل على هلاكك .

« مت يا أنطونى . فقد حلت لعنة منقرع »

فرفع نفسه قليلا . وحملق فى وجهى . ولكنه لم يستطع أن يتفوه بكلمة ثم أسلم الروح

* * *

عملت على إعادة كليوباترا إلى وعيها . لأننى لم أرد أن تموت فى تلك اللحظة . ونقلت جثمان انطونى . بعد استئذان قيصر . . واخذت فى تحنيطه بمساعدة أتوا ثم حمل بامر كليوباترا فى موكب فخم إلى الضريح الذى أعدته لذلك . وقد كان رحيبا بحيث يسع تابوتا آخر إلى جانب تابوت أنطونى وذلك تحقيقا لرغبة كليوباترا . التى أرادت ألا تفارقه حتى بعد الموت .

وبعد وقت قصير جاءنى نبيل رومانى يدعى كورنيليوس دولابيلا . كان يخدم قيصر . وكان قد تأثر بجمال من أسرت بجمالها القلوب . ورثى لاشجانها

وانبأنى ان اكتافيوس قد اعتزم أن يأخذ معه كلوباترا وأولادها إلى روما . وطلب منى بوصفى طبيبها ولى حق الدخول عليها . ان ابلغها تحذيره

ذهبت . فوجدتها جالسة . شبه ذاهلة . وأمامها الرداء الذى مسحت به جروح أنطونى . وهي لا تتحول عنه بعينها

واذ دخلت عليها . رفعت عينها وأشارت الى البقع الباهتة . وهتفت :

— انظر كيف بهت لونها يا اوليمبوس . . مع أنه لم يمت إلا من وقت قريب ! . والآن ما وراءك ؟ . انى اقرأ فى عينيك أنباء سيئة !.

— انها لكذلك فى الواقع . أيتها الملكة . . فقد تناهي إلى علمى أن قيصر سيبعث بك فى اليوم الثالث أنت وأولادك إلى روما . . لكى تسيرى فى ركابه فى موكب النصر إلى الكابيتول . !

فوثبت واقفة وصاحت :

— لن يكون هذا أبدا .. هل أسير مكبلة بالأغلال فى موكب النصر ؟ ماذا أفعل ؟ خبرينى ياشارميون . . ماذا أستطيع أن أفعل .؟

فاجابت شارميون بهدوء :

— فى استطاعتك الموت ياسيدتى .

— نعم . . لقد نطقت بالصواب . . انني نسيت . . هل لديك جرعة لى ياأوليمبوس ؟

— كلا . . ولكن اذا كانت الملكة تريد . جهزتها لها فى صباح الغد . جرعة قوية . . سريعة التأثير

— جهزها لى فى صباح الغد اذن . . ياسيد الموت .

فاحنيت رأسى . . وانسحبت . . ومكثت طوال تلك الليلة مع أتوّا نعمل فى اعداد الجرعة المميتة . . وكانت بيضاء . . كأكثر الماء نقاوة !

وهتفت أتوّا بصوتها المرتعش :

— جرعه لأجل ملكة . . عندما تستقر خمسون نقطة من هذا العقار فى جوفها تكون قد انتقمت لنفسك من كليوباترا ياهارما كيس . . اشد ما يتهيج قلبى عندما أرى محطمتك . . قد تحطمت

فاجبتها . . وقد تذكرت قول شارميون :

— ان الانتقام سهم طالما أصاب راميه .

الفصل الثامن

موت كليوباترا

وفى اليوم التالى . . أذن قيصر لكليوباترا بزيارة قبر انطونى .. فذهبت وقبلت التابوت . . ووضعت عليه زهر اللوتس . . ثم قفلت راجعة . . واغتسلت . . وتعطرت ولبست أفخر ما عندها من ثياب . . وتناولنا العشاء معها . . أنا وشارميون وايراس

وبينا نتناول العشاء . . انتعشت روحها . . وراحت تضحك وتطرب كأن لم يحدث شىء .. وتروى لنا القصص عن المآدب التى كانت تشترك فيها مع انطونى

لم أرها فى حياتى بمثل ذلك الجمال . . الذى رأيته فى تلك الليلة المشؤومة ليلة الانتقام . !

ولقد جرها الحديث عن المآدب الى تلك المأدبة التى أقيمت فى طرسوس والتى شربت فيها اللؤلؤة . . ثم قالت :

— إنه لمن العجب حقا أن يفكر أنطونى فى آخر لحظاته فى تلك الليلة .. وفى قول هارماكيس ! . . أتذكرين هارماكيس المصرى يا شارميون ؟ ؟

فأجابت شارميون ببطء :

— بالتأكيد أذكره يا سيدتى الملكة

فأردت أن أعرف ما إذا كانت تتألم لذكراى . . فسألتها :

— ومن يكون هارماكيس هذا ؟

— سأحدثك بأمره . . انها لقصة عجيبة . . والآن قد انتهى كل شىء فلا بأس من سردها عليكم

ثم بدأت فى القاء قصتى من أولها . . ولم تترك فيها شاردة أو واردة . . فذكرت أصلى .. ونسبى . . والمؤامرة التى كان يراد منها تنصيبى ملكا . .

وكيف وقعت فى شرك غرامها . . وكيف بحت لها بسر الكنز الدفين فى قلب الاهرام . . وتلك الليلة الليلاء التى قضيناها فى قبر منقرع . . واللآلىء التى استحوذت عليها . . ثم رغبتها فى الزواج . . وكيف عارضت شارميون الفكرة بتأثير غيرتها القاسية . . وكيف دفعت بها فى أحضان أنطونى .

وهنا توقفت عن الكلام لحظة . . رأيت فيها شارميون . وقد غطت وجهها بيديها . . وجرت الدموع على وجنتيها . . وسألت كليوباترا :

— وأين هارما كيس الآن أيتها الملكة ؟

— لابد أن يكون فى أمنتى . . ينشد السلام مع ازيس .

ثم استطردت فى سرد قصصها . . حتى أتت على ليلة العشاء فى طرسوس . . وكيف وقعت فى غرام أنطونى .. وكيف أرادت قتلى فى تلك الليلة .. لولا فرارى . . ثم ذكرت قصة الضابط برينوس . . وعدم تصديقها إياها . . وانها ترجح اننى قضيت عند صخور شاطىء قبرص . . ولا تعلم كيف قضيت . ثم قالت :

— قد تستطيع شارميون أن تحدثنا كيف قضى

— لا أستطيع أن أحدثك بشىء أيتها الملكة .. لقد قضى هارما كيس وانتهى

— انه أحسن بموته . . بحسبى انه كان رجلا شريرا . . ومن الخطر الاشتراك معه فى عمل . . لقد خدم أغراضى . . ولكنى لم أحبه . . انما كنت أخافه . . وحتى الآن فاننى أخشاه . . لقد خيل الى اننى سمعت صوته يدعونى الى الهرب من موقعة اكتيوم .. شكراً للآلهة على أنه مات وعلى أنى لن أراه بعد الآن . ! !

ولكنى استجمعت قواى . . وبأساليبى السحرية التى أحذقها أرسلت ظلا من روحى على روح كليوباترا . . وجعلتها تشعر بوجود هارما كيس فقالت :

— ماهذا ؟ . وحق سرابيس انى خائفة . اننى أشعر بوجود هارما كيس هنا . . ان ذكراه تطغى على .

فاجبتها :

— نعم أيتها الملكة . . اذا كان قد مات فان روحه لم تمت وهى تتبعك أينما حللت . لاسيما فى مثل هذا الوقت وقد قربت نهايتك . ولا بد انها تحوم حولك لترحب بروحك عند ذهابها . .

— لاتتكلم هكذا ياأوليمبوس . فانى راغبة عن رؤية هارماكيس . . فان الحساب بيننا عسير .

لقد ساعدت قصة هذا الاحمق على تمضية الوقت . والآن .. غنى لى ياشارميون بعض أغانيك العذبة .

فاجابت شارميون :

— ليس الوقت وقت غناء ياسيدتى .

على أنها مع هذا تناولت قيثارتها . . وأنشدت أغنية عذبة حزينة . أثارت الشجون وجعلت دموع ايراس تنثال على خدها . ودموع كليوباترا تترقرق . فى عينيها المتقدتين . ولكنى لم أبك . . فان دموعى قد جفت . . ونضب معينها . .

وقالت كليوباترا :

— انها لأغنية ثقيلة ياشارميون . . ولكن الظرف كما قلت ليس مناسبا للغناء . . رددها مرة أخرى بعد مماتى ياشارميون . . والآن بعداً للموسيقى الى الأبد . . خذ هذه الورقة ياأوليمبوس واكتب ماسوف أقول :

« من كليوباترا الى اكتافيوس

« تحية . . وبعد . فتلك هى حال الحياة . . لقد حلت أخيرا الساعة التى لانستطيع فيها تحمل الأعباء . . والأجدر ارسال الروح الى عالم النسيان . . لقد انتصرت ياقيصر . . فانعم بالاشلاء . . ولكن لاتظن ان كليوباترا تسير فى ركابك فى موكب النصر . . ولكنها ذاهبة للحاق بمن سبقوها الى غير رجعة . . لقد كانت كليوباترا عظيمة فى حياتها . . وستكون كذلك الى النهاية ! . .

ان العبيد هم الذين يعيشون ليتحملوا نتيجة أخطائهم . ولكن الأمراء

يجتازون الأبواب . . ويذهبون الى مسا كن الموت الملكية . . وما ترجوه كليوباترا من قيصر . . هو أن يسمح بدفن جثتها بجوار جثة انطونى . . . الى الملتقى » .

وبعد أن فرغت من رسالتها . ختمتها . . وطلبت الى ان ابحث عن رسول ليحملها الى قيصر فارسلتها مع أحد الجنود الذين كانوا يتولون الحراسة عند المقبرة .

ولما عدت وجدت بالغرفة ثلاث نساء . . واقفات فى سكون . . كليوباترا وقد تعلقت بذراع إيراس . . وشارميون واقفة عن كثب ترقبهما فقلت :

— إذا كنت حقا تريدين وضع حد لحياتك أيتها الملكة فقد حان الحين لان قيصر لن يبطىء فى ارسال رده على رسالتك

ثم أخرجت القارورة التى تحتوى الجرعة المجهزة . . ووضعتها على المنضدة فامسكت بها . . وتطلعت اليها . . وهتفت :

— انها تبدو كالماء القراح . . لا شائبة فيها . . ومع ذلك ففيها هلا كى الا ما أعجب هذا ؟ !.

— أيتها الملكة ، ان هذه الجرعة تكفى لقتل عشرة أشخاص . . فلا حاجة بك الى تناولها كلها

فغمغمت :

— اننى خائفة . ! هل أنت واثق بانها ستقضى على فى التو واللحظة ؟ لقد رأيت كثيرين يموتون بالسم . . ولكنى لم أر أحدا يموت بغير ألم

— لا تخافى ياسيدتى . . لقد أفرغت فيها كل ما أعلم من أنواع السموم القتالة . . وان كنت خائفة فما عليك إلا أن تلقى بها . . لتعيشى . وهناك . . فى روما . . قد تجدين السعادة . . حيث تسيرين فى موكب قيصر . . وحيث تختلط ضحكات النساء برنين السلاسل الذهبية . !

— كلا . . سأموت ياأوليمبوس . . ألا يوجد من يدلنى على الطريق ؟ فتقدمت ايراس وقالت :

— اعطنى جرعة أيها الطبيب . . سأمهد الطريق لمليكتى .

— حسنا . . وعلى رأسك تقع التبعة

ثم صبيت شيئا من المزيج فى كأس ذهبية

فانبعثت ايراس واقفة . . ثم انحنت أمام كليوباترا . . وتقدمت الى الأمام وقبلتها فى جبينها ثم قبلت شارميون كذلك . . وتناولت الكأس وتجرعت ما فيها دفعة واحدة . . ثم سقطت فى الحال . ميتة !

وساد سكون عميق . . سرعان ما قطعت حبله قائلا :

— هاقد رأيت أيتها الملكة مدى مفعوله وسرعته

— نعم ياأوليمبوس . . انه لسيد العقاقير . . هيا . . انى عطشى . . املأ الكأس .. اذ لا يليق أن تنتظرنى ايراس طويلا .!

سكبت من جديد كمية منه فى الكأس . . ولكنى مزجته فى هذة المرة بقليل من الماء حتى يتأخر تأثيره . . ولكى تعرفنى قبل أن تموت .

تناولت كليوباترا الكأس .. ورفعت عينيها الجميلتين الى السماء . وصاحت بصوت مرتفع :

— يا آلهة مصر . يامن هجرتمونى وتخليتم عنى .. لن أردد لكم صلاة . فقد صمت آذانكم عن سماع صوتى . وعميت عيونكم عن رؤية أحزانى وأشجانى .. ولذا فانى أتوسل إلى الصديق الباقى لى . وهو الموت . اقترب منى أيها الموت . . يامالك الملوك . يامن تسوى بين الأمير . . والعبد . خذنى حيث لا أسمع زفيف الريح . . ولا هدير الأمواج . وحيث لا حروب ولا جيوش قيصر !. خذنى إلى مملكة جديدة . . وتوجنى ملكة للسلام . انك سيدى أيها الموت .. اذهبى أيتها الحياة .. تعال ياأنطونى !

ثم نظرت إلى السماء .. وشربت الكأس . . ثم القت بها على الأرض

***

لقد حلت أخيراً ساعة انتقامى . . وانتقام آلهة مصر الغضبى . . وحلول لعنة منقرع !.

وصرخت كليوباترا قائلة :

ـــ ما هــذا . إننى أشعر ببرودة أوصالى . ولــكنى لا أموت ! . أيها الطبيب الشرير . لقد خدعتنى

ـــ مهلا ياكليوباترا فستموتين فى التو واللحظة . . وتواجهين غضب الآلهة . . لقــد حلت لعنة منقرع . . انظرى الى أيتها المرأة . انظرى إلى الوجه المجعد . . والى الاحزان التى تدب على قدمين . انظرى . . انظرى . . من أنا ؟

فتطلعت إلى بوحشية . وطوحت ذراعيها . وقالت :

ـــ لقد عرفتك أخــيرا . . وحق الآلهة أنك هارماكيس . هارماكيس قام من بين الأموات ! .

ـــ نعم هارماكيس الذى قام من قبره . ليجتذبك إلى الموت . والحزن الدائم . انظرى أى كليوباترا . لقــد حطمتك . كما حطمتنى . . انى كنت مصدر فزعك الدائم . فملائت قلبك بالخوف فى النوم . . وكففت يد المصريين عن مساعدتك . وبيدى أخيراً تموتين . انى آلة للانتقام منك .

تعــالى يا شارميون . يامن شاركتنى فى مؤامراتى . ثم خنتنى . وندمت . انك شريكتى فى النصر . تعالى وانظرى الى تلك الباغية حيث تموت !.

فتأوهت كليوباترا من قلب يتمزق أسى . وارتمت على الوسادة الذهبية . وقالت :

ـــ حتى أنت أيضا ياشارميون !.

ثم جــست لحظة . وقد أتقــدت روحها . وبدت فى جلالها وعظمتها . . قبل أن تموت .

ثم ترنحت على الفراش . . ومدت ذراعيهــا . . وصبت علىّ لعناتهــا . . وصاحت :

ـــ آه . . من لى بساعة واحــدة . . وأنا أدبر لك ولشريكتك التى لم ترع الجميل . . أو تحفظ الود . . ميتة لاتدور بخلدكما

ثم مزقت الثوب عن صدرها . . وقالت :

ـــ انظر الى ذلك الصدر الفاتن . . الذى كنت تتوسده فى الليالى الماضية

والى هاتين الذراعين اللتين كانتـا تلتفان حولك . . اطرد عن نفسك ذكراهما . . إن كنت تستطيع . . انني أقرأ فى عينيك أنك لن تقدر . . انني مهما احتملت من تعذيب فلن يعدل الخنق الذى يعتمل فى قلبك . .

أى هارما كيس . . أيها العبد الحقير . . انني فى هزيمتى . . منتصرة . . انني أبصق عليك . . وأتحـداك . . انني أموت . . ولـكن حبى الذى ملك شغاف قلبك لن يموت . ؟ !

أى أنطونى . . تعال الىّ . . تعالى الى ذراعى العزيزتين . . . سنلتقى وشيكا ياعزيزى . . وسنسبح معـاً فى اللانهاية . . تعال يا أنطونى . . وامنحنى السلام .

خارت قواى تحت تأثير احتقارها . . . وأسفاه . . . لقـد سقط سيف الانتقام على رأسى أيضا . . انني لم أحبها كما أحببتها فى تلك اللحظة . . لقـد تعذب قلبي بالغيرة اللاذعة . . ولـكنى وددت لو أنها لاتموت . . ! ! ثم صحت :

ـــ تقولين السلام . . أى سلام تبغين . . أى أوزوريس المقدس . . . فك قيود الجحيم عمن سأدعوهم من عالم الموت . . تعال يابطليموس يامن سممتك أختك كليوباترا . . تعال يا ارسنوى يامن قتلتك اختـك كليوباترا داخل الهيكل . . تعال يا سيبـا . . يامن لاقيت من ضروب التعذيب والايلام على يدى كليوباترا . . ما أوردك موارد الهلـكة . . تعال يامنقرع المقدس . . تعالوا جميعا وحيوا القاتلة

وبينما كنت أتكلم . . كانت شارميون متعلقة بثيابى وهى جد خائفة . بينما أخذت كليوباترا تترنح . . وهى تنظر الى بعينين غائرتين منطفئتين

وأخيراً جاء الجواب على صوت ندائى . . إذ سرعان ما فتح باب القـاعة ونفذ منه الخفاش الابيض الذي رأيناه ممسكا بذقن الخصى فى جوف الهرم . . فدار فى الغرفة ثلاثا . . ثم حام حول جثة ايراس الميتة . . وطار حيث المرأة التى تموت . . وجثم على صدرها . . وأمسك بالزمردة التى كانت قد اجتذبتها من قلب منقرع . . ثم صرخ ثلاثا . . ورفرف بأجنحتـه . . ثم حلق فى

الغرفة . . واندفع الى الخارج

ثم ما لبث أن احتل الغرفة اشباح الموتى الذين دعوتهم . . فهتفت :

ـ انظرى اى كليوباترا .. هذا هو السلام الذين تنشدين . . والآن موتي . .

فصاحت شارميون :

— نعم . . انظرى .. ثم موتي . . يامن استلبت منى الشرف ومن مصر ملكها . .

تطلعت كليوباترا الى الاشباح برهة . . ثم تقلص وجهها بتأثير الفزع واصفرت عيناها . . وتحشرج صوتها ، ثم سقطت جثة هامدة

***

هاقد اكملت انتقامي . . منفذا رغبة الآلهة . . ولكنى كنت منقبض الصدر محزون الفؤاد . . بسبب ذلك الحب الضائع . . الذي سكبت دم قلبي على مذبحه .

الفصل التاسع

موت شارميون

أرخت شارميون قبضة يدها عن ذراعى . . التى كانت متعلقة بها بتأثير الرعب ثم هتفت بصوت أجش :

ـ ان انتقامك — أى هارما كيس الغامض — شنيع مؤلم . . أى كليوباترا الضائعة . . لقد كنت ملكة حقا . . برغم كل شرورك وآثامك تعال أيها الأمير . . وعاونى على نقل هـذا الجثمان الملكى . . لكى يعطى جوابا صامتا الى رسل قيصر . . بما يناسب عظمـة آخر ملكة تربعت على عرش مصر .

لم أحر جوابا . . لأن قلبى كان مثقلا بالهم .. والضجر ، ولكنى مددت يدى فى سكون وعاونت شارميون على نقل الجثة الى الفراش الذهبى ، ووضعت شارميون التاج ذا الثعبان الذهبى . . على الجبين العاجى ، ومشطت شعرها الاسود الفاحم . . الذى لم يكن قد ظهر فيه بعد أى خيط من خيوط

الفضة . . وأغمضت العينين الجميلتين ، ولآخر مرة تغلق تلكما العينان . . ولا يشع منهما الجلال ، والحياة الحارة الدافقة ، ثم وضعت يديها على صدرها وقومت الركبتين المثنيتين تحت ثوبها الموشى . . ولم تك كليوباترا فى يوم من أيام حياتها . وجمالها ، لتتمتع بمثل ذلك الجلال والهيبة ، وقد حف بها جلال الموت وهيبته

انسحبت من الغرفة .. بعد أن القينا نظرة أخيرة عليها . وعلى ايراس الراقدة تحت قدميها .

قالت شارميون :

— لقد انتهى كل شىء يا هارماكيس . وقد اكملنا انتقامنا . والآن هل فى نيتك أن تتبعهم فى الطريق التى سلكوها ؟

قالت ذلك وأشارت الى القارورة الموضوعة على المنضدة .. فاجبتها :

— كلا . اننى سأهرب . سأهرب الى نهاية اثقل وأشد وطاة .

— فليكن يا هارماكيس . وسأهرب أنا أيضا . سأطير . ولكن بأجنحة أسرع من أجنحتك . لقد انتهى دورى . أى حظ أشق وأسوأ من حظى ! .

لقد جلبت التعاسة على كل من أحببتهم . وهأنذا أموت أخيراً . غير محبوبة ! .

لقد كفرت عن ذنبى لك . وذنوبى للآلهة الغضبى . وهأنذا أذهب فى الطريق التى استطيع أن اكفر فيها عن ذنبى لكليوباترا . فى الجحيم حيث هى . وحيث يجب أن أقاسمها المأوى ! . لذا سأشرب من نفس الكأس التى شربت منها هى وايراس

ثم أمسكت بالقارورة . وسكبت ما فيها من سم فى الكأس الذهبية . بيد ثابتة . لاترتعد . فاجبتها

— من رأيى ياشارميون . انك تستطيعين العيش عدة سنوات أخر . تنسين فيها آلامك

— نعم أستطيع . ولكنى لن أفعل . أأقضى أيامى هكذا . فريسة لمثل هذه الذكريات الممضة ؟ . أأستمر مصدراً للعار الحى . المتجدد . ليلة بعد ليلة اقضيها مسهدة ، يكتنفنى الأسى من كل جانب ؟ ! . أأعيش ممزقة القلب من

الحب الذى لا أستطيع نسيانه ؟ ! . أأحيا وحيــدة ، منبوذة كالشجرة التي كسرت أغصانها العاصفة !. كلا . لن أفعل هذا يا هارماكيس ، انني مت في الواقع منذ زمن طويل ، وما عشت إلا لخدمتك ، والآن وقد انتهت حاجتك الى ، فسأذهب ، الوداع يا هارما كيس ، لن تكتحل عيناى بمرأى وجهك مرة أخرى ، لأنك لن تذهب حيث أذهب ، إذ أنك لا تحبنى ، ولكنك تحب تلك المرأة الملكية ، التي قيدتك برباط غرامها حتى إبان موتها ! . انك لن تكتسبها ، كما اني لن اكتسبك !. فما أقسى تصاريف القدر .!

اسمع يا هارما كيس ، انني أسألك منة واحدة . انا التي سأبقى ذكرى عار لك ، قل لى انك قد عفوت عنى ، واثبت لي تسامحك بقبلة ، لاقبلة عاشق ولكن قبلنى فى جبيني ، ثم دعنى أذهب بسلام .!

ثم اقتربت مني . . ويداها ممدودتان . . وشفتاها ترتعشان . . وحملقت في وجهي . . فقلت :

— إني أعفو يا شارميون . : كما أتمنى أن يعفى عني كذلك . . وبهذه القبلة الأولى والأخيرة . . أؤكد بيننا السلام

لم تجب بكلمة . . ولكنها وقفت هنيهة . . تحملق في بعينين حزينتين . ثم رفعت الكأس وهتفت :

— ايها الأمير الملكي هارما كيس .. انني بهذه الكأس المميتة أشرب نخبك . . لشد ماوددت لو أني شربتها قبل أن أعرفك ! ! أي فرعون . . يامن ستحكم فى عوالم أخرى من السلام .. وتقبض بيدك علي صولجان أعظم من ذاك الذى سلبته منك . . وداعاً . . والى الأبد .

ثم جرعت محتويات الكأس . وألقت بها على الأرض . . ووقفت لحظة تنظر بعينين واسعتين إلى الموت القريب . . ثم خرت على الأرض . . صريعة

وقفت لحظة وحيداً بين جموع الموتى . . واقتربت من كليوباترا . . وانتهزت الفرصة حيث لايرانا أحد . . وجلست على الفراش . . ووضعت رأس كليوباترا على ركبتى . . كما فعلت ليلة اخراج الكنز . . تحت ظلال الهرم . ثم قبلتها في جبينها البارد . وخرجت من منزل الموت .

لقد انتقمت . ولكن قلبي كان كسيراً من اليأس .

« * »

وعند ما اجتزت البوابة الخارجية . . وذهبت أضرب فى أحشاء الظلام سمعت وقع أقدام رسل قيصر . . ذاهبين بالجواب .

انطلقت مسرعا الى منزلى حيث وجدت أتوّا العجوز بانتظارى عند البوابة فاقتادتنى إلى غرفة هادئة . . ثم سألت :

— هل انتهى كل شىء ؟ ! نعم . . ولم أسأل ؟ . وانا على علم بكل شىء

— نعم لقد سارت الأمور فى مجراها الممهد . . فمات الجميع .. كليوباترا وايراس . وشارميون . ولم يبق سواى ! .

فرفعت المرأة العجوز قامتها . . ثم هتفت :

— دعنى أنا أيضا أذهب بسلام . . لقد تمت رغبتى على أعدائك . . وأعداء مصر . . لم تكن حياتى الطويلة عبثا ! لقد جمعت قطرات الموت وأسقيت منها أعداءك .. فسقطت «المتعجرفة» .. وذهبت « عار مصر » الى التراب . .

— اصمتى أيتها المرأة . . اصمتى . . لقد كتب على شفاههم السكون الأبدى ! ولا يجدر بنا أن نتبع الموتى باللعنات . . هيا بنا الى ابوثيس . حيث يتم كل شىء . .

— اذهب انت يا هارما كيس . وأما أنا فلن أذهب . لقد عشت حتى اتممت غايتى . . والآن انى أحل عقده الحياة . واترك الروح طليقة ! ! .

الوداع يا هارما كيس . لقد أحببتك طفلا . ويافعا . وما زالت نفسى تنطوى على حبك . ولكنى لن أعيش بعد الآن فى هذا العالم لأقاسمك الهموم أى اوزوريس . خذى روحى .

وارتجفت ركبتاها وسقطت على الأرض جسداً هامداً

لقد مضت . وذهب الجميع . وخلفونى وحيداً على الأرض . بلا صديق يأسو جراح قلبى . .

* * *

ورحلت عن الاسكندرية . وفى اليوم الثامن وصلت الى مذبح ابوثيس المقدس وكان اليوم يوم عيد ايزيس . وقد اجتمع جميع كبار الكهنة ليحيوا

رجوع الآلهة الى مكانها المقدس

وصلت الى المدينة فى اليوم السابع من أيام العيد. وألقيت بنفسى وسط الجموع الزاخرة. واشتركت مع القوم فى ترتيل الأغنية المقدسة التى تلقى فى مثل تلك المناسبات

وما أن كفت الموسيقى عن العزف.. حتى أتى كاهن رع الاكبر ورفع تمثال الاله الحى بين يديه أمام الجمع الحاشد. فردد القوم صياح الفرح:

« اوزوريس. يا مبعث الآمال!. اوزوريس. اوزوريس »

ثم مزقوا الثياب السوداء من فوق ارديتهم. واظهروا الاردية البيضاء علامة الفرح. ثم انطلقوا جميعا فى طريقهم.. بينا مكثت فى مكانى وحدى فى فناء المعبد

اقترب منى الكاهن. وسألنى عن حاجتى.. فأجبته بأنى آت من الاسكندرية لأمثل أمام مجمع الكهنة.. لأنى علمت انهم سيجتمعون لتلقى أنباء الاسكندرية

أمر الكهنة فمثلت فى حضرتهم. فى قاعة الأعمدة. حيث الظلام ما زال مخيما.. فذكرت تلك الليلة التى توّجت فيها. فى نفس القاعة.. فرعونا على مصر العليا والسفلى.. لقد كان كل شىء حيث تركته. وكان بين المجتمعين خمسة ممن اشتركوا فى المؤامرة الكبرى. وهم الذين أبقت كليوباترا على حياتهم.. ولم تمتد اليهم بعد. يد الزمن.

وقفت فى نفس البقعة التى كنت قد توّجت فيها.. والعار يكسونى.. والخجل يملأ نفسى!!

وقال احدهم:

— ماذا؟!. هذا هو الطبيب اوليمبوس الذي عاش فى مقابر طيبة.. والذى لازم كليوباترا فى المدة الأخيرة!!. هل حقا ايها الطبيب أن الملكة قتلت نفسها؟!.

— نعم ايها المقدسون.. لقد ماتت كليوباترا. ولكن بيدى!

— بيدك! كيف حدث ذلك؟. مهما يكن. فقد ماتت البغى الشريرة!

— عفواً أيها السادة.. سأحدثكم عن كل شىء.. لأنى ماجئت هنا الا

لهـذا . قد يدكر بعضكم . أنهم منذ أحـد عشر عاما اجتمعوا سراً لتنصيب هارما كيس فرعون على مصر

— هذا صحيح .. ولـكن هل تعرف هذه الأشياء أنت يا أوليمبوس ؟ !

فلم أجب على سؤالهم . ولـكنى استطردت :

— من بين السبعة والثلاثين سيداً الذين اجتمعوا فى حفلة التتويج . . قضى اثنان وثلاثون . البعض مات كامينمحعت . والبعض ذبح مثل سيبا . . والباقى يعملون كعبيد فى المناجم .. أو يعيشون فى بقعة قصية خشيه الانتقام !

— انه لـكذلك ويا للاسف . . لقـد أفشى هارما كيس اللعـين سر المؤامرة وباع نفسه إلى كليوباترا . البغى .

— نعم ايها السادة .. لقد باع هارما كيس الخائن نفسه لـكليوباترا . وأفشى الخطة كلها .! ايها السادة المقدسون . انا هارما كيس !.

فحملق فىّ الـكهنـة مشدوهـين . . ووقف بعضهم . وهم يرمقوننى غير مصدقين . ويتمتمون بكلمات مبهمة .. بينا جلس البعض الآخر سا كنا ثم استطردت قائلا :

— انا هو هارما كيس . أنا ذلك الخـائن . . الذى انغمس فى حمـأة الجريمه . لقـد خنت الآلهة . وخنت الوطن . وحنثت بايمانى ، لقـد نفذت انتقام الآلهة فيمن حطمتنى . وسلمت مصر للرومان . .

وهأنذا قد اتيت . . متسربلا برداء العـار . . لأعلن انى ذلك الخـائن الجبان !!.

فاجاب أحد الـكهنة :

— أو تدرى مصير من ينكث العهد . وينقض الايمان ؟

— انى به عليم . وأنا أطلب ذلك الجزاء الرهيب ! !

— حدثنا بالمزيد من قصتك . يا من كنت هارما كيس

فسردت عليهم قصتى بحذافيرها .. بصوت هادىء بارد . ولم أترك صغيرة ولا كبيرة . وأظهرت لهم عارى سافراً ، بغيضا . وكلما استطردت فى قصتى . عبست وجوههم وبدت فيها آى الشدة . فأيقنت ان لا رحمة ترجى . و ألك ابغى الرحمة . ولم ألك لاطلبها . لو كان من الميسور أن أمنحها .!

تشاوروا فى الأمر فيما بينهم . ثم قام أكبرهم سنا . وهو الشيخ الوقور

كاهن معبد حتشبسوت المقدس وقال :

— أى هارماكيس . لقد أثمت وارتكبت خطايا متشعبة . فعلى رأسك يقع وزر ضياع مصر ، ووقوعها فى أيدى الرومان .. لقد أهنت ايزيس اهانة مابعدها إهانة . وحنثت باقسامك . ولا يوجد لكل هذه الخطايا غير جزاء واحد معروف . . ولن يخفف من شدة حكمنا انك قتلتها وانتقمت منها . . أو اعترافك بانك أحط من وقتح بين هذه الجدران أو اكثرهم ضعة وعارا فلتنزل على رأسك لعنة منقمرع . . أيها الكاهن المزيف . والوطنى الكاذب ، أى فرعون . الذى أضاع عقله . . وارتدى رداء العار .

اذهب وانتظر النهاية المريرة لأمثالك ! . اذهب ولتمضك الذكريات ، تذكر ما كنت يجب أن تكونه . وما أنت عليه الآن ! !

اذهب واطلب الرحمة من الآلهة التى كنت سببا فى ابطال عبادتها .

اذهب فقد تمنحك الآلهة الرحمة التى نأباها نحن عليك .

وأخذونى الى الخارج مطرق الرأس . ولم أجرؤ على التطلع اليهم . لقد كان هذا العار الجديد آلم من سابقيه . وأشد وقرا ! ! .

الخاتمة

آخر ما كتبه الأمير المصرى هارماكيس

قادونى الى غرفة سجنى فى البرج . حيث جلست أنتظر تنفيذ الحكم .

لست أعلم متى يسقط سيف القدر على رأسى . . لقد مر الاسبوع فى اثر اسبوع . والشهر بعد الشهر . وما زلت فى الانتظار .. انى علىم انه سوف يسقط على رأسى . . ولكن متى . . لست أدرى .. ربما استيقظت فى ساعة هادئة . . فى منتصف احدى الليالى . . على صوت خطوات القتلة . أو ربما كان الموت أقرب الى من حبل الوريد ! وهنالك أحمل الى الصومعة السرية . كل الفزع ! ومن ثم ينتهى كل شىء . ألا أيها الموت رفقا بى .. وعجل !

لقد سطرت كل شىء . . لم أترك شاردة أو واردة . . انى أثمت . . ثم انتقمت وهاأنذا أعد نفسى لمواجهة الفزع . والعذاب فى العالم الآخر

سأذهب ولكن ليس بلا أمل . . انى أحس بوجود ايزيس المقدسة بجانبى . . ولو أنى لن أراها . . ولن تستمع لصلاتي .

قد أظفر أخيرا بالعفو والمغفرة ، فاذا تحقق هذا الأمل فسيرفع عن عاتقى حمل الخطيئة . . وأغدو مرة أخرى طاهرا نقيا .. ثم أحمـل الى حيث تهدأ روحى فى أرض السلام ! .

أى أرض مصر العزيزة . . انني أراك في احلامي . . أرى أمة بعـد امة . . ترفع رايتها على شواطئك . . وتلقى النيران على اهلك .. أرى ديانات عديدة وعبادات جديدة . . أرى معابدك وهياكلك المقدسة قد دكت فى التراب ! . .

وأرى أناسا ـ لم يولدوا بعد ـ يتطلعون الى المقابر ويعنون أنظارهم بما حوت من عظمة ، نرى الجهال يهزأون باسرار . . وأرى حكمتك تضيع يضيع الماء فى رمال الصحراء .

وأخيرا . . أراك مرة أخرى ـ أى مصر العزيزة المقدسة — حرة قوية وقد عدت الى معرفة آلهتك المقدسة . . تعرفينهم باشـكال أخرى وباسماء اخر . ولـكنهم ما زالوا الآلهة المحبوبة .

***

لقد غربت الشمس فوق أبوثيس . . وأرسل رع خيوطه الحمراء فوق المعابد والهيا كل . . والحقول الخضراء .. والماء النمير . . كل شىء كما هو ، ولم يتغير . . أنا الذى تغيرت ، ومع ذلك فما زلت كما أنا .!

***

أى كليوباترا ، يامن حطمتنى ودمرتنى ، لشد ما أرغب فى أن أنزع صورتك من قلبي . . وذكراك من نفسى !. ان اشجانى لا تقاس بهذا الأسى الممض . . وهو انى ما زلت أحبك !.

أراني مضطرا أن أضم الثعبان الى صدري . . وأغذيه من دماء قلبي .

وما زالت تدوي في اذني ، ضحكات النصر . . والفشل .

اسمع شدو البلبل . . .

(هنا انقطعت الـكتابة فجأة فى الملف الثالث من أوراق البردى .. وانه ليبدو أن الـكاتب قد أزعجـه من أقبلوا ليقودوه الى حيث يلقى مصـيره الأخير)

(تمت)

كليوباترا

سرٌ دفين ... اكتشف في منعزل من صحراء ليبيا المقفرة، في مغارة خلف مدينة أبيروس ومعبدها ... يظهر عظمة امرأة، قرر جمالها الفتان وسحرها الذي يسبي العقول وينفذ إلى الأفئدة مصير الإمبراطوريات في ذلك العصر ...

وينقلنا هذا السر المكتشف إلى عصر الفراعنة الذين حكموا مصر بشعائرهم وطقوسهم ودسائسهم، وجبروتهم، وكليوباترا محطمة العروش إستطاعت أن تجر وراءها أعظم التيجان، ولعبت بقلوب الرجال، تتعرض بدورها للإنتقام والموت.

05579493

الناشر:
التجارية المتحدة - بيروت
المكتبة العصرية - صيدا